

ميرنا المهدي

قضية السنوات السبع

رواية

تحقيقات توح الألفي



@ART_OF_BOOK

قضية السنوات السبع

تحقيقات نوح الألفي

روايات ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

صديقي السيكوباتي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

قنبلة للاستخدام الشخصي

جاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لوز مُر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

قضية ذيل القط - تحقيقات نوح الألفي ٤

قضية مخالب القط - تحقيقات نوح الألفي ٥

قضية السنوات السبع - تحقيقات نوح الألفي ٦

ميرنا المهدي

قضية السنوات السبع

رواية

تحقيقات نوح الألفي





الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٦
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٦
© ميرنا المهدي ٢٠٢٦
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

المهدي، ميرنا.
قضية السنوات السبع (تحقيقات نوح الألفي - ٦): رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٦.

٣٥٢ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9786338594008

١ - القصص العربية.
أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٦ / ٢٠١٢٠

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إهداء

إلى ضحايا العدالة الانتقائية.

تمهيد

لعلّك تعرفني من قبل، وإن كان هذا تعارفنا الأول، فدعني أقدم إليك نفسي في ثلاث نقاط:

- أدعى نوح الألفي.
- أنا ضابط في المباحث الجنائية بمنطقة قصر النيل.
- أنا أرى أرواح الموتى!



مايو
٢٠٢٠

١

قررتُ أن أهدي إلى دليلة، في عيد ميلادها السابع والعشرين، أسطوانة فينيل بتوقيع يويوما، عازف التشيلو الذي يلهمها. اشتريت الأسطوانة النادرة من أمريكا بضغطة زر، فوصلت إليَّ حتى باب شقتي في أقل من شهر. أشياء كهذه أوهمتني بأن كون العالم قرية صغيرة نعمة لا مثالب لها، إلى أن مرض أحدهم بسبب طبق حساء وطواط موبوء في الصين، فوصلت عدواه إلى أمي في حي السيدة زينب في أقل من أربعة أشهر، فلعنت مخترع المحرك البخاري الذي قرَّب المسافات بيننا، ولعنت القرية الصغيرة الخانقة التي أُجبرنا على العيش فيها، ولعنت فلاحها الذين يتفنونون في هلاكنا، ولعنت سنة ٢٠٢٠ التي حسبتها ستكون سنة سعدي، وإذ بها تدس سمها في عسلي!

اجتاح وباء الكورونا مصر بعد عودتي أنا ودليلة من
شهر العسل، بل بالأحرى من أسبوع العسل، في بالي،
وإذ بالعالم يعرض لنا كل يوم سيناريو محتملاً لنهايته،
كأن تفشي وباء قاتل ليس كافياً. حرائق غابات، جسيم
من الفضاء يضربنا، فيضانات، زلازل، أعاصير، انفجار
بركاني، أعمال شغب مسلحة في أوروبا بسبب بكرات
مناديل الحمام، قراصنة في البحر المتوسط يتحاربون
على شحن كمادات طبية، ثورة مهيبة في أمريكا يقودها
الأفارقة الأمريكيان تحت شعار «حياة السود مهمة»، كأننا
رجعنا قرنين بالزمن!

أي عبث هذا!

لم تمر عليّ سنة واحدة من سنوات عمري الثلاثين من
دون أن تكدر الظروف صفوي، محاولات قتلي بالرصاص
وبالسموم وبالقائي من الشرفة لم تكن كافية. تحاول
الحياة الآن قتلي ضجرًا، متسلحة بحظر التجول المسائي،
وبالإغلاق الكلي للأماكن العامة، كأن أحدهم نزع مقبس
دنياي، فقطع تيار البهجة عنها.

حتى عملي في المباحث الجنائية لم ينبج من الضجر، كل
مواطن لزم بيته خوفًا من عدوى الوباء، وكفى غيره شره،
فخلا القسم من الجنة، ومن المجني عليهم، ولم يبقَ

غيري، أحاول قتل الملل بغفوات متقطعة على كرسي
مكتبي غير المريح قبل أن يقتلني هو.

* * *

اغتيال صوت إشعارات رسائل واتساب غفوتي،
فاستيقظت منتفضاً كعادتي، وإذ بشعاع شمس الشروق
الباهت المتسلل من شرفة المكتب المفتوحة يضرب
عيني اللتين تحرقاني بشدة.

دعكت جفني متأففاً، ثم تفقدت هاتفي، إنها الخامسة
صباحاً، الموعد اليومي لاستيقاظ أُمي وإرسالها رسالة
صباحية على جروب العائلة، فأدركت أنني غبت عن
الوعي ساعة كاملة خالية من الكوابيس. يا لها من
معجزة!

حرمت من الغرق في النوم منذ حادثتي الأخيرة. لديّ
هاجس أنني إذا نمت بعمق فسأدخل في غيبوبة أخرى
لا أضمن الاستيقاظ منها، أو سيتسلل قاتل مأجور إلى
غرفتي، ويُفرغ مخزن رصاصه في جسدي وجسد دليّة.
أجبرتني نجاتي من الموت منذ عشرة أشهر على الاكتفاء
بالجلوس على شط النوم، أسمح لأمواجه بملامسة قدمي،
ولكن من دون أن تجرفني إلى أعماقه.

تفقدت رسالة أُمي. لا تكتب إلينا جملاً، بل تكتفي
بصورة رديئة التصميم، كأننا في تسعينيات القرن الماضي،
بطلها كوب شاي، أو فنجان قهوة، أو طفل أوروبي أشقر
يضحك من دون داعٍ، وفي الخلفية زهور وطيور فاقع
لونها، ومكتوب في الركن السفلي منها بخط عريض يراه
الأعمى، دعوة بتيسير الأمور وراحة البال.

رددت عليها كتابة:

اللهم آمين يا ماما. صباحك مربى.

نظرت إلى الساعة السوداء المعلقة على حائط غرفة مكتبي
رمادي اللون، بعد عشرين دقيقة ستكون الساعة السادسة
صباحاً، وسينتهي حظر التجول المسائي، ومعه مناوبتي،
ولكنني لن أتحمل البقاء وحيداً دقيقة أخرى، لا ونيس
لي غير تكتكة عقارب الساعة، وصخب أفكاره الذي
أبغضه. اشتقت إلى ديلتي!

غسلت وجهي، وارتديت كماتي الطبية، ووضعت في
جيبتي زجاجة الكحول الإيثيلي الصغيرة، ومناديل في
حالي احتجت إلى أن ألمس شيئاً، ثم خرجت إلى العالم
الموبوء.

* * *

ما زال الشارع خاليًا من المشاة، ومن ضجيج أبواق السيارات، ومن أي معالم للحياة الإنسانية. لا صوت إلا حفيف الأشجار، وتغريد الطيور، ووقع إطارات سيارتي على الأسفلت.

كسر سكون المشهد الكئيب رنة هاتف بصوت إشعارات رسائل واتساب. هذه رسالة صوتية من زوجتي... زوجتي، ما أعذب وقع هذه الكلمة على نفسي!

قالت بصوت زائته عذوبة بقايا نعاس تطرب لها أذناي:

- صباح الخير يا بيبي. طنط أمل هربت من الشقة ثاني، وعزة نزلت تدور عليها، فهروح أقعد مع علي وعليا.

جارتنا التي تدعوها دليلة «طنط»، مجازًا، هي أمل فهمي البطلة الشابة في أفلام الثمانينيات، وسيدة الدراما في مسلسلات التسعينيات، والممثلة القديرة في مطلع الألفينيات، ثم مريضة الزهايمر المنسية الآن.

بدأت صداقة دليلة وعزة، ابنة أمل المقيمة معها، فور عودتنا من أسبوع العسل، أو للدقة، بدأت صداقة دليلة وطفلي عزة؛ عليا بنت السنوات الثلاث، وعلي ابن السنوات الثماني، حين أعطتهما حبيتي الحنون حبتَي سكاكر من التي تزحم حقيبتها. ومع تعليق نشاط الأوبرا

المصرية مؤقتًا، وغيابي اليومي عنها لما لا يقل عن تسع ساعات في العمل، أصبحت زيارتها إلى عزة عادة يومية؛ تكون اختيارية إذا تمكّن الضجر من دليلة، وإجبارية إذا هربت أمل من البيت، واضطرت ابنتها إلى البحث عنها، كما هو الوضع الآن.

عادة، تجدها بعد دقائق، فأمل لا تملك مفتاح بوابة العمارة، وإن سرقة بطريقته ما وفتحتها ستجد راضي، حارس العقار، جالسًا على مقعده الأثير عند الرصيف، فيعيدها آمنة إلى ابنتها.

دعست زر التسجيل لأجيب على رسالة دليلة الصوتية بأخرى:

- متجوز قنبلة جدعنة. نفسي أفهم عزة مش مركبة قفل إلكتروني لحد دلوقتي ليه ما دام أمها كل مرة بتعرف مخبية المفتاح فين. المهم، لو، لا قدر الله، ما لقتهاش في العمارة قوليلها ما تقلقش، أنا هجيب سجل كاميرات المراقبة من أستاذ ضياء عشان نعرف خرجت فين، وهدور عليها أنا وراضي في الشارع.

أجابني بنبرة تنم على أن مبتدأ رسالتي أضحكها:

- راضي مسافر بلدهم عشان العيد، إنت نسيت؟

- أنا نسيت أصلاً إننا لسه تالت يوم العيد. الله يحرق
الكورونا على الوطاويط. أنا داخل على البيت عايزة
حاجة من السوبر ماركت؟

- عايزة سلامتك.

أعرف أن بقال شارعنا لا يبيع سلامتي، ولكن هذا لا يمنع
أن لردها غير المنطقي والمبالغ في رومانسيته مفعول
السحر فيّ. أدام الله علينا ابتذال الحب!

* * *

لازمي نعيق الغربان الحاد الذي اخترق سكون الصباح،
وهي تحوم في دوائر بين فروع أشجار الحديقة الخلفية،
كأنها تمارس طقساً شيطانياً.

صففت السيارة في الجراج، وتممت على ثبات جراب
طبنجتي في حزامي، وعلى استقرار الأصفاد في جيبي،
ثم عاودت ارتداء الكمامة التي أنزلها حتى ذقني كلما
اختليت بنفسي. خرجت من السيارة وأنا أعلق سترة بدلتي
الصيفية السوداء على ذراعي بطريقة تخفي سلاحي، لا
أود أن يلمحه جيراننا فيعلمون أنني ضابط شرطة، فيبدأون
في طلب خدمات استحقاقية لا أقبلها.

لم يكن في الجراج سوى سيارة دليلة الزرقاء وسيارتين

آخرين. لم يرجع الجيران من المدن الساحلية التي
استغلوا إجازة العيد للجوء إلى بحرهما؛ هرباً من ملل
القاهرة وحظر تجولها وحرارتها.

سرت حتى بوابة العمارة الموصدة، وبمجرد أن فتحتها
بمفتاحي، استقبلتني أمواج من الماء وفقايع صابون، لها
رائحة خوخ ثقيلة استفزت جيوبي الأنفية، وتردد صدى
خبطات يصطنعها راضي بممسحته ليعلمنا أنه ينظف
السُّلم بضمير وإخلاص.

ممتاز، عودة راضي من إجازته ستكون مفيدة في البحث
عن أمل فهمي إذا تأزم الوضع.

كرمشت بنطالي عند الفخدين ليرتفع طرفاه عن الأرض
المبتلة، وصعدت درجات السُّلم المؤدية إلى المصعد
بيبء وحذر، فخيالي السقيم يصوّر لي أن كل خطوة
أخطوها ستؤدي إلى انزلاقي وتكسر عظام حوضي مرة
ثانية.

تبددت هواجسي حين وصلت إلى المصعد بسلام،
وضغطت زر استدعائه بكوعي، ثم سمعت صرير فتح
بوابة العمارة.

دخل جاري القاطن في الطابق الخامس حاملاً حقيبة بقالة.

معرفتي به لا تتخطى إلقاء السلام كلما التقينا في طريقنا
إلى الجراج، حيث يتفقد محرك سيارته الميتسوبيشي
المثبت على زجاجها ورق تظليل قاتم، أو ينظفها بنفسه،
لا أعرف لم لا يدع راضي يؤدي هذه المهمة نيابة عنه
مقابل أجر شهري كما نفعل جميعًا.

أجهل اسمه وسنه ووظيفته، إن كانت له وظيفة من
الأساس، ولكنني أعلم وعن تجربة أن رائحته لا تطاق،
إلى درجة أن دخول المصعد معه يشبه دخولك مخزن
جبن عفن في ظهيرة حارة.

اقترب مني يسبقه عبق عرقه الذي اخترق كمامتي واستوطن
خياشيمي وهو يلقي عليّ السلام، فبادلته إياه، وإذ به يقول:
- تصدق فيه إنسان غير فاضل حكلي العربية من الجنب؟
ده أنا راكنها بالليل وهي زي الفل.

- الله يعوض عليك، الحمد لله جت في الصباح.

وقف إلى جوارتي، فنظرت إلى الأرض، حتى لا ينتبه
لتعبيرات الامتعاض التي لا بد أنها مرتسمة على وجهي
بوضوح، في حين يواصل تدمره:

- أكيد اللي خبطني حد من السكان. محدش بيركن في
الجراج غيرنا.

تراجعت مترين إلى الوراء، لأخلق مسافة آمنة بيني وبين
أنفاسه التي لا يغطيها بكمامة وأنا أقول:

- ممكن تسأل في جروب العمارة، أكيد اللي خبطك ما
يقصدش.

- أكيد... هي المدام حركت عربيتها؟ أصل الخريطة الغبية
دي ما تطلعش غير من ست.

ضحك ضحكة سمجة صداها مقرف أكثر من عرقه،
وظل يحدق إليّ ببشاشة مصطنعة. أظن هذا الغريب
أنني سأسخر معه من زوجتي؟

لم أجاره، فقد هممت أن أتجه إلى السلم في صمت،
وأترك له المصعد يرتع فيه هو ورائحته، ولكنه استوقفني
مضيفاً:

- طب والله شكلها هي اللي خبطتني، وهتشيلك تمن
التصليح.

عاود الضحك وهو يمد يده ليفتح باب المصعد ويشير لي
بالانضمام إليه، فابتسمت له بسماجة لا تقل عن سماجته،
وقلت بنبرة شديدة الغطرسة:

- فداها يا فندم. راجع كاميرات المراقبة مع أستاذ ضياء،
وخذ منه رقمي وشوف يلزمك كام. صباحك مربى.

صعدت درجات السلم متأففاً، وأنا أفتح أول زرّين من قميصي حتى أمد يدي بحرية نحو صدري لأنزع عنه لاصقة النيكوتين العلاجية التي تساعدني على الإقلاع عن التدخين، ولا يجوز أن أبذل مجهوداً يسرع ضربات قلبي، وهي ملتصقة بجسدي، وما من شيء يسرع نبضي بقدر صعود درجات سلم الطوابق الأربعة المؤدية إلى شقتي.

* * *

وقفت أسترد أنفاسي في منتصف البسطة التي تضم شقتي وشقة أمل فهمي وجارين آخرين؛ أحدهما هاجر إلى أستراليا منذ خمس سنوات، والثاني انتقل إلى مجمع سكني في الشيخ زايد.

تتوسط البسطة نافذة مستطيلة عملاقة من الزجاج الملون المتداخل بتصميم ماسي لعبت أنا وقطر تحتها بسيارات سابق ولاحق وكروت البوكيمون في طفولتنا.

وقفت عند بابي الملاصق للنافذة التي يخترقها ضي الصباح ملوناً كما زجاجها، خالقاً قوس قزح على الأرض المبتلة وعلى رسغي بينما أمد يدي إلى جيبتي لأخرج مفاتيحي، وقد استقر نبضي. ولكن سرعان ما ازداد ودق في أذني بجنون، لأنني سمعت صوتاً قادماً من شقة أمل

كان بمثابة نفير أدخل جسدي في حالة استنفار قصوى؛
صريح استغاثة دليلة.

تدفق الأدرينالين في عروقي، وتسلحت بسرعة بديهة
جعلتني ألقى سترتي على الأرض، وتنتقل يدي من جيب
إلى طبنجتي، أرفع صمام أمانها، وتستقر سبابتي في قنطرة
زنادها من دون أن تلمسه بينما آخذ خطوة إلى الوراء
لأركل باب شقة أمل ركلة «ميري» أحترف تسديدها في
عمليات الاقتحام.

انفتح الباب الذي لم يكن - من حسن الحظ - موصداً بقفل
داخلي، فاقتحمت الشقة مشهراً سلاحي، ومطوقاً محيطي
بنظرات تبحث عن الخطر الذي داهم زوجتي حتى أقصيه.

مصدر الإضاءة هو نور الشمس عبر الشرفة. بجوار الباب
خزانة أحذية صغيرة. الصالة فسيحة يغلب على أثاثها
اللون الأبيض. هاتف دليلة في جرابه الأزرق الفاتح
ملقى على الأريكة. التلفاز يعرض كرتونا إنجليزياً. فوق
التلفاز لوحات ضخمة. صور عائلية معلقة على كل حائط.
الستائر الباهتة تتطاير لأن كسر الباب المقابل للشرفة خلق
تيار هواء. لا أحد في الصالة. تقدم!

المطبخ على الطراز الأمريكي مكشوف على الصالة.
يمكنني رؤية أنه فارغ من دون الحاجة إلى دخوله. تقدم!

على يساري حمّام بابه مغلق ونوره مطفأ. أدفع بابه، لا
أحد في الداخل. تقدم!

لماذا تضيع الوقت يا حضرة الضابط، صراخ زوجتك
المستمر يصحبه صراخ طفلين، بالتأكيد هما علي وعليها،
ليس آتياً من هنا. أخلِ المنطقة!

تقدمت إلى الطريقة الواصلة بين الصالة والغرف، ثم
توقفت، لقد وجدت مصدر الخطر!

في نهاية الطريقة تقف أمل فهمي، وتحمل فأساً طويلة
المقبض عند غرفة يبدو أنها مغلقة بقفل داخلي، وأن
زوجتي والطفلين بداخلها، وأمل تحاول كسر بابها بالفأس
في حركة محمومة، كأن روحاً شريرة، من التي تؤمن بها
أمي، قد تلبّستها حتى اخترقت منتصف الباب، مخلقة
نشارة خشبية حول قدميها الحافيتين وهي تغني بإيقاع
موسيقي سيكوباتي بارد:

- دخلوني يا صغيرين. أنا مش عايزة منكم غير شعرة.
دخلوني وإلا هتعصب وهنفخ وهفجر وهكسر، هكسر،
هكسر!

خططتُ لمداهمة العجوز، ممتلئة البنية، من الخلف،
وسلبها سلاحها. اقتربت بحذر حتى صرت على بُعد

خطوتين منها، وإذ بي أرتكب خطأ يفقدني عنصر المفاجأة
الذي تعتمد عليه المداهمة كلها؛ ارتطمت بأصيص زرع
في زاوية الطريقة، فتهشم على السيراميك الأسود محدثاً
جلبة جعلت أمل تستدير مطوحة فأسها صوب رأسي،
ولولا أنني تراجع بسرعة لأصابت وجهي بطرفها الحاد
الملطخ بدم جاف.

ليتها لم تستدير، ولم تُرني منظرها الذي يليق ببطله فيلم
رعب مبتذل!

تعتلي شفتيها الرفيعتين ابتسامة خبيثة، ويتطاير من عينيها
الخضراوين شرر شيطاني متعطش إلى العنف. شعرها
الأبيض أشعث منتفش، وثوبها الوردي الطويل ملطخ
بالدماء في المنطقة من الصدر حتى السرة، وأصابعها
المتغضن جلدها تطبع بصمات دموية على مقبض الفأس
الخشبي.

لعن الله اللحظة التي قررت فيها زوجتي أن تجالس
حفيدتها!

اقتربت مني ببطء لئيم. تراجع إلى الوراء فتقدمت نحوي
كحبة تخطط لهجوم مباغت، ولكن فلننظر إلى الجانب
المشرق، على الأقل شتت انتباهها عن دليلتي.

لم أعاشر أمل بقدر ما عاشرتها دليلاً، ولكنها كانت تحكي لي عنها وعن أسرتها الكثير، ومن ضمن ما أذكره بوضوح الآن أن لديها خزانة ثياب وإكسسوارات وأدوات الشخصيات التي لعبتها في أبرز أفلامها، ويدفعها الزهايمر أحياناً إلى ارتداء ملابس هذه الشخصيات، وإعادة تمثيل مشهد عالق في فتات ذاكرتها.

ألهذا كانت تغني هذه الأغنية العجيبة وهي تكسر الباب، ولهذا يبدو الوضع مألوفاً لديّ؟

بلى، رأيت هذا الموقف في أحد أفلامها القديمة، أظنه كان بطولتها الأولى، وقد علق في ذهني من فرط ركاكته، فالمخرج والمؤلف سرقة فيلم «The Shining» جملة جملة وكادراً كادراً في محاولة فاشلة لصناعة فيلم رعب في الثمانينيات، ولكن استبدلت الشخصية التي لعبها جاك نيكلسون ببطولة نسائية.

أخفضت طبنجتي من دون أن أزيح سبابتي عن قنطرة الزناد، وجمعت رباطة جأشي، ثم صحت بمرح مفتعل: Cut - هايل يا فنانة! مشهد ممتاز.

توقفت في مكانها، واستمرت في التحديق إليّ لبرهة، وإذا بنظراتها الشيطانية تنمحي، وابتسامتها الخبيثة تتلاشى،

وتتحول إلى أطف ابتسامة يمكنك أن تراها على وجه
امراة طيبة تخطت السبعين من عمرها.

وضعت يدها بخجل على وجهها الباهت الذي يفترشه
النمش، ثم أرجعت شعرها الطويل الذي كان أشقر ذات
زمن، خلف أذنها، وقالت بصوت لم تسلب الشيخوخة دلاله:

- بجد يا أستاذ؟

تنفست الصعداء، نجح ارتجالي!

رأيت عيني دليلة الداكتين الواسعتين من الفجوة التي
خلفتها الفأس في منتصف الباب، يبدو أنها تعرفت على
صوتي فاقتربت لتتفقد ما يحدث خارج الغرفة التي لا
أفهم إن كانت حبست نفسها أم حُبست فيها.

رفعت سبابتي عند فمي لأشير إليها بالصمت، أخاف أن
يقع أي مثير يعيد أمل إلى وهم تمزيق حفيديها وزوجتي،
واستأنفت تقمص دور المخرج فأمرتها:

- ارمي الفأس على الأرض عشان ندخل على المشهد
اللي بعده.

أطاعتني، وألقت الفأس، وبمجرد أن رن رأسها المعدني
على السيراميك، أخرجت الأصفاد من جيبتي، واقتربت
نحوها بحذر قائلاً:

- إديني إيدك اليمين.

مدت يدها بحماسة وهي تسألني:

- هنجير الراكور؟

لم أفهم سؤالها فتجاهلته. أحكمت إغلاق صفد حول
رسغها الأيمن بلطف لا يؤذي جلدها، وتركت الثاني
مفتوحًا، ثم أعدت صمام أمان طبنجتي، وعلقتها في
جرابها.

أرشدت أمل إلى الحمّام وأنا أحاول تشتيت انتباهها عن
الأصفاد بأي ثرثرة فارغة:

- هنخلي المشهد في الحمّام.

- هقطع راس بسام تاني؟

لم أجبها، كنت منشغلًا بإشعال نور حمّام الضيوف الذي
يغلب عليه اللون الأخضر، والمكون من مقعد حمّام
بجانبه مغطس استحمام صغير، ويقابله حوض فوقه مرآة،
وقفت أمامها وقالت بحزن عميق:

- ماما؟ إنتي عجزتي كده إمتي؟

أبعدتها عن المرآة قبل أن تدرك أن ما تراه هو انعكاسها،
فتنصدم، وتضطرب، وترتكب مصيبة أخرى.

أغلقت غطاء المقعد، وأجلستها عليه، لأنني وجدت ما يناسب غلق الصفد الثاني حوله، حتى لا تؤذي شخصاً آخر قبل عودة ابنتها؛ حامل مناشف معدنياً مجاوراً للمقعد.

فرغت من إغلاق الصفد، وزفرت بثقل، وعرق القلق يندي جبينني، ثم قلت بآخر ذرة هدوء أملكها:

- ما تتحركيش غير لما أقولك أكشن. واضح؟

- واضح. ابعثلي بقى حد من الإنتاج يجييلي قهوتي وسجايري. وجيولي ميريت.

خرجت، وانتبهت لوجود قفل خارجي في مقبض الباب المستدير فأوصدته، ثم أسرعت نحو الغرفة التي ما زالت دليلاً تتابعني عبر فجوة بابها المكسور.

فتحت لي الباب من قبل أن أطلب منها، ثم اندفعت نحوي ممسكة بيدي الطفلين المذعورين، ولم تتركهما إلا لتعانقني وهي ترتعد بين ذراعي، وتخرج منها غمغمة مبحوحة، كأنها فقدت القدرة على النطق.

ضممتها بقوة، متمنياً لو أقدر على صهرها بين ضلوعي حيث يستحيل أن يمسها سوء، وربت على ظهرها ورأسها، فلمحت من خلف كتفيها الصغيرين المتشبثين بها؛ عليا بشعرها الكستنائي وبشرتها البضة وعينيها الزرقاوين

الفاتحتين، تعانق ساقها من الجانب، وتبكي في حرقه.
أما علي فدموعه محتقنة في عينيه الرماديتين، وغرة شعره
الأسود الكثيف التصقت بجبينه العريض المتعرق. يحكم
قبضة يده اليمنى على طرف تشيرت دليلة الفضفاض،
ويربت باليسرى على ظهر أخته.

وددت أن أعرف السيناريو الذي أدى إلى هذا التصاعد
العنيف، ولكن اللحظة ليست لحظة استفسار وتحقيق،
هذه لحظة طمأنة فحسب.

سألته بنبرة مطمئنة تمكنت من افتعالها متجاهلاً جلمود
القلق الجاثم على صدري:

- حد حصله حاجة؟

عانت دليلة لتكون جملة منطقية:

- لأ. كانت هنا. ما كنتش أعرف إنها جوه. شيلت علي
عشان أنيمه لقيتها بتجري ورايا. لو ما قفلتش الباب
كانت هتقطعنا و...

قاطعتها، فذعر الراشدين مُعدٍ للأطفال.

- لا هتقطعكم ولا حاجة. حصل خير. وإنتو زي الفل.
تيّة أمل كانت بتلعب معاكم، صح؟

فهمت دليلة ما أرمي إليه، فهزت رأسها، ودعكت عينيها،
حتى لا تفر دموع الهلع أمام الشقيقين المرتعبين، وقالت
في محاولة منها لتجنبهما قلقنا:

- صح. كانت لعبة بتخوف شوية، وأنا شكلي خسرت.
زاد اختناق صوتها حتى احمر جفناها وطرف أنفها
الصغير، فقبلت مفرق شعرها الأسود الذي تفوح منه رائحة
جوز الهند ثم خديها.

انحنيت، وعانقت علي الذي ربما لا يبكي مثل أخته التي
تحملها دليلة عن الأرض الآن، ولكن اصطكاك أسنانه
الحاد يوحى بأن الخوف الكامن في روحه البريئة ليس
أقل منها.

كان جسده متيبسًا، وأطرافه باردة، فضممت يديه
الصغيرتين بين راحتي لأدفعهما وأنا أقول:
- شكلك حريف ألعاب رعب يا علي.

هز رأسه مؤيدًا من دون تعليق، فحاولت مداعبته حتى
أنزع عنه رهبة اللحظة.

- يعني ما خُفتش من تمثيل تيتة؟

- الرجالة مش بيخافوا.

أمسكت دليلة يده، وجلست على طرف السرير الذي يتوسط هذه الغرفة الضيقة بسيطة الأثاث وغير المرتبة بالمرّة، ويبدو أن أحد الصغيرين فنان قرر أن يشخبط على الحوائط الأربعة بعرضها كله.

وضعت كل صغير على فخذ، مسندة رأسه إلى صدرها، وما زالت آثار ارتعادها تظهر في رعشة أصابعها وهي تربت على خديهما.

قلت وأنا أضع شعرها، الذي طالت أطرافه حتى صدرها، خلف أذنها:

- أنا معاكم لحد ما عزة ترجع. خدي نفسك، وعرفيها إن أمها هنا.

- موبايلى بره.

- هجيبهولك.

- وممكن ميه؟

- حاضر.

خرجت من الغرفة، ودخلت المطبخ لأحضر لها الماء، وهنا أدركت أن جرعة الأدرينالين انتهت. تلاشى مفعولها السحري فباغتني عضلاتي بآلم أجبرني على الوقوف

أمام الثلاجة قديمة الطراز، والاستناد بثقلي كله إلى بابها
فاهتزت في مكانها.

حين سمعت صراخ دليلة تخيلت أشنع السيناريوهات:
ما وقع لقطز وآسيا حين أرسل عاطف الملعون زعفران
ليقتلها هي وطاهر، وحين اقتحم عاطف وصديقه هادي
شاليه الغردقة واغتالا أبي في أثناء نومه، وحين أرسل
صبيًا من صبيانهِ إليَّ في غرفة العناية المركزة ليخنقني،
وتصدت له دليلة، مخاطرة بحياتها.

عقلي هو ألد أعدائي، وخيالاتي تابعة ذليلة له تحقني
بجرعة دورية من الذعر لتسمم سكينتي، ولكنني أرجأت
اعترافي بهذا الذعر حتى أنقذ زوجتي أيًّا كان الخطر الذي
يهددها، وها قد اكتملت المهمة بنجاح، وأن للهلح أن
يستفرد ببدني.

شهيق ثم زفير. ماذا ترى؟ ماذا تلمس؟ ماذا تسمع؟ وكل
تمارين الإدراك التي علمتني دليلة ممارستها حتى لا أصير
مضغة بين فكي نوبة ذعر مفترسة.

رطمت جبیني بالثلاجة عدة مرات، مكرراً الكذبة التي
أجبرنا آباؤنا على الإيمان بها، وقالها علي وبدنه الضئيل
يرتعش منذ لحظات.

- الرجال مش بيخافوا.

رفعت رأسي عن باب الثلاجة، ثم زفرت بعنف في محاولة للتطهر من خوفي المثير للشفقة. استعدت تركيزي، وصيبتة على مهمة جديدة: إحضار الماء لدليلة وللطفلين. حاولت فتح الثلاجة، ولكن بابها كان متيبسًا، أو ربما كانت قبضتي هي المرتخية. استخدمت مزيدًا من البأس فانفتح الباب العالق بقوة اهتزت لها أرففها، وبالتبعية تحركت محتوياتها التي كان من ضمنها طبق ضخمة من الحديد الزهر.

لاحظت آثار أسمنت جاف حول حواف الطبق، فاستغربت وجوده في الثلاجة بين الفاكهة، ولكن سرعان ما تحول الاستغراب إلى صدمة حينما انتبهت إلى أن فيه رأس رجل مقطوعًا.

نفرت من المنظر، فاهتزت الثلاجة التي لم أترك مقبض بابها، فمال الرأس المبتور إلى طرف الطبق، ثم سقط وارتطم بساقي ملطخًا بنطالي بدمه المتخثر في قاعدة الطبق، ثم ارتد إلى الأرض، وتدحرج حتى استقر في المسافة بين قدمي، والثلاجة تلقي ضوءها الأبيض الكئيب عليه، فيتبين لي أن هذا الرأس ضُرب بآلة ثقيلة شوّهت جانب وجهه الأيسر.

دعت لي أمي بتيسير الأمور منذ ساعة، وهأنذا أقف في
مطبخ عجوز مصابة بالزهايمر كادت تمزق زوجتي أشلاء،
وبين قدمي رأس رجل ضلّ عن كتفيه.
بركة دعائك يا أمي!

وقفت عند مدخل المطبخ بالعرض؛ لأجنب دليلاً
والطفلين لمح الرأس المقطوع على الأرض وهم يمرون
من المساحة الضيقة بين عتبة المطبخ وخزانة الأحذية
المجاورة لباب الشقة.

أخبرتها بوجود جثة في المطبخ، ولكنني أعفيتُها من
معرفة أي جزء منها موجود بالضبط، لم ألوث عقلها
بهذه التفاصيل الدموية البشعة.

رافقتهم إلى الخارج موارباً باب شقة أمل خلفي، في
اللحظة نفسها التي نزل فيها راضي من الدور الخامس
يدندن مهرجانياً شعبياً لا فكرة لديّ عن اسم مغنيه، يتدفق
ضحججه إلى أذنيه عبر سماعتَي هاتفه الصيني.

لا بد أن ضخب الأغنية، التي يصل إليّ زمير مزمارها، كان
سبب عدم انتباهه لصريخ دليلاً، فراضي في العادة لا يتوانى

عن مساعدة سكان العمارة، وما أكد تخميني هو الطريقة
التي نزع بها السماعتين من أذنيه حين انتبه لسترتي الملقاة
على الأرض ولانتقال علي وعلياً في رفقة دليله إلى شقتنا.
حك شاربه الكث الذي خالطه شيب سابق لأوانه، وسألني:
- أي خدمة يا باشا؟

- استناني.

قلتُها وأنا أتقدم دليله والطفلين بخطوتين لأفتح باب شقتنا،
ووقفت أتابع دخولهم، ثم صوت قرعة القفلين الداخلين.
التفتُ إلى راضي لأسأله وأنا أمسح عرق جبينني بمنديل
أخرجته من جيبني:

- شُفت أمل بره شقتها؟

- ما حصلش.

- وما قابلتش عزة وهي بتدور عليها؟

- لا يا باشا، أنا من ساعة ما رجعت من البلد ما شُفتش
حد من السكان غير حضرتك دلوقتي.

- وإنت رجعت إمتى؟

- إمبراح المغرب. الحكومة نكدت عليّ فسبتلها البلد
كلها، الله ينكد عليها عيشتها.

- الحكومة؟! -

- حكومتى يا باشا، حُرمتى!

- طب، سيب اللي فى إيدك، واقف على باب الشقة، مش عايز دَبَّانة تدخل غير بأمرى.

- عيني. بس هي المدام أمل والمدام عزة صابهم حاجة كفى الله الشر؟

- مش عايز أسئلة يا راضى. هتسد معايا ولا لا؟

- اعتبر معاك السد العالي يا باشا.

مدحت مفهوميته، وأثنت على تعاونه، لا أريد أن يصل خبر الرأس المقطوع إلى أي مخلوق في العمارة قبل أن أبلغ القسم، بل قبل أن يغلق التحقيق كله.

دخلت أبحث عن جسد صاحب الرأس في غرفة المعيشة، ثم غرفة نوم أمل التي تكثر فيها صور لفتاة شقراء، عيناها بُنيتان واسعتان، في مراحل عمرية مختلفة.

لم أجد باقي الجثة، ولا حتى دماء تتوافق كميتها ونمطها مع فعل الذبح. من الواضح أنني لست في موقع الجريمة الأصلي!

أبغض جرائم الذبح وأحتقر مرتكبيها، ما من مبرر لذبح إنسان

كما تُذبح المواشي! لم أحقق في حياتي إلا في جريمتي ذبح
وقعتا في ميدان طلعت حرب منذ خمس سنوات، وها هي
ذي الثالثة تُرتكب على بعد أمتار من شقتي!

سرت في خطوط متوازية من الباب إلى المطبخ، إن لم
تكن الجريمة وقعت هنا، فلا بد أن مرتكبها ترك أثرًا وهو
يضع الرأس في الثلاجة.

أخرجت من جيبِي دفترِي الأسود الصغير وقلمي، وبدأت
أسجل كل ما لاحظته بينما أسند بكتفي هاتفي إلى أذني
لأتصل بقطر.

أجابني بعد رنة واحدة بنبرة استغاثة:

- آلو يا نوح. إنت سايبني وبتعمل إيه؟

فهمت سبب الاستغاثة حين سمعت صلاح يقول فيما بدا
لي كأنه ألصق شفتيه بالهاتف:

- نحنوحة، عم عيالي!

صاح فيه قطر:

- اتكلم من بعيد يا صلاح، وابعد إيدك عن فطاري!

- يا جدع اللي ياكل لوحده يزور.

- واللي يبص بعينه يعور.

إنه شجارهما الطفولي الذي ينشب كلما تولى قطز وردية
صباحية تبدأ في أثناء وردية صلاح وفادي اللذين نحّاهما
اللواء رشوان عن منصبيهما في البحث الجنائي، وحولّهما
إلى ضابطي نظام في شوارع قصر النيل، بسبب إهمالهما
الجسيم في قضية كول ستر «إلقف»، الذي كدت أدفع
حياتي ثمناً له.

يتعمد صلاح اقتطاع جولته الأمنية، والتوجه إلى مكتبنا
ليسرق بالإكراه ساندويتشات الروز بيف والنوتيلا في
أرغفة البيتي بان الفرنسية التي تعدّها آسيا لقطز.

رحمة الله على ساندويتشات الفول والطعمية من عربة
«ليفرفول»!

في وقت آخر كنت لأجد جدلهما مسلياً، ولكنني في وضع
لا يسمح للاستظراف، فصحت بضيق:

- قطز!

- معاك.

- هات قوة وتعالالي. أنا لقيت راس بني آدم في تلاجة
جارتنا!

* * *

اتصلت بأستاذ ضياء، رئيس اتحاد مُلاك العمارة، وطلبت منه أن يسمح لي بالولوج إلى تطبيق كاميرات مراقبة العمارة بحجة أننا نبحث عن مدام أمل فهمي، لم ألمح له بوقوع جريمة في العمارة.

رحب بطلبي مشكورًا، وأخبرني بأنه سيرسل إليّ رابط التطبيق حتى أطلع على التسجيلات كلها، فاستأنفت تدوين ملاحظات المستجيب الأول في انتظار ذلك.

صوّرت كل تفصيلة قد تؤثر في علاقة الانتقال والمبادلة الجنائية في الموقع: الفأس، والرأس.

بدأت بالرأس الذي لم أحركه قيد أنملة من مستقره على الأرض، اكتفيت بإشعال ضوء المطبخ، وملت ضاغطًا على كامرتي، حتى أتمكن من تأمل منظره ووصفه بدقة في دفثري:

● جرح قطعي غائر تسبّب في فصل الرأس عن منتصف العنق تقريبًا.

● طرف بداية الجرح حاد رفيع، وطرف النهاية مربع مشرذم، مما يوحي بأن سلاح الجريمة آلة ثقيلة شبه حادة (على الأغلب الفأس المضبوطة في موقع الجريمة).

- حواف الجرح حادة، وبزواياها رضوض واضحة إثر تكسر عظام العنق.
- مسار الجرح الابتدائي منتظم ومتماشٍ مع استدارة الرقبة (المجني عليه لم يقاوم ذبحه).
- اشتباه في كسور عظم الوجنة والفك بالجانب الأيسر من الوجه، مع تورم العين ونزيفها، وسحجات على الجبين بجروح رضوية متهتكة الحواف مزقت الجلد. يرجح أنها بسبب أداة صلبة ملساء غير قاطعة (مطرقة أو شاكوش أو تمثال ثقيل... إلخ).
- بمجرد أن فرغت من الرأس، خرجت من المطبخ، وانتقلت إلى الفأس. فحصتها بنظري من دون أن ألمسها، ثم سجلت ما لاحظته:
- مقبض الفأس خشبي، به شقوق طولية وطرفه مقوس (على الأغلب تعرض للشمس فترات طويلة. ربما كان في الشرفة).
- توجد لطخات دموية المنظر، وعليها بصمات أصابع واضحة (على الأغلب بصمات أمل بما أنني ضبطت الفأس بين يديها).
- يمكن للعين المجردة أن تلاحظ آثار لحمية وأنسجة

جلدية عالقة في طرف الفأس الحاد (مما يتناسب مع الجرح في الرأس المذبوح).

كنت على وشك التوجه إلى باب الشقة بحثاً عن أي أدلة محتملة في محيطه، ولكن استوقفتني ثلاث لوحات زيتية ضخمة معلقة فوق التلفاز. أدركت بعد ثوانٍ من تأملها أنها تسرد حكاية ثلاث جرائم قتل دموية ارتكبتها امرأة واحدة. لا يختلف القتل والقاتلة بين اللوحات الثلاث. السفاحة ليست ممشوقة القوام، ولا رقيقة وناعمة، كما اعتدت رؤية النساء في اللوحات القديمة التي تعرضها لنا حماتي كلما دعتنا إلى الغداء في بيتها. بدت لي شديدة الواقعية، عريضة البنية، تكثر الاستدارات في جسدها الملفوف بأثواب فضفاضة، أكمامها منفوشة، وتكشف صدرها البض الممتلئ، وتلتف حول رأسها جدائل شعرها الكستنائية كالمخروط، مزينة بدبابيس مرصعة بأحجار أنيقة. أما القتل فله بنية مقاتل روماني، ولحية مهندمة، وشعر بني أملس.

في اللوحة الأولى، الرجل الملتحي مُستلقٍ على الأرض في ثوب أحمر ينتهي بتنورة حربية زرقاء. علمتني حماتي أن استخدام هذه الدرجة من الأزرق يرمز إلى أن لصاحبها مكانة بارزة. وما يؤكد صحة هذه المعلومة أن في الزاوية

السفلية من اللوحة سيفاً ذهبي المقبض ملقى على الأرض، كانت حماتي لتخبرني بأن هذه علامة على أن المحارب تخلي عن حذره.

بالتأكيد تخلي عن حذره، ففي ملامحه استكانة، وفي عينيه وداعة، وفي نظرتة سلام، كأنه على وشك النوم. لا يعلم أن الحسناء مرتدية الثوب الأصفر الأنيق التي أرخى رأسه بين ركبتيها، تمسك مسماراً طويلاً طرفه على بعد أنملة من مؤخرة رأسه، وترفع يدها إلى مستوى رأسها بمطرقة، في إحياء بأنها ستدق المسمار فيخترق رأس الرجل الذي آمن لها.

في اللوحة الثانية، استعانت القاتلة نفسها بشريكة شابة، المنديل الأبيض المربوط على رأسها وثوبها الأحمر الرث يتضادان مع أناقة ثوب السفاحه الأزرق. وبعكس اللوحة الأولى، الجريمة هنا ليست على وشك الوقوع، نحن نشهد وقوعها بالفعل.

قتيل اللوحة عارٍ، لا تستره سوى ملاءة بيضاء تغطي نصفه السفلي. الخادمة عند طرف السرير تقيد حركة الرجل العملاق الذي يقاومها، ويجذب ياقة ثوبها، كأنه يحاول أن يخنقها. هيهات! السفاحه المحترفة تقف عند موضع رأسه، تقبض بقسوة على شعره، فتجذبه نحوها، وتبدأ

بنحر عنقه بسيف. تسيل الدماء على الملاءة البيضاء، ولكن القتيل لم يمُت بعد، ثمة وميض مقاومة، أنا والرسّام والسفاحه ومساعدتها نعلم أن لا فائدة منها.

اللوحة الثالثة هي الأبرع، ليست ما قبل الجريمة، ولا في أثناء تنفيذها، بل هي ما بعد إتمامها بنجاح.

لا رجال في هذه اللوحة، فقط رأس القتيل الذي ذُبح في اللوحة الثانية داخل سلة من الخوص ملطخة بدمائه، تسندها الشابة، مساعدة القاتلة ذات الثوب المهلهل، إلى خاصرتها. السفاحه الأرستقراطية تسند السيف إلى كتفها كمحارب محترف، وتمد عنقها بقلق إلى اليمين، وكذا شريكها. كلتاهما تنظران بترقب، كأنهما سمعتا ضجة أو صوتًا يدنو منهما ليكتشف جريمتها الوحشية.

التقطت صورًا للوحات الثلاث، وأرسلتها إلى حماتي، فبحكم أنها فنانة تشكيلية تحفظ تاريخ الفن وسير الفنانين، كما تحفظ كفها، يمكنني الاستعانة بها كخبير فني في هذه القضية لعل لتأويلها علاقة بهذه الواقعة الشنيعة.

قبل أن أعيد الهاتف إلى جيبِي، وصل إليّ رابط التطبيق من أستاذ ضياء. حملته، واتبعت الخطوات المطلوبة وصولاً إلى سجلات كاميرات المراقبة.

حالة التيبس الرمي والزرقة التي لاحظتها على الرأس المبتور تشي بأن ذبحه لم يمر عليه أقل من ساعة، وليس أكثر من ثلاث ساعات، فشغلت التسجيل على السرعة القصوى، منتظرًا أن أرصد دخول أو خروج أي فرد.

سجلت كاميرا بوابة العمارة خروج عزة في الساعة الخامسة صباحًا، ثم خروج جارنا ذي الرائحة النتنة بعدها بخمسين دقيقة متجهًا إلى الجراج الذي بقي فيه اثنتي عشرة دقيقة، ثم دخل محل البقالة المقابل لعمارتنا. عدت من القسم ودخلت العمارة في السادسة وخمس دقائق بعد أن صففت سيارتي، ومن بعدي بنحو دقيقتين دخل جاري يحمل حقيبة بقالة.

تفقدت ملفات كاميرا الجراج. في الخامسة وأربعين دقيقة، يدخل رجل قصير شديد النحافة بقميص أسود، يرتدي قبعة شمسية، ونظارة شمسية، وكمامة. يسير على قدميه نحو دراجة نارية زرقاء مركونة خلف سيارة جارنا الميتسوبوشي. يركبها، ثم يهم أن يقودها، ولكن يختل توازنه، فيحتك جانب دراجته بمؤخرة السيارة، ثم يغادر الجراج.

بعدها بنحو عشر دقائق يدخل جارنا السخيف الجراج، ويتفقد آثار حادث الاحتكاك، ثم ينظر إلى سيارة دليلا المركونة إلى جوار سيارته، فيضرب كفاً بكف، ثم يركل

إطار سيارة زوجتي بغيط، ويبدو من حركة جسده أنه يسب
ويلعن وهو يغادر الجراج. ليست المتسببة في الحادث
يا غبي!

لا غريب في تسجيلات الكاميرا غير قائد الدراجة النارية.
ربما يجب أن أعود إلى فترة أطول بالتسجيلات، أو أرسلها
إلى مهندسنا التقني، مصطفى، فهو...

علشان ما هي سن سبعتاشر قال يعني خلاص
تزعل ويايا لو أبوسها قدام الناس

قطع غناء مدام أمل حبل أفكاري بمقص آثم، رفعت عيني
عن شاشة الهاتف، واتجهت إليها في الحمّام.

ما زالت جالسة على مقعد الحمّام، ومقيدة إلى حامل
المناشف، ولكنها الآن في حالة تجلّ، تغني وترقص
بنصفها العلوي بدلال لطيف لا إغراء فيه.

قطعت حالة السلطنة التي غرقت فيها، ومددت يدي
صوبها لأبدأ أغرب استجواب أجريته في حياتي المهنية.
- قسم الإكسسوار طلبوا مني أصور إيدك.

توقفت عن الغناء، ورفعت حاجبها الأيمن وهي تسألني
بتربص:

- اوعى تكون الجربوع اللي سرب صور إيدي وباعها
لناس مش مضبوطة.

استعجبت من تعليقها، ولا أدري إن كان ناجماً عن تجربة
حقيقية تعرضت فيها للمتاجرة بصورها لأغراض جنسية
مشبوهة، أم عن هاجس هياها خرفها!

استعنت بنبرة مهذبة متمنياً أن تخلصها من قلقها:

- إحنا بنصمم جوانتي الشخصية هتمسك به الفاس عشان
تخفي بصماتها عن الشرطة.

- وليه تخفي بصماتها وهي في الآخر هتخرج الراس من
التلاجة، وهتسلم نفسها في القسم؟

أهذا ما حدث؟ هل عاشت أمل تفاصيل فيلمها للآخر حتى
أوصلها الزهايمر إلى تنفيذ الجريمة على أرض الواقع؟

- إنتي اللي حطيتي الراس في التلاجة؟

- لأ، إنت اللي حطيتها.

- أنا!

- مش إنت المخرج؟

قالتها بابتسامة خبيثة، بينما تمد يديها أمامها ملبية طلبي،
فصورتهما، وحرصت على إظهار تفاصيل لطخات الدم

المجففة على أناملها التي يتماشى نمطها مع البصمات
المدماة على مقبض الفأس.

حين انتقلت من تصوير يديها إلى بقع الدماء على صدر
ثوبها، دفعتني بيدها غير المكبلّة، ثم حاوطة صدرها
بذراعها وهي تصيح:

- بتصور إيه يا حيوان! يا إنتاج! يا إنتاج!

دخلت في نوبة من الصياح، فأدركت أن لا نفع من استجوابها.
خرجت من الحمام متجهًا إلى باب الشقة الذي يسده
راضي ببدنه العريض، نويت أن أتخطاه، وأطرق باب شقتي
لأطمئن على حال دليلة والصغيرين، وأسألها إن كانت
كلمت عزة أم أن هول الموقف أنساها، ولكني لاحظت
شيئًا لافتًا على الموكيت الأسود الصغير الذي يبعد عن
عتبة الباب بخطوة إلى الداخل؛ رملاً خلفه نعل حذاء.

انحنيت متأملًا الأثر، ليس انطباعًا واضحًا يشي بمقاس
الحذاء، ولا بنمط نعله ليسيّر عليّ الوصول إلى صاحبه،
ويبدو أن أحدهم خطا فوقه، قد أكون أنا، وقد تكون دليلة
أو الطفلان، الله أعلم، المهم أنني انتبهت إلى أن الأثر
يتكرر على الموكيت في المسافة من الباب وحتى مدخل
المطبخ، ثم غرفة نوم أمل.

أشعلت مصباح هاتفي، ونظرت إلى الأثر المشوّه من
كثب، هذه ليست مجرد رمال، إنها حبات رملية مدماة!
إن افترضنا أن هذه آثار قدمي أمل، فالدم أتى من الضحية
مبتورة الرأس بلا شك، ولكن من أين أتت الرمال؟
لم ألاحظ أي مصدر للرمال في هذه الشقة، أعني هذا أن
مصدرها الشارع؟

كلّا، بشارعنا تراب ناعم يخلو من الرمل المتبلورة حباته، كما
أن الكاميرات لم تسجل خروج أمل من العمارة من الأصل.
لا أملك سوى افتراض أن مصدر الرمل شيء داخل العمارة،
وطبعاً لن أعرف أي شقة، ولا أي طابق بالتحديد، لأن أستاذ
ضياء رفض تركيب كاميرا مراقبة فوق كل باب شقة، أو
أضعف الإيمان، كاميرا واحدة في كل طابق، رأى في اقتراحي
وسوسة أمنية لا تليق بعمارة لم تقع فيها واقعة سرقة واحدة.
فردت قامتي، والتفت إلى راضي الواقف عند الباب يراقب
تأملي الطويل للرمال، ومن الواضح أن تعبيراتي، التي تحتد
كلما استغرقت في التفكير في قضية، أربكته، إلى درجة أنه
قال بمجرد أن رفعت عيني عن الأثر ونظرت إليه:

- الباشا محتاس في حاجة؟

- ربنا ما يجيب حوسة. هو السلم كان مترب؟

- مترب بس؟! ده كان يضرب يقلب. ما أعرفش مين اللي،
الله يسامحه، ساب باب العمارة مفتوح فالقطة دخلت
دشملت أكياس الزبالة.

- يعني لقيت زبالة بس؟ ما كانش فيه رمل؟

- وإيه اللي هيخلي العمارة يبقى فيها رمل يا باشا؟ هو فيه
حد من الجيران بدأ يشطب وأنا مسافر؟

زفرت بيأس، ووضعت يدي فوق خاصرتي، وعادت
التحديق إلى حبات الرمل.

أبحث عن مسرح جريمة داخل العمارة يمكن لأمل أن
تدخله وتخرج منه بسهولة. مكان خالي يمكن أن تذبح فيه
رجلاً، وتنزع رأسه عن كتفيه من دون أن يُنتبه لها. مكان
ترك فيه الجثة وتعود بالرأس إلى شقتها من دون أن يراها
أحد، أو ترك خلفها أثراً. مكان فيه ما يكفي من الرمال
حتى تعلق في حداثها مختلطة بدماء مذبوحها.

ربعت ذراعي، وضممتها إلى صدري، وأغلقت عيني،
وغُصت في أعماق عقلي لأتذكر أي لقطة كانت فيها
الرمال تفصيلة ثانوية منذ أن انتقلت أنا ودليلة إلى العمارة.
رمال، رمال شواطئ بالي البيضاء... ما خص الشواطئ
الآن!

الرمال تستخدم في حوش روضات الأطفال وملاعب النوادي. كلاً، يستخدمون الآن في النوادي والروضات الحشائش الصناعية.

صناعية، صناعة، صناعية! يستخدم الصناعية الرمل للبناء وللتشطيب. سؤال راضي كانت فيه الإجابة منذ البداية، لم نجد رملاً داخل العمارة إلا إذا كان أحدهم يعيد تجديد أراضي شقته؟!

ألم يكن الرأس المقطوع في طبق من الحديد الزهر فيه رواسب أسمنت جاف؟ أليس هذا ما يستخدمه الصناعية لخلط الأسمنت؟

آخر شقة تحت التشطيب كانت شقتي، وقد مر على مكوثي ودليلة فيها ثلاثة أشهر.

كلاً، حين عدت من أسبوع العسل، رأيت مجموعة من الصناعية، وكومة رمل تستقر على الرصيف وتمتد بالقرب من مدخل الجراج.

اشتكى أحد الجيران على جروب اتحاد الملاك من كومة الرمل، ومن نباح الكلاب التي تنام على قممتها، ومن تبرز القطط المستمر فيها.

اختفت كومة الرمل، فقد نقلها الصناعية الذين جعلوني

ألعن حياتي بسبب ضجيجهم المستمر، وأغاني حمويكا
التي يسمعونها في أثناء العمل، وتكسير الجدران وصوت
الشنير وتخليع البلاط ...

دعك من ضجيج الصناعات يا نوح. عُد إلى الرمل!

حسنًا، الرمال. نقلها الصناعات، ثم اختفى ضجيجهم، ثم
أخبرتني دليلاً بأن عزة قالت لها إن العمل توقف، لا لأن
الصناعات انتهوا من تشطيب شقة العروسين الجديدين،
ولكن لأن الزيجة انتهت قبل أن تبدأ. زيجة ابن شقيق
أمل الذي كان من المفترض أن ينتقل من العيش في كندا
مع أبيه، المهندس محمد، للإقامة في شقته في الطابق
الأرضي. الشقة التي تنطبق عليها مواصفات موقع الجريمة
المثالي، مهجورة، ولا تكشفها كاميرا مراقبة، وفيها رمل.
وإليك الميزة الإضافية التي تجعلها مكانًا ممتازًا لقطع
رأس أحدهم: ملحق بالشقة حديقة خلفية خاصة تنعق
الغربان حولها كل صباح.

وجدتها!

فتحت عيني، وقلت لراضي:

- ما تتحركش من هنا!

* * *

نزلت درجات السلم إلى الطابق الأرضي، حيث موقع الجريمة المحتمل على يسار المصعد.

وقفت أمام الشقة، وحاولت دفع بابها، متخيلاً أن أمل ربما خرجت منها من دون أن يملي عليها عقلها أن تغلق الباب خلفها، ولكن الباب كان موصداً بالمفتاح، دفعته دفعة قوية بكتفي فاهتز من الوسط والأسفل فقط، أي أنه كان موصداً بقفل إضافي من الداخل.

خرجت من العمارة، لسع شعاع الشمس عيني المرهقتين، فرفعت كفي فوق حاجبي لأحميهما.

أسرعت الخطى نحو الحديقة، متبعاً سورها الفيرفورجيه العالي الذي تفشى فيه الصدأ، وإذ بتفصيلة تؤكد استنتاجي: بوابة الحديقة، التي اعتدت رؤيتها مغلقة بسلسلة حديدية وقفل ضخمة، مفتوحة على مصراعيها.

عبرت البوابة أجيل نظري في المكان.

كل ما في الحديقة مهملة، وأخذ في الذبول: حشائش ميتة، وطاولة صدئة، ومقعدان من الخوص تملأهما الثقوب، وكلب بلدي أسود مسن يتمطى في خمول، وآخر بني أجرب نائم تحت ظل أغصان شجرة اللبخ.

يقابل بوابة الحديقة سور شرفة شقة الطابق الأرضي الملحقة

بسلم داخلي، له بوابة صغيرة مغلقة بقفل، تربط بين الحديقة والشقة. على يمينه، حيث تشتد الشمس، أدوات بستنة، من الأمن أن أضمن أن الفأس التي قطعت بها أمل رأس قتيلاها كانت من بينها. وعلى يساره كومة الرمل المنشودة ترتفع فوق درجات السلم، ثم هناك الكثير والكثير من الغربان السوداء الواقفة فوق السور الأبيض، وعلى درجات السلم، وعلى كومة الرمل، في صمت مهيب.

لا حل أمامي سوى دخول الشقة بالقفز فوق سور الشرفة بحذر. ما كنت لأصعد كومة الرمل وأفسد أي أثر قدم يحتمل أن يكون قد انطبع عليها.

حملت أحد مقعدي الحديقة الخوص، وألصقت ظهره بالسور، ففزعت بعض الغربان من حركتي، وحلقت بعيداً. وقفت فوق المقعد أشرب بعنقي لأتفقد الشرفة قبل دخولها، فوقع نظري على سبب تجمع الغربان.

لا يستلطف عموم البشر الغربان، بعضهم يتشاءم من سوادها، وبعضهم يبغض نعيقها، وبعضهم يمتن لأنها علّمت الإنسان كيف يوارى قتيله تحت الثرى. أما أنا، فأغار منها، ففي حين وهب الله لي القدرة على رؤية الأرواح بعد موت أصحابها بأربع وعشرين ساعة، وهب للغربان القدرة على شم الموت لحظة حلوله.

اقتل قتيلاً واتركه في العراء، أول محقق سيجده سيكون غراباً، تداخل ريشه الرمادي مع الأسود، يعطيك إحياء بأنه يرتدي بدلة عمل رسمية، مثل التي ارتديها اليوم. سيخلق حول الجثة ليؤمن محيطها، فيحط أرضاً، ويقرب منها بحذر ليفحص حالتها، ثم سينعق مستدعيًا باقي رفاقه، فيجتمعون حولها كأنهم معززون متشحون بالسواد. سيقفون دقيقة حداد، أو ربما أكثر، وما إن يتأكدوا أن ما من رفيق حول الجثة ليكرمها بدفنها، ستدرك أن اجتماعهم هذا ليس لإقامة جنازة، بل دعوة للغداء، والمرحوم هو طبق اليوم.

يبدأون باقتلاع العينين، وبعد أن يُفرغ محجراهما يصلون إلى المخ. وبما أن الجثة، التي أراها مسجاة على ظهرها في أرضية الشرفة قد فقدت رأسها، فما كان للغربان المجتمعة حولها إلا أن تنقر مواضع الجروح الثلاثة لتمزق الأنسجة الرخوة بمناقيرها الحادة التي تقطر دمًا.

نعم، قلت ثلاثة جروح، فمدام أمل لم تكتفِ بحرمان قتيلا من رأسه، بل حرمة أيضاً من كفيه.

٣

لم أجد ما أكتبه في وصف الجثة إلا أن صاحبها يرتدي
تيشيرتًا أزرق فاقعًا، وبنطالًا من الجينز الداكن، وحذاء
رياضيًا برتقاليًا، ماركته غير أصلية، وأظن أن مقاسه لا
يقل عن أربعة وأربعين.

صوّرتَه بينما تطير الغربان، وتنطق صوبي، وتخفق أجنحتها
من حولي، اعتراضًا على مقاطعتي لوليمنتها، حتى عادت
إلى أعشاشها، ولم يبقَ غيري فوق المقعد، والمذبوح
المجهول أمامي على بلاط الشرفة الذي طُمست ملامح
تصميمه من الدماء التي تفرشها.

نزلت عن المقعد، وأغلقت دفثري، ثم أخذت لاصقة من
علبة نيكوريت الخضراء التي لا تفارق جيبِي، وألصقتها
على صدري من تحت القميص، فكيف تغزو أنفك رائحة
دماء جثة مذبوحة مبتورة الكفين نقرتها الغربان، وتقاوم
رغبتك في النيكوتين؟!!

تدفق النيكوتين الصحي إلى شراييني، بينما أتلفت حولي
متأملًا محيطي، لا شيء لافتًا للنظر في الحديقة المهجورة
إلا عقب سيجارة، وعلبة سجائر ملقاة على بعد مترين من
البوابة، صورتها على سبيل الاحتياط.

استغللت أنني بمفردي، لن أحسب القتل رقيقًا لي،
واتصلت بدليلة حتى أطمئن عليها ريثما يصل قطز.

ردت بعد رنة واحدة بصوت متحشرج، لا بد أنها
بكت، من لا يبكي بعد أن كاد يُمزق بفأس وفي عهده
طفلان؟!!

- طمنيني عليكم.

- أنا تمام، ونيمت الولاد في أوضة الضيوف.

لغرفة الضيوف هذه حكاية بئسة، سأعلمكم بها لاحقًا.

- ووصلت لعزة. بتشكرنا عشان أخذنا بالناس من الولاد.

- قلتيلها اللي حصل؟

- لأ، عرفتها بس إنني لقيت طنط في أوضتها.

- برافو. هي فين دلوقتي؟

- بتجيب دوا من الصيدلية وجاية.

- أنهي صيدلية؟

- ما أعرفش يا نوح. أنا مش قادرة أجمع جملتين على بعض أصلاً.

تحسست إجهادًا في صوتها، ربما بالغت في إثقالها بأسئلتني كما اعتدت أن أفعل مع الشهود.

- طب ارتاحي دلوقتي ولو عوزتي حاجة كلميني. ما تخرجيش من الشقة غير لما الدنيا تتلم.

- حاضر.

- وأول ما عزة تيجي تاخد ولادها قوليلي.

- حاضر.

- وبرضو لو كلمتك قوليلي.

صمتت. أظنها ضجرت مني، لا لوم عليها، فالقلق يجعلني ثرثارًا كـ«أبو اللمبي» وهو يوصيه على عربة الكبد.

قالت بلطف يشوبه إرهاق:

- لو حصلت أي حاجة هقولك. خيليلي بالك من نفسك.

أنهينا المكالمة التي لم تمنحني الطمأنينة التي أملتها. استمر الخوف في سحقني لمجرد تخيل أنني لو لم أرحل قبل انتهاء ورديتي بدقائق، وانتظرت وصول قطز إلى القسم، وجلسنا ندردش كالعادة فتأخرت على دليلة،

لشقت أمل الباب، وإذ بالرأس في الثلاجة يكون رأس
زوجتي، دليلتي!

أحكم التوتر خناقه عليّ، فأنزلت كمامتي أسفل ذقني،
وأخذت نفساً عميقاً، وزفرته على مهل؛ بحثاً عن انشراح
صدر يصعب إيجاده في هذه الأيام العصبية، ثم اتبعت
نصيحة دليّة: إذا أزعجك مَنْ في الأرض، ارتقِ بنظرك
وتطلع إلى السماء حتى تجد فيها سكونك.

ما من سحابة بيضاء واحدة، السماء صافية أكثر من اللازم،
يا للملل!

أشعة الشمس حادة كطرف الفأس التي مزقت كفيّ القليل
ورأسه. ها هو ذا عقلي الجاحد يلمطخ السماء الزرقاء بلون
أحمر قاني كبركة دماء المذبوح الذي أقف على بعد أمتار
منه.

ألقيت نظرة خاطفة على عقارب ساعة يدي، لماذا تأخر
قطر؟

أكان يلبس القليل ساعة كساعة أبي الفضية التي أتفقد فيها
الوقت الآن؟ كل الرجال الذين أعرفهم يزينون معاصمهم
بساعات، حتى وإن لم تكن مضبوطة.

إذا كنت على وشك أن تُقتل وأنت في كامل وعيك،

فلا بد أنك ستقاوم قاتلك، فتحتفظ بحمضه النووي تحت أظفارك، وبالتبعية سيتمكن رجال البحث الجنائي والطب الشرعي من العثور عليه، وهذا ما فعلته عندما تعرضت لمحاولة قتل في شرفة كول ستر «إلْقُف».

لكن ماذا إذا كنت تعيش الحظ مثل ضحية هذه القضية؟ ماذا لو سلب القاتل كفيك اللتين قاومت بهما؟ هنا ستكتشف أن الفائدة الحقيقية لساعات اليد ليست لمعرفة الوقت، فالهواتف عوضتنا عن هذا، بل الفائدة الحقيقية هي أن ستأوسبعين في المائة من جرائم القتل التي ترتدي فيها الضحية ساعة يد، عُثر فيها على حمض القاتل النووي عالقا بها.

أين ساعتك يا قتلنا المسكين؟

الحديقة مكشوفة أمامي، ما من زوايا يمكن للساعة أن تختفي فيها إلا لو كانت أمل لسبب غير منطقي، كما كل ما في هذه الجريمة غير منطقي، قد احتفظت بها كتذكار، أو دفنتها في كومة الرمل.

لن أنبش الرمال، ولن أدخل الشقة عنوة بحثاً عن الساعة حتى يصل حسني المستكاوي ومساعدته إيهاب، وإلا ستقع عليّ مسؤولية العبث بالأدلة الجنائية. لن أفعل أي شيء حتى يصل قطز، ومعه قوة أمنية. لقد أدت دور

المستجيب الأول على أكمل وجه، وليس عليّ الآن سوى إبقاء هذه الجثة ورأسها في طي الكتمان، حتى يبدأ التحقيق بشكل رسمي.

عاودت النظر إلى السماء وأنا أزفر زفرات طويلة متكررة. يملأ ضوء الشمس الحامي الفجوات بين بتلات البونسيانا الصفراء المجاورة لشجرة اللبخ البيضاء المائلة إلى الأصفرار والجاكرندا البنفسجية. تتنقل الغربان بين الفروع فتتهزها، فتتغير مواقع الضوء المنسكب على الطاولة الرخامية أسفل الأشجار. استمرت لعبة «العسكر والحرامية» هذه بين أشعة الشمس وظلال الفروع إلى أن ضرب عيني انعكاس ضوء، انعكاس لامع وغير طبيعي.

اقتربت من الشجرة وأنا أرفع كفي فوق حاجبي حتى أتمكن من التحديق نحو الفرع، حيث شيء معدني انعكس عليه الضوء فسبّب هذه اللمعة اللافتة إلى جوار غراب صغير الحجم، أظنه فرخاً أو كتكوتاً، لا أعرف اسم صغار الغربان، ولا يهمني أن أعرفه، فقد وجدت ضالتي.

يبدو أن هذا الغراب الصغير لص محترف، فبينما أكلت عائلته الجثة، حظي هو بغنيمة لامعة براقعة تجذب بني جنسه، ساعة فضية ضخمة. أرجو أن تكون ساعة القتل!

انزعج الغراب من اقترابي فنق، ثم حلق بعيداً، على
الأغلب سيشتكيني لوالديه.

وقفت فوق الطاولة أسفل البونسيانا، وصوّرت الساعة
من أكثر من زاوية، ثم وضعت خطة استراتيجية؛ مزقت
صفحة من منتصف دفترتي لأنتشل الساعة من دون لمسها،
ولأحفظها فيها قبل أن يعبث بها مزيد من الغربان، وتطمس
ما قد تحمله من أدلة جنائية.

صعدت أقرب فرع من شجرة اللبخ المتينة، وأمسكت
بآخر يعلوني، ورأسي بين الزهور الزغبة التي تشبه
كرات القطن ولها عطر قوي، أدركت أنه يجذب النحل
فأربكني طينيتها، وتراجعت خطوة في اللحظة التي
استفرت فيها جيوبي الأنفية من رائحة الزهور، فعطست
بعنف، واختل توازني، وانزلقت قدماي عن الفرع الذي
أقف عليه.

اللعة، اللعة، اللعة، سأكسر حوضي مجدداً!

توقف عن الذعر يا نوح، لست على ارتفاع شاهق على
أي حال!

أنقذتني غريزتي في النجاة، ودفعني إلى إحكام قبضتي
على الفرع الآخر الذي كنت أمسكه، فتعلقت به، وتدللت

قدماي في الهواء، فلم يُصبني أذى سوى بعض الشظايا
الخشبية التي خدشت جلدي، واخترقت لحم كفي
المتعرقين.

كنت على وشك أن أضع قدمي على الفرع السفلي مرة
أخرى، وإذ بي أسمع من يقول مقهقهًا:

- أحذلك موز ولّا سوداني؟

التفت إلى قائل الجملة الذي أحفظ صوته، كما أحفظ
صوت أفكاري؛ قطز الواقف على بعد خطوات مني،
غير مكتفٍ بارتداء كمامة طبية كسائر البشر، بل يضع
فوقها قناعًا بلاستيكيًا شفافًا يغطي وجهه كله، كعامل
لحام يحمي من شرر اللهب. له الحق في التحصن وراء
هذه الاحتياطات الوقائية كلها، لو كانت زوجتي حاملًا
في الشهر الخامس مثل زوجته، لاحتميت من لمسات
وأنفاس ورذاذ الآخرين حد الهوس، حتى لا أكون السبب
في مرضها.

أخرج هاتفه من جيبه، وبدأ يصورني فيديو، لا بد أنه
سيرسله إلى جروب عائلتنا، ثم قال بنبرة ساخرة بلهاء:

- تحقيقات نسنوس الألفي!

* * *

لم أرَ قطز منذ الأسبوع الأخير من شهر رمضان، لأن آسيا
اختنقت من عباءة الظلام البهيم التي دثرنا بها حظر التجول
وقوانين التباعد الاجتماعي والإغلاق الكلي للبلد، فانطلقا
إلى سهل حشيش، لتأخذ «حياته» وجنينها جرعتهما من
الشمس واليود.

وقف إلى جوارى، يلوذ كلانا إلى ظل الشجر من لهيب
الشمس. راقبني وأنا أحاول أن أخرج شظايا الخشب
المؤلمة من لحمي، ثم سألني:

- الكلام على إيه؟

- ضميري أنبني عشان روحت قبل النبطشية ما تخلص،
فقلت أعمل مسرح جريمة في العمارة على الضيق.

ضحك ضحكة ساخرة تستثقل ظل ردي وهو يعدل
خاصرة البنطال الذي ضاق على كرشه الأخذة في التزايد
في الأشهر الثلاثة الأخيرة.

منذ أن استيقظت من غيبوتي وأدركت نعمة الصحة،
اشتركت في صالة رياضية في المعادي، رشحها لي
صديقنا وليد عطية، فداومت أنا وهو وقطرز على التمرن،
حتى اكتسبت قدرًا من الليونة، وبرزت لي عضلات لم
أكن أعلم أن دهوني تحرمني منها.

بعد غلق الصالات الرياضية بسبب الكورونا، أحضرت عدة رفع أوزان، وواظبت على الرياضة في شقتي، وكذلك فعل وليد، ولكن لم يقلدنا قطز، بل انقطع تمامًا عن التمرن، وكان يفسر هذا بقوله:

- أنا بربي كرشي على سبيل التضامن مع آسيا لحد ما تولد. حجة مضحكة يعلم كلانا بطلانها، فالحقيقة أنه يلوذ من حبسته في البيت ومن حرمانه من التدخين، حتى لا يضر حمل آسيا أو قلب طاهر، بالتهام كميات ضخمة من أكالات آسيا المفرطة في لذتها ودسامتها.

نزع صديقي الذي ركب القطار السريع إلى السمنة، جهازًا لاسلكيًا من الاثنين المعلقين في خاصرته. رشه بالكحول بغزارة حتى تطاير بعضه إلى عيني فسال دمعي.

علقت الجهاز في حزام بنطالي، ووقفنا نتابع العساكر وهم يشدون الطوق الأمني من بعد رصيف سور الحديقة، ويغلقون الشارعين المؤديين إلى العمارة؛ لحماية موقع الجريمة من العبث أو التلصص. لا أريد أن يصل الخبر إلى الصحافة الآن، خصوصًا أنه يرتبط بنجمة سابقة مثل أمل فهمي.

سردت له تفاصيل ما حدث، فمال برأسه متدبرًا كل جملة

أقولها، ثم سألني بعدما أقسمت له مائة مرة إنني ودليلة لم
يمسنا سوء من هذه الفوضى كلها:

- الجنية ملهاش كاميرات؟

- لا الجنية، ولا المباني اللي بتبص عليها. الشارع ده
ضهر عمارات ومناور، مفيهوش مداخل.

ضم ذراعيه نحو صدره، ثم نظر صوب البوابة المفتوحة بتركيز
شديد كمن يجاهد لحل عملية حسابية عصبية، حتى ظننت
أنه توصل إلى حل الجريمة بمفرده، خصوصاً أنه مال نحوي
وهمس بنبرة لا يستخدمها إلا للتفوه بأمر شديد الأهمية:

- إيه رأيك في كليوباترا؟

لم أكن في مزاج لتوبيخه، جاريته كما جاريت تهيئات
زهايمر أمل.

- منفسه.

ضحك ضحكة تستنكر ردي الساخر على سؤاله الغبي،
ثم قال:

- دمك الثقيل عامل كام كيلو النهارده؟

- والله مش أثقل من دمك يا بارد! شايفني في الوكسة
دي وبتاخذ رأيي في الكيلوباترا!

- هفضل لحد إمتى أعلمك أن اسمها كللليسيوباترا.
- محروق كيلوباترا على أنطونيو. أنا خرمان.
- ما باين إنك خرمان، الظاهر إن تبطيلك للسجاير خلاك
عديم الكاريزما.
- مش أحسن ما أبقى عديم الصحة!
- يا سيدي ربنا يزيدك صحة. أنا أصلاً مش باخد رأيك
في كليوباترا كسجاير.
- أو مال كسيراميك؟! -
- كاسم لبنتي يا بصمجي!
- نظرت إليه فرأيت الكرمشة حول خطوط عينيه، فأدركت
أنه يبتسم ابتسامة حاشتها عني كمامته، وأن سؤاله هذا هو
طريقته ليعلن لي أن طفله المنتظر سيكون فتاة.
- هز رأسه بحماسة وسعادة أصابتاني بالعدوى، فوكزت
كتفه بكتفي، أو لنكن أكثر دقة، وكزت عضده بكتفي
لفارق الطول بيننا، وباركت له.

* * *

انتهى العساكر من شد الشريط الأمني الأصفر، فوقفت عند
بوابة الحديقة أتفقدتهم وهم يرصون الأقماع البرتقالية.

أمرتهم بتقديمها مترين إضافيين بما يتماشى مع تعليمات
التباعد الجديدة، بينما ينهي قطز مكالمة سريعة مع
«حياته»، ثم انضم إليّ يسألني:

- برضو ما قلتلش رأيك في كليوباترا. حاسه اسم جديد؟

- جديد إيه يا قطز، ده مات من ألفين سنة، والمفروض
ما يصحاش تاني عشان بتتك ما تتبهدلش طريقة زيك.

- طب شجرة الدر؟

صمت، ظننته يمازحني حتى لاحظت جدية تعبيراته من
أسفل قناعه الشفاف، فقلت:

- ما تسيب آسيا تختار بما إنها تخصص تأليف أسماء
شخصيات.

- اقترحت نفرتاري ونانيس.

لم يعجبني وقع اسم نفرتاري على أذني، أما اسم نانيس
فهو مرتبط معي بجريمة قتل لوثت براءة طفولتي.

كان اسم مهندسة قُتلت بثلاث طعنات نافذة على يد
صناعية يجددون شقتها في مدينة نصر، ثم قتلوا ابنها
وابنتها بغرض سرقتها.

صدر حكم عاجل بإعدام القتلة على الهواء مباشرة، ليشهد

الشعب كله على القصاص العادل منهم، فيكونون عبرة لمن لا يعتبر، ويردع عقابهم كل من تسول له نفسه إزهاق روح. لم يخترعوا التربية الحديثة وقتها، فلم يجد أبي غضاضة في أن أنضم أنا ونادية إليه لنشاهد هذا المنظر الرهيب، وشرح لنا سياقه بشكل مبسط، وأخذ يردد طيلة البث:

- الله عدل. من قتل يُقتل. ولكم في القصاص حياة.

لم أشارك قطز ذكرياتي المشوّهة عن الاسم لأحميه من نذير الشؤم، لم أكن من المؤمنين بالفأل والشؤم إلى هذه الدرجة من قبل، يبدو أن كثرة زياراتي لأمي أثرت في معتقداتي.

قلت محاولاً إنهاء الحوار بلباقة:

- نانيس اسم ثقيل على الودن، نانيس قطز؟!!

- نانيس المحمدي، بدمتك مش شيك؟ تعرف إن معناه الزهرة الرقيقة باللغة المصرية القديمة؟

* * *

انتقل قطز إلى شقة أمل ليتولى قيادة موقع الجريمة هناك، وبقيت في الحديقة أرصد حركة العساكر وتعليماتهم لبعض وإشارات اللاسلكي المترددة من أجهزتنا، حتى رن هاتفي برقم حماتي.

بمجرد أن وضعت الهاتف على أذني سمعت هدير رياح الساحل الشمالي، الشرير وليس الطيب، وصوت ويجز الذي تدمن ليلو موسيقاه، وتردد «بارات» أحدث أغانيه «دورك جاي».

لم تسمعي حماتي وأنا أقول لها «آلو»، فقد كانت منشغلة بتوبيخ ابنتها حتى تخفض صوت الأغنية لتتمكن من إتمام مكالمتنا، حتى صاحت ليلو بضيق:

- خلاص يا مامي، هصور في الشالية!

لم توفق ليلو في مشروع فني واحد منذ أن تخرجت في معهد السينما، العام الماضي، ولم تظهر في مشهد سينمائي ولو حتى بقفاها، وزاد تعليق نشاط الأوبرا الطين بلة، فانقطعت عن التمثيل المسرحي. ابتلعها الضجر والإحباط كما ابتلعانا كلنا، فلم تجد متنفسًا غير مقاطع تيك توك التي تفرغ من خلالها مواهبها التمثيلية، عسى أن يكتشفها مخرج، أو يرى ويجز فيديو تجسد فيه كلمات أغانيه فيقع في غرامها، ويطلب يدها للزواج، كما تصور لها أحلام يقظتها الكثيرة!

بمغادرة ليلو، تمكنت حماتي من سماعي أخيرًا. حيتها ثم تبادلنا حديثًا قصيرًا قارنا فيه الطقس بين القاهرة والساحل، ثم سألتني عن حال أسرتي وحالي وحال

دليلة، لم أشاركها أي خبر قد يقلقها، حتى دخلنا في لب الموضوع، وقالت:

- أنا شُفت الصور اللي بعتها لي، عايز تعرف إيه عنها؟
- هي لوحات مشهورة ولّا حد راسمها مخصوص؟
- مشهورة طبعًا! دي نسخ من لوحات أرتيميسا جنتلسكي، رسامة إيطالية من عصر الباروك، ونسوية من قبل ما يخترعوا كلمة نسوية.

لم تبخل عني بمعلومة تعرفها عن تاريخ الرسامة المعذبة التي واراها الثرى منذ أربعة قرون.

في سن الثامنة عشرة، عيّن لها أبوها مدرسًا للرسم اسمه «أجوستينو تاسي»، وبدلًا من أن يعلمها إتقان الرسم والتلاعب بالظل والنور في لوحاتها، تلاعب بها واستدرجها بالاتفاق مع جارة استأجرت الطابق العلوي من منزل والد أرتيميسا، واغتصبها فيه.

لجأت أرتيميسا إلى القضاء، ورفعت دعوى ضد المغتصب، ولكن بما أن الجارة، التي اكتُشف لاحقًا أنها تعمل قوادة، نفت الواقعة فلم يبق دليل لإثبات تعدي أجوستينو على أرتيميسا سوى شهادتها مقابل شهادته، وليتأكد القاضي من صدق دعواها، قالت حماتي إنه لجأ إلى الطريقة الآتية:

- عذب أرتيميسا بتكسير صوابعها بأداة اسمها لولب
الإبهام عشان يتأكد إنها مش بتتبلى على أجوستينو.

- عذبوا المجني عليها مش الجاني؟

- كالعادة. ولعلمك، قضيتها اتقبلت، لأن أبوها هو اللي
رفعها ولأنها كانت عذراء، لو كانت متجوزة أو أرملة
ما كانش هيبقى فيه قضية.

- إشمعنى؟

- القضاء البطريركي ما يهموش تعرض الست للانتهاك،
كل اللي يهمه العذرية اللي هتمنحها لجوزها. أغلب
القضايا في التوقيت ده كانت بتتحل بإن المغتصب يتجوز
ضحيته، بس أرتيميسا رفضت المساومة، وما رضختش
لتعذيبهم، وحاولت تثبت الجريمة بالاستشهاد بأن
جسم أجوستينو فيه جروح، لأنها حاولت تدافع عن
نفسها بسكينة. ومع ذلك، طلع من القضية زي الشعرة
من العجينة.

- خد براءة؟

- اتحكم عليه بالنفي من روما، بس البابا إينوسنت العاشر
اتدخل، ولغى الحكم، لأنه ببساطة بيعحب لوحات تاسي
ومش هيقدر يستغنى عنه. فن تاسي بالنسبة له كان أهم

من كرامة أرتيميسا. أرتيميسا ما استحملتش تشوف
مغتصبها ماشي في الشارع ويرسم ويبيع لوحاته للبابا،
ولا كأنه دمر حياتها ف...

- فطبعًا قتلته.

ضحكت حماتي ضحكة أرسقراطية بطيئة وطويلة، ثم
قالت:

- مش ضروري كل ظلم ينتهي بجريمة قتل يا حضرة
الظابط. أرتيميسا انتقمت بفنها وبنجاحها وبنصرتها
للسقات في لوحاتها. سابت روما وعاشت في
فلورنسا، وفتحت استوديو، وتخصصت في رسم
لوحات الست فيها بتقوم بدور المنتقم. اللوحات
اللي إنت بعتها لي دي مستوحاة من قصص إنجيلية،
يا عيل وسيسرا، وجوديث تذبح هولوفيرنز، وجوديث
وخادمتها. كلها قصص الست فيها الفاعل مش
المفعول به، وبتنتقم لشعبها وللمستضعفين اللي
زيها من رجالة جبابرة وطغاة. ها، عايز تعرف إيه
كمان؟

- كفيت ووفيت يا حماتي. مش عارف أشكر إزاي.

- إنت عارف أنا بتبسط قد إيه لما ألاقى حد مهتم بتاريخ

الفن. بس قولني، إنت لقيت اللوحات دي فين؟ نادرًا
ما تلاقي حد مهتم بأرتيميسا.

- في بيت جارتنا، أمل فهمي.

- منطقي.

- إشمعني؟

- الله! إنت ما سُفتش فيلم «أرتيميسا»؟ ده أمل كسبت به
جائزة أفضل ممثلة في مهرجان كان. ابقى اتفرج عليه،
أظن هيعجبك بما إنك ظابط مباحث.

- فيلم جريمة؟

- جريمة واحدة! الفيلم عن سفاحة بتحول كل لوحة من
لوحات أرتيميسا جنتلسكي لمسرح جريمة حقيقي.
مش هحرقه عليك أكثر من كده.

صدق حدسي حين أنبأني بتشابه بين لوحة جوديث
وخادمتها، وبين الرأس المقطوع في ثلاجة أمل. أهذا
هو دافع الجريمة وحلها؟ هل أثارت اللوحة رغبة أمل
في إعادة تمثيل مشهد من فيلمها، فأحيت جريمة هذه
اللوحة الدموية في أول رجل قابلته؟

- أرجوكِ تحرقيلي الفيلم يا حماتي.

الفيلم من إنتاج أواخر التسعينيات، لعبت فيه أمل دور رسامة اسمها «أنيسة» تتعرض للاضطهاد والتعنيف من ذكور مجتمعها، فتتحول إلى قاتلة متسلسلة؛ تذبح الرجال الطغاة، وتحوّل مواقع جرائمها إلى لوحة من لوحات أرتيميسا، التي اشتهرت بدورها بقطع رؤوس الرجال في لوحاتها.

تتصاعد الأحداث بمقتل ابنتها على يد شاب لم تقبل الزواج به، فلم يتحمل غروره الهش رفضها فقتلها. تستدرج أنيسة قاتل ابنتها إلى حديقة منزلها، تقطع رأسه، وتضعه في سلة من الخوص بمساعدة مربية ابنتها المخلصة، ثم تتركه في الثلاجة ريثما تزور قبر ابنتها لتنبئها بنجاح قصاصها لها، ثم تعود إلى الشقة، تحمل السلة وتذهب إلى قسم الشرطة فينتهي الفيلم بتسليم نفسها.

يستحيل تصادف هذا القدر من التشابه بين تفاصيل سيناريو الفيلم وتفاصيل الجريمة التي وقعت اليوم!

شكرت حماتي التي حلت لي لغز الجريمة من دون أن تدري، وبينما أنهى مكالمتنا الثرية، وصل إيهاب ومعه فريق الطب الشرعي.

تخطى الطوق الأمني وعبر الحديقة، فلوحنا إلى بعضنا من بعيد، ووقفنا في كنف الشجر الذي تسقط بتلاته الملونة

على أكتافنا ورؤوسنا، بينما نراجع تقرير المستجيب الأول
للجريمة.

انتهيت من مشاركته تفاصيل وضعنا الجنائي من دون أن
أشاركه أي تخمين حتى لا أؤثر في جمعه للأدلة وحكمه
العلمي عليها، ثم أضفت وأنا أعيد دفترتي إلى جيبتي:

- ما رضيتش أكسر الباب غير لما المصور الجنائي يرصد
وضعيته وأخذ منكم موافقة على كسره.

- الموافقة من صلاحيات الظابط الفني لمسرح الجريمة.
أكسره على مسؤوليتك الشخصية لو مستعجل.

لطالما كان إيهاب بطل العالم في البيروقراطية وتأزيم
أبسط الإجراءات كأستاذة حسني، ولكنه بدا لي متجهماً
على غير عاداته، فسألته:

- حسني مكدرك؟

- لا، حسني مش جاي.

- خد أجازة؟

- خد كورونا.

حمدت الله في سري أنني لم أقابله منذ حفل زفافي، ثم
قلت لإيهاب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. هبقى أكلمه أتطمئن عليه. إنت
الظابط الفني مكانه؟

- كان العشم. جابولي مديرة سلف من المعادي لحد
ما حسني يخف. قالك الحكومة عايزة تمكّن المرأة.

٤

لم أرَ الدكتور سيليا طرابلسي منذ زواجها بوليد.
كان من المخطط أن يقيما حفل زفافهما في شهر أبريل،
ولكن قرار إغلاق قاعات الأفراح لأجل غير مسمى أجبرهما
على الاكتفاء بكتب كتابهما بحضور حفنة من المعارف، كان
من بينهم طبعاً أنا وقطر، ثم انتقلا للإقامة في شقة وليد على
أمل أن يقيما حفل زفاف صاخباً حين تنقشع غمة الوباء.
لم يجمعني أي موقع جريمة بسيليا من قبل، ولا أدري
إن كان إيهاب يأنف أن يعمل تحت إشرافها، لأنه يرى
نفسه أحق بمنصب ضابط الموقع الفني، أم لأن لديه
مأخذاً خاصاً على شخصية سيليا، أم لأنه يستنكر عامة
أن تكون مديرة امرأة كأغلب زملائي الذين يدعوهم
وليد بـ«الرجالة الميديوكر».

* * *

وصلت سيليا إلى موقع الجريمة تجر خلفها حقائب معدنية يبدو أنها شديدة الثقل. تركت الحقائب خلف شريط الطوق الأمني، ثم راحت تتلفت حولها كأنها تبحث عن شيء أو شخص.

كمامتها السميكة المنبعجة من الوسط كمنقار الطير، والمختلفة عن كماماتنا جميعاً، أخفت نصف وجهها، والقناع الواقي الشفاف الذي تلبسه فوقها غطى باقي ملامحها، كما أن البدلة الواقية المزدوجة البيضاء التي ترتديها جعلتها تشبه رائد فضاء على وشك السفر إلى القمر! ما كنت لأتعرف عليها لولا قصر قامتها اللافت، وصوتها الحاد الأقرب إلى النعيق الغاضب وهي تنادي:

- دكتور إيهاب!

لوح لها إيهاب الواقف إلى جوارى بفتور، فاقتربت نحونا، وظلت واقفة على مبعدة من المفترض أنها كافية لعدم نقل العدوى إذا كان أحدنا مصاباً بالوباء، ولكنها غير كافية لإخفاء رائحة دخان السجائر التي تنضح من مسامها، كأنها سيجارة وينستون بساقين.

أهكذا كانت رائحتي قبل أن أقلع عن التدخين؟!

- ينفع كده يا دكتور إيهاب؟ رجالتك مش لابسين أدوات
الحماية الشخصية ليه؟!

- مش لابسينها إزاي يعني؟! ما قدامك أهم لابسين
جوانتيات وكمامات...

- كمامات N19 مش N95، وجوانتي سينجل مش دابل،
وبدل بولي إيشيلين مش تايفك.

- إحنا مش بنلتزم بالـ PPE اللي إنتي لابساها دي إلا لو
هنعاين جريمة تلوث بيولوجي، أو فيروسي أو...

- إحنا في فترة وباء يا دكتور!

- ما أنا عارف يا دكتورة. دكتور حسني ما فرضش علينا
الإجراءات دي وأنا...

تنحنحت كأنها على وشك السعال، ثم لم تدع لإيهاب
مجالاً لإنهاء تبريره، قالت بصوت هادئ، ولكن حازم:

- فكرني كده أنا ليه أجازتي اتقطعت ونزلت معاكم بدل
دكتور حسني؟

زفر إيهاب، ورأيت عينيه تدوران في محجريهما كمراهق
متذمر وهو يجيبها:

- عشان دكتور حسني جتله كورونا.

- شكرًا للتوضيح.

مدت ذراعها نحو حقائبها، وقالت بنبرة آمرة:

- وزع الكمادات والبدل اللي معايا على فريقك. هنلتزم بالتباعد الاجتماعي وبتغيير الجوانتيات وبالتعقيم الدوري، عشان ما نحصلش دكتور حسني، شفاه الله وعافاه.

هز إيهاب رأسه بغیظ لا يخفی عمن يعرفه، وتركنا من دون أن يضيف كلمة واحدة.

التفتت سيليا نحوي، يصعب عليّ رؤية تعبيراتها بسبب أشعة الشمس المنعكسة على قناع وجهها الشفاف، فقررت أن أتقفى أثر انفعالاتها من نبرة صوتها.

قالت بنبرة شديدة الرسمية:

- نوح باشا، إنت المستجيب الأول؟

أومأت إليها بنعم، فأضافت:

- أستاذك في التفاصيل!

أريتها الصور التي التقطتها والملاحظات التي كتبتها، فكان تعليقها الوحيد:

- مفيش ملاحظات عن شقة الأرضي من جوه؟

- مستنيين موافقتك على خلع الباب من مكانه.
- استدليت من احتداد نبرتها على مدى استنكارها لمبرري:
- يعني محدش عاين الشقة، ولا اتأكد من وجود جثث تانية، ولا إذا كان المجرم مستخبي فيها؟
- أكيد أنا مش بالسذاجة دي. وقفت عسكري على الباب، والجنينة متروسة عساكر ودكاترة وفنيين زي ما إنتي شايفة، فحتى لو القاتل جوه مستحيل يخرج. نخلع الباب؟
- لم يشبعها ردي، أو هذا ما وصل إليّ من نبرتها وهي تقول:
- وبعد ما نخلعه، لسه هنستنى حد يركبه عشان نحافظ على موقع الجريمة من التلوث؟
- لم تمهلني أن أستوضح منها بديلاً، سارت شامخة الهامة نحو السور حيث تركت المقعد الذي وقفت فوقه لأصوّر وليمة الغربان.
- تابعتها بفضول وهي تتفقد الأرض قبل كل خطوة تخطوها، ثم تقف على المقعد، وتلقي نظرة فاحصة على الجثة ومحيطها، وإذ بها تتشبث بالسور، وتقفز داخل الشرفة باحتراف من اعتادت الهرب من المدرسة قفزاً فوق سورها.

صاحت نحونا:

- هطفش قفل الباب وأدخلكم يا رجاله، عشان هدومكم
ما تتوسخش.

رأى إيهاب ورجاله في تشديد سيليا على كلمة «رجالة»
سخرية متعمدة، وتذمروا فيما بينهم، بينما نرتدي
الكمامات والقفازات والبدلات الوقائية التي وفرتها لنا،
ولكنني لا أبالي بهذا النوع من توافه الأمور. لا أحتاج من
ضابط الموقع الفني سوى إجادته للسيطرة على مسرح
الجريمة، وتحمل مسؤولية سلامة من حوله، وامتلاك ما
يكفي من الشجاعة للتصدي للمستهترين بتعليماته. وبما
أن هذه المواصفات يبدو أنها تنطبق على سيليا، أخبرني
حدسي بأن عملها معنا سيسهل عليّ الكثير.

* * *

لم أجد بلاطة واحدة في المنطقة من الصالة وحتى باب
الشرفة.

أرضية الشقة التي لم ينته تشطبيها بعد، كانت مفروشة بالكامل
بالرمل، وهذه ميزة عظيمة في مسرح الجريمة ستسمح لي
بتقفي أثر القاتل والمقتول، ورسم سيناريو مبدئي للواقعة.
تركت سيليا تفحص الجثة، وتبحث في جيوبها بالملقاط

عن أي أوراق إثبات هوية أو هاتف، كما يبحث الطير
بمنقاره عن الدود تحت الأرض، ولكنها زفرت، وأعلنت
ببأس أنها لم تجد شيئاً.

سرت في خطوط طولية مستقيمة من الحائط إلى الحائط،
ميزت زوجي نعال انطبعت آثارهما على الرمال حديثاً.
لم أتبين مقاسهما بالضبط، ولكنني أخمن أنهما يتراوحان
بين الاثنين والأربعين والأربعة والأربعين، أي أنهما على
الأغلب لرجلين.

صبت جل تركيزي على تقفي أثر الزوج الأول، للنعلين
نمط حذاء رياضي رخيص، دخل مرتديه الشقة كما دخلت
سيليا منذ قليل، قفز فوق سور الشرفة تاركاً انطباعات طينية
وترابية على بلاطها.

دخل الشقة في خطوات يشي عمقها بأنها كانت بطيئة
ومترية، وبأن صاحبها ثقيل الوزن، وتؤكد المسافة بين
الخطوة والأخرى أنه طويل القامة. نحن أمام خطوات
القتيل، فطوله ووزنه يتوافقان مع الدلالات المادية للأثر
ولنعلي الحذاء الرياضي الذي يرتديه النمط نفسه.

القتيل دخل من بوابة الحديقة الخلفية، ومنها إلى الشرفة،
وبالتبعية إلى الشقة، ولهذا لم يظهر دخوله في كاميرا
المراقبة. حُلَّ الجزء الأول من اللغز!

والآن، ما الذي أراده هذا الطويل العريض من هذه الشقة المهجورة؟ هل ظن أن بها ما يستحق السرقة؟

استكملت تقفي أثره، وقف في منتصف الصالة، تريث، أشعل سيجارة أرى رمادها إلى جوار انطباع نعليه، أنهاها واقفاً في المكان نفسه، لعله كان يتفقد محيطه، ثم تقدم خطوة ورمى عقبها الذي يحمل لعبه وحمضه النووي على الأرض.

استأنف طريقه حتى باب الشقة، ووقف في الزاوية وقفة مطولة بدّل فيها حمل وزنه بين قدميه اليمنى واليسرى، حتى دخل الشقة شخص آخر، أخف وزناً وأقل قامة ونمط نعله المطبوعة على الرمال يوحي بأنه يرتدي خفين بإصبع على غرار «الشبشب الزنوبة»، والأهم أنه يملك مفتاح الشقة، لأنه دخل من بابها، وليس من الشرفة، كما القتل، أو ربما طرق الباب، والقتيل هو الذي فتح له من الداخل؟ المهم، نشب صراع بين صاحب الخفين والقتيل. تداخلت خطواتهما حتى ركض صاحب الخفين إلى منتصف الصالة يتبعه القتل، يستوقفه. ثم أجد على الأرض كمامة قماشية زرقاء فاقعة، مثل لون تيشيرت القتل، وأثر شيء دائري ثقيل ألقي بجوارها، ثم رُفع لاحقاً تاركاً انطباعه على الرمل.

القتيل جرَّ صاحب الخفين في محاولة لإعادته إلى الشقة،
أرى انغراس كعبيه في الرمل جراء جره، ولكن استأنف
صاحب الخفين الركض حتى الشرفة. ترك بصمات أصابع
واضحة على بابها الزجاجي الجرار. دخل الشرفة. تبعه
القتيل ثم طاخ! طاخ!

تلقى القتيل ضربات بأداة ثقيلة لم أجدها في موقع
الجريمة بعد، ولكن بقع الدم الدائرية بحدود مشرشرة
تشير بأن مصدرها الرأس، فالدم يسقط على الأرض
بهذا الشكل إذا تقطر من ارتفاع لا يقل عن متر ونصف
المتر، ولا يزيد على مترين، وطول القتيل يقع ضمن
هذا النطاق.

بعد بقع الدماء المشرشرة، أرى بقعاً على شكل كمثرى،
لقد تحرك القتيل خطوتين أو ثلاثاً داخل الشرفة بعد أن
ضرب على وجهه، ثم سقط أرضاً.

القاتل سار مولياً وجهه للقتيل، وظهره للصالة، حتى ارتطم
بالباب الجرار، وترك بصمات مدماة عليه من الخارج. يبدو
أن جريمة القتل كانت عفوية وصادمة للقاتل، كما كانت
للقتيل. أهى جريمة سرقة انتهت بخلاف بين الشريكين
أفضى إلى قتل أحدهما الآخر؟

عاد القاتل إلى الداخل، وسار بضع خطوات إلى اليمين ثم

إلى اليسار. لا شك في أنه كان مرتبكا حتى غادر الشقة،
وهنا تزداد الأمور غرابة.

عاود الدخول إلى الشقة بالخفين أنفسهما حاملا خليطا
من الرمال والدم، ولكنه دخل هذه المرة من الحديقة ثم
الشرفة، كما دخل القتل. سار حتى الباب، ثم غادر مرة
أخرى من الشرفة. صراحة، لا أجد تفسيراً منطقياً الآن
للعودة إلى موقع الجريمة ثم الخروج منه بهذه الطريقة
العجيبة.

توقفت عن تقفي الخطوات كقصاص أثر في الصحراء،
وانضمت إلى سيليا التي ترفع البصمات عن باب الشرفة
على بعد ثلاث خطوات من الجثة.

سمعتها تحدث نفسها بشأن الكفين المبتورتين اللتين لم
نجدتهما في موقع الجريمة:

- مش فاهمة هنبداً إمتى نبصم الناس إيدين ورجلين!
- يمكن نلاقي بصمات القتل ونستدل عليه ونخلص.
- الأهم من إننا نلاقي بصمته هو إننا نلاقي اللي يطابقها
في مركز البيانات عندنا. القتل ده لو عمره ما اشتغل
شغلانة محتاجة فيش وتشبيه مش هنلاقيه أثر.

هزرت رأسي متفقاً مع تعليقها المتشائم، ثم أشرت إلى

البصمات التي تنثر عليها بوردرة الألومنيوم بالفرشاة ناعمة
الشعيرات، وقلت:

- خدتي بالك إنه سايب بصمتين على الإزاز؟

حدقت إليّ مولية ظهرها لضوء الشمس، فاستطعت
أن أراها تضيق عينيها من تحت قناعها، وتقول بنبرة
استنكارية:

- بتسألني لو خدت بالي من البصمتين اللي برفعهم؟
ده Mansplaining ليفل الوحش!

لم أفهم المصطلح الإنجليزي الذي قالته، ولا سبب
استنكارها، فأثرت الصمت.

ضحكت، يبدو أنها كانت تمزح، ولكنني لا أفهم حسها
الفكاهي غريب المزاج الذي لا يختلف كثيرًا عن حس
زوجها، ثم تابعت عملها وهي تقول:

- عمومًا دول مش لنفس الشخص. عينك معايا.

اقتربت وانحنيت نحو الباب منتبهًا لشرحها:

- اللي بدم دي بصمات دوامية مستديرة، والبصمات
التانية شكلها الهندسي مختلف، بصمة حلقية، يعني
دي بصمات لشخصين مختلفين.

سألتها وهي ترفع البصمات بالشريط اللاصق وتحفظها
في بطاقة التخزين:

- ممكن يطلعوا بصمات الجاني والمجني عليه؟

- قول يا رب.

تركتها تستأنف عملها من دون تشتيت، ووقفت عند قدمي
الجثة لأحصل على مشهد علوي كامل وأنا أهمس: «يا رب!».

التشيرت القطني الأزرق الذي يرتديه عليه لوجو من
المفترض أنه أبيض، ولكن دمه جعله قرمزيًا.

«غيبوبة» هي الكلمة المكتوبة على صدر القتيل، وهو اسم
مطعم ظهر من العدم بعشرات الفروع، وتفشى في بلدنا
كالسرطان. اسمه «غيبوبة»، وهذا ما سيصيبك من دون
شك إذا وازبت على تناول حلوياته، فهو وأمثاله يبيعون
لك المرض بزبدة الفول السوداني التي أغرقت الأسواق
أيضًا، بأبخس سعر ليسهلوا على المواطن الإصابة
بأمراض السمنة، والضغط، والسكر، والكوليسترول،
وكل ما يعجل بموته!

دعك من وصفة الانتحار البطيء هذه، ما يهمني أنني أخيرًا
عرفت معلومة عن القتيل يمكنها أن توصلني إلى هويته،
المرحوم يعمل في هذا المطعم.

اقتربت أكثر من منطقة العنق، كمية الدماء المحيطة بالقتيل
ونمطها يؤكدان أن رأسه قُطع وهو حي، ولكنه كان فاقداً
للوعي.

لم يُذبح ذبحاً عادياً، هوى القاتل بالفأس على عنقه
بوحشية، حتى إنه لم يكتفِ بكسر عظمة اللامي وتمزيق
لحمه وأنسجته وفصل الرأس عن الجسد بالكامل، بل
استمر في الضرب، حتى إن طرف الفأس الحاد اخترق
البلاط، وترك فيه شرخاً قطعياً واضحاً.

انتهت سيليا من حفظ البصمات المرفوعة، ثم مالت إلى
جرح الذبح في المنطقة التي كانت يوماً رأساً. أخذت عينة
من دمه بقطارة أخرجتها من حقيبتها، ثم سكبت العينة في
علبة شفافة ذات غطاء أزرق محكم الغلق، لم أرها من
قبل في أي موقع جريمة.

أخرجت قلمًا أسود كتبت به شيئاً على العلبة، ثم قالت
للفني الذي يفحص الحمّام:

- ابعت العينة دي للمعمل عشان يتعملها PCR فوري.
أطاعها وغادر الشقة، بينما تنادي على إيهاب، فأتى بخُطى
بطيئة من الطريقة.

- يلا عشان ننقل الجثة للمشرحة.

هز رأسه بالموافقة من دون كلام، أظنه يمارس عليها
الصمت العقابي.

حمل النصف العلوي للجثة، وهممت أن أساعده بالوقوف
قبالته لحمل القدمين، ولكن سيليا سبقتني وفاجأتني
بقدرتها على حمل جثة رجل بالغ وزنه لا يقل عن تسعين
كيلوجرامًا، وطوله عن مائة وثمانين سنتيمترًا، ووضعتها
بسلاسة في حقيبة الجثث السوداء.

أتمارس رفع الأثقال مع وليد؟!

خلعت قفازيها الطبيين، وعقمت يديها بالكحول، وارتدت
قفازين آخرين وهي تقترب نحوي وتقول:

- هحتاج أخذ بصمات دليلة عشان الاستقصاء. فاهمني،
مش كده؟

أفهمها، هذا إجراء روتيني، سيأخذون بصماتها كما أخذوا
بصماتي حتى يستقصوها من شقة أمل ويبحثوا عن أي
بصمات غريبة عن بصمات الأشخاص المعتاد وجودهم
في المكان قبل أن يتحوّل إلى مسرح جريمة. ومع هذا،
شعرت بالقلق.

منذ متى وأنا سريع القلق هكذا؟ أحقًا سلبني الإقلاع عن
التدخين كاريزمتي كما يقول قطز؟

- فاهمك طبعًا. أنا كمان سجلت أقوالها. حابة تبصي عليها؟
لماذا أتصرف كمن على رأسه بطحة، ما دخلها هي وأقوال
الشهود؟

- لأ، طبعًا. إلا لو فيه تفصيلة هتنفعني.

- مفيش.

- أوكيه. نطلع شقة أمل؟

* * *

المصور الجنائي الجديد اسمه مروان.

لم يُتم ربع قرن من عمره بعد، بدين، وطويل، ورتيب
الهيئة، وقليل الكلام، وصوت أنفاسه أعلى من صوت
فلاشه، ولا يشبه الشاب خالد في شيء. لا أحد يشبه
الشاب خالد!

اشتد عليّ الحنين، فتمتتم بقراءة الفاتحة على روحه،
وروح أبي، وروح جدي، وأرواح أمواتنا أجمعين، بينما
يصور مروان حذائي وطرف بنطالي اللذين تلتطخا بدماء
الضحية إثر سقوط رأسها من الشلاجة.

انتقل ببطء إلى الحمام ليصوّر أمل التي لم توافق على
الجلوس بثبات لنتمكن من تصويرها فتطوع قطز بقوله:

- أنا محمود سعد من مجلة الكواكب يا مدام أمل.
جمهورك عايز يشوفك بلبس الشخصية.

صدقته، فصادقت عدسة مروان، وبدأت تتخذ وضعيات
مختلفة كأننا نصورها لنضعها على غلاف مجلة، وتحدثت
عن الفيلم، وعن صعوبة تقمص الشخصية، وقطر الذي
تقمص دور الصحفي أكثر من اللازم بدأ يدوّن إجاباتها،
حتى فرغ مروان من تصويرها وخرج يلتقط صورًا للشقة،
ويرقم الآثار المادية فيها.

وقفت في الزاوية المقابلة لباب الحمام المفتوح، واتصلت
بدليلة لأتفقد حالها. تأخرت عن الرد حتى كدت أنهي
المكالمة ظنًا مني أنها نامت أو تستحم، ولكنها أجابت
بنبرة ليست أقل إرهاقًا من نبرتها في مكالمتنا السابقة.

- صحتك؟

- لا، كنت بعمل يانسون.

- بالهنا. مفيش أخبار عن عزة؟

- لا.

- فاكرة خبطت عليك الساعة كام بالظبط عشان تقعد
مع الولاد؟

- ما خبطتش عليّ، بعثلي ماسيدج حوالي الساعة...
استنى هفتح الواتساب.

ابتعد صوتها، فتوقعت أنها شغلت مكبر الصوت لتتمكن
من محادثتي بينما تتفحص التطبيق:

- الساعة ستة إلا خمسة.

أرسلت إليها هذه الرسالة بعد خروجها من العمارة بخمس
وخمسين دقيقة، كيف عادت إلى العمارة، وأدخلتها إلى
الشقة من دون أن تظهر في كاميرا المراقبة؟ أهنالك تلاعب
في التسجيل؟

- بعثتك ماسيدج فرُحِتَ لها، ودخلتك الشقة وسابتك
مع الولاد ونزلت تدور على مامتها؟

- بعثلي الماسيدج بعد ما كانت دورت في العمارة وما
لقيتش طنط أمل فاضطرت تنزل الشارع.

- يعني إنتي ما قابلتيش عزة أصلاً؟

- أيوه.

- أومال دخلت الشقة إزاي يا دليلة؟

- رنيت الجرس وعلي فتحلي.

حسنًا، هذا التسلسل يتوافق مع تسجيل الكاميرا.

مددت رأسي نحو الطريقة المؤدية إلى المطبخ حيث تركت
سيليا مع أحد الفنيين لتعائن الرأس ثم تضعه في كيس
الجثث لنقله إلى المشرحة.

- ماشي. أنا قلت أنكشك وأتطمئن عليك.

- أنا بقيت أحسن. قطز جالك؟

- أيوه.

- آسيا والبيبي كويسين؟

- ربنا هيرزقهم ببنت، والأهطل عايز يسميها كليوباترا.

ظننتها ستضحك كما أضحك الآن، ولكنها صمتت برهة،
ثم قالت بنبرة شديدة الفتور:

- غريبة يعني آسيا ما قالتليش!

لم أستسغ الجملة، ولم يكن ذهني صافياً بما يكفي
للإفراط في تحليل توقيت إعلان آسيا لجنس مولودها
أو تبرير لماذا أخبرني قطز قبل أن تخبرها آسيا، لماذا
تقارن علاقتها بآسيا التي لم يمر عليها سوى أقل من سنة
بعلاقتي بأخي قطز من الأساس؟

أظن أن صمتي نقل إليها عدم ارتياحي لصيغة تعجبها،
لأنني وجدتها تقول من تلقاء نفسها:

- عموماً هباركلها، وإنت بارك لقطز بالنيابة عني.

- أصيلة وصاحبة واجب.

* * *

ليتني لم أترك لقطز مفتاح أصفادي!

عدت إلى الحمّام فضبطته جالساً على طرف حوض
الاستحمام يشعل سيجارة من سجائره لأمل، وقد دفعه
قلبه الحنون إلى فك أصفادي عن رسغها.

نفثت العجوز دخانها، واستأنفت الحديث عن أيام نجومية
ولت، ولم يبقَ منها سوى غبار لامع يعكر صفو إدراكها
للواقع بين الفينة والأخرى، وأخي الأبله يقهقه ويقول من
دون أن ينتبه لوقوفه خلفه:

- مش سهلة إنتي برضو يا مدام أمل!

- والله ما في أسهل منك يا خبيتها!

التفت إليّ من دون أن يفرد خطوط الابتسام التي تكشكت
حول عينيه وقال:

- أقسم بالله أنا لو عندي جارة مسلية زيها كده ما هفارقها
لحظة.

ألقيت نظرة خاطفة خارج الحمّام، فوجدت سيليا تنتقل من

المطبخ إلى الصالة، وتبدأ تفتيش خزانة الأحذية المجاورة
لباب الشقة، أتحاول مطابقة نمط خفي القاتل بخفاف
أمل؟

- بص كده يا نوح.

قالها قطز فالتفت إليه. كان يشير إلى قدمي أمل الحافيتين.
تملك أكبر قدم نسائية رأيتهما في حياتي، واللافت أكثر من
حجمها هو نظافتها الشديدة.

كيف لم أنتبه لهذه التفصيـلة المحورية؟ هل انشغلت كثيرًا
بتصوير يديها الملطختين بالدماء وبثوب نومها والفأس،
ونسيت قدميها؟

اقتربت منها من دون تعليق، وملت نحو قدميها كي أنظر
إليهما من كشب، قد تكون غسلتهما، ولكن لا بد أن يترك
الدم أثره تحت أظفار أصابعها، وهذا ما سيقطع الشك
باليقين.

قاطع تركيزي ما قالته أمل وهي تنفث دخان سيجارتها
في وجهي:
- البقاء لله.

رفعت رأسي، ونظرت إليها مستفهمًا:

- في مين؟

- في شعرك من قدام. خمس سنين بالكثير وتحتاج باروكة
زي عادل إمام.

ضحك قطز خائن «العيش والملح»، كأنه سمع أطرف
نكتة في العالم.

طفح كيلى، فلتذهب زيوت الروزماري والخروع
وبخاخات المينوكسيديل وأقراص الفيناسترايد إلى
الجحيم، سأحذو حذو أبي، وأجري عملية زراعة شعر!
حدقت إلى قطز بغضب، فابتلع ضحكته.

حققت الهدف الذي تعرضت لتنمر أمل بسببه، رفعت
قدميها عن الأرض وفحصتهما. ما من قطرة دماء واحدة
عليهما أو تحت أظفارهما!

كيف لشخص أن يفصل رأس إنسان عن جسده ويقطع
كفيه من دون أن تتلطح قدماه ببركة الدماء التي سالت
من الجثة؟

سألني قطز كأنه يقرأ أفكارى:

- غريبة، مش كده؟ أقولك بقى عاللى أغرب منها؟

أشار قطز إليّ بأن نخرج من الحمام.

قادني إلى الطريقة حيث أضيض الزرع الصناعي، الذي
كدت أدفع وجهي ثمنًا لكسره، ووقف إلى جوارى حتى
لا تتقابل أنفاسنا، وهمس:

- الست دي ما خرجتش من أوضة نومها. الراس والفاس
هم اللي جُم لحد عندها.

- إزاي؟

- حوار إني محمود سعد ده دخل عليها، فجر جرتها في
الكلام. قالتلي قد إيه الممثلين بيتعبوا، وإن بقالها ثلاث
ليالي بايئة في الكارافان. أعتقد متيالها إن أوضة نومها
كارافان.

- أيوه، وفاكرة إن باقي الشقة البلاتوه.

- هي بقى قالتلي إنها كانت مريحة في الكارافان، بس
صحيت على المخرج وهو يحط الفاس جنبها على
الأرض. وخذ عندك التفصيلة دي، حط الراس على
صدرها ودحرجها لحد بطنها ورجعها تاني في الطبق
وخرج.

- وهي فاهمة إنها إكسسوار؟

- طبعًا.

- يعني القاتل راجل معاه مفتاح شقتها وشقة أخوها؟
- وحافظ أفلامها ومش بعيد تكون الجريمة دي أصلاً مستوحاة منها. شُفت فيلم أرتيميسا؟
- من الواضح إن البلد كلها شافته إلا أنا!
- اقتربت سيليا نحونا تحمل خفاً صيفياً أسود اللون.
لاحظتُ حين اقتربت منا أنه ماركة كالفين كلاين، فأمسكنا عن الكلام حتى نستمع إلى ما تود قوله.
- الدور الأرضي فيه آثار أقدام لتلات أشخاص.
- وددت أن أسألها كيف ثلاثة وقد ميزت زوجين فقط،
ولكني تمسكت بالصبر، وقررت أن أسمعها حتى النهاية،
كي لا تسخر مني مجدداً، وتنعتني بأي ما كان النعت
الإنجليزي الذي اتهمتي به وهي ترفع البصمات.
- واحد مقاسه حوالي ٤٥، ولا بس كوتشي، ده القليل.
والثاني مقاسه ٤٤، وعنده فلات فوت، والثالث لا بس
فليب فلوب زي ده بالضبط.
- رفعت الخُفين نحوي، وإلا ما فهمت أن «شيشب زنوبة»
أصبح اسمه «فليب فلوب»، ثم استأنفت:
- لقيت منه ثلاثة في الجزامة بألوان مختلفة، ممكن

تكون جابت واحد رابع، وده اللي كان في موقع الجريمة.

- يعني شبشبها كان في موقع الجريمة؟

- شبشبها زي ما بتقول، لكن مش هي شخصيًا. انطباع الفليب فلوب ده على الرمل عميق عند المشط وخفيف جدًا عند الكعب.

- ما كانش على مقاس اللي لابسه؟

- بالظبط! في اتنين لبسوا نفس الفليب فلوب، واحد دخل به من باب الشقة، ده اللي كان صغير عليه، والتاني دخل به من البلكونة، وده اللي عنده فلات فوت.

- متأكدة إنه نفس الششب مش نفس نمط نعله؟

- إنت متصور إني مش عارفة الفرق بين الششب ونمط النعل؟

زفرت بضيق، لماذا تفسر كل سؤال أطرحه عليها كتشكيك في قدراتها؟!

بررت موقفي لها:

- لأ، أنا بسألك عن استنتاجك عادي.

- أنا مش بتاعت استنتاجات، كل جملة بتطلع مني هي

معلومة مثبتة بدليل مادي. لو دكتور حسني اللي معاك
في الموقع كنت هتشكك في معلوماته كده؟
تدخل قطز بنبرة مرحة يستخدمها كلما أراد تلطيف
الأجواء:

- لو حسني اللي معانا كان هيشكك أكثر من كده، إنتي ما
تعرفيش هو عمل إيه في قضية أبو الفدا؟

لا أدري أي خطأ ارتكبت حتى تشعر سيليا بأني أتعمد
التقليل من شأنها، كنت سأحسب العيب فيها وأنها
المفرطة في حساسيتها، ربما مرت بالكثير من التجارب
السيئة مع زملائي الضباط، مما جعلها تتوجس خيفة من
تقديرنا لمهارتها، ولكن تدخل قطز لتبرير تصرفي أكد لي
أني حقاً أسأت إليها.

كنت سأطلب منها أن توضح لي موضع خطئي حتى
لا أقع فيه مجدداً، فنادية وجدتي لم تربياني على ربط
مهارة الإنسان بجنسه، ولكن سيليا سبقتني بقولها بنبرة
محبطة:

- عموماً، الفنيين يعملوا قوالب جبس للآثار عشان
نحرزها، تقدر تنزل تبص عليها، وتتأكد بنفسك من
إن فيه خرم في النعل في منطقة الصباع الكبير ساب

انطباع واضح على آثار أقدام الشخصين اللي بقولك
عليهم.

غادرت الطريقة بضيق، فهمس قطز إليّ:

– خف Mansplaining شوية.

بحق الجحيم ما معنى هذه الكلمة؟!

٥

كنت في حاجة إلى هدنة قصيرة.

تركت قطز وسيليا، ونزلت إلى محل البقالة، فدلية تشتهي
المثلجات كلما توترت، ولا بد أن توترها وصل إلى أعلى
مستوياته الآن.

عدت إلى شقتنا حاملاً كيساً متخماً بالمثلجات ومختلف
أنواع الحلوى للطفلين، فاستقبلتني دلية وهي تسند
عليها عند خصرتها وتحيطها بذراع واحدة كما الأمهات
المحترفات، وفي الخلفية صوت شخصية كرتونية مرحة
قادم من تلفاز الصالة.

لم تكن متوترة بالدرجة التي تخيلتها، ولله الحمد، بل
كانت تضحك لأن الصغيرة تحمل قلم حمرة، وترسم به
على ذقن زوجتي الملطخ بالجلير الوردي البراق.

أغلقت الباب من خلفي وأنا أعطيها الكيس الشفاف،

وبمجرد أن لمحت المثلجات بداخله قبّلت خدي
وقالت:

- بتقرا أفكارى.

خلعت الكمامة الخانقة، وجلست على المقعد البرتقالي
المستدير المجاور للباب لأخلع حذائي، ثم تفقدت الوقت
في ساعتى وأنا أقول بصوت مسموع:

- عزة هتفضل سايبه لك عيالها كده كثير.

عضت دليلة على شفتها، ورمقتني بنظرة ناهية كما كانت
نادية تفعل حين أقول ما لا يصح قوله أمام الضيوف،
فأدركت أنها تحذرني من مثل هذا الكلام أمام عليا.

أنزلت الصغيرة الصهباء على الأرض، ثم همست إليّ:

- حاولت أكلمها. موبايلا مقفول. أكيد فصل شحن.

اتجهت إلى المطبخ فتبعتها أنا وعليا التي تصدر من
حذاءها زمارة تشبه صوت البطة. ترددت بطبقتها في
أرجاء الصالة التي صممناها على طراز «البوهو»،
فأكثرنا من السجاجيد البرتقالية الصغيرة، ودهنا الجدران
بالأخضر الفاتح المريح للعين، ووزعنا أصص زرع
ضخمة في زواياها، وأثناها بأرائك بيضاء، وفرشنا
على مساندها مفارش ذات نقشات شرقية، ألوانها دافئة

يزيدها حيوية ضوء الشمس الدافئ الذي يدخل الشقة
من كل حذب و صوب.

سألت دليلة وأنا أقف في المطبخ الذي يضيئه نور الصباح
القادم من النافذة المستطيلة ذات زجاج أزرق سماوي:

- هما لسه بيعملوا جزم بتزمر؟

- دي جزمتي. بابي الله يرحمه جبهالي من ألمانيا وأنا
في سن عليا.

وقفت عليا إلى جوارى، وجذبت إبهامي ثم قهقهت،
فابتسمت لها، وداعبت غرة شعرها الذي يتدرج باستدارة
وجهها البيضاوي، كم تشبه ريمي، بطلة الأنمي الذي كان
يُعرض على سبيستون!

أحكمت قبضتها الصغيرة على إبهامي، ورسمت عليه خطأً
متعرجاً بقلم الحمرة، بينما تعقم دليلة أكياس الحلوى
بالكحول.

رصصت معها المثلجات في مجمد الثلاجة، ثم اصطفت
لنفسي لوح شوكولاتة بالبندق، أعطيت مكعبين منه إلى
عليا فأخذتهما بلهفة، بينما أقضم نصفه دفعة واحدة. أنا
في حاجة ماسة إلى جرعة من هرمونات السعادة التي
يزعمون أن تناول الشوكولاتة يمنحها للإنسان.

ابتلعت ما مضغت، ثم سألت زوجتي المشغولة بغسل يديها:

- أبوهم فين؟

أشرت برأسي صوب عليا حتى لا تدرك الصغيرة أننا نتحدث عنها، فأجابتنى دليلة بنبرة متضايقة:

- ما أنا قتللك إنها أرملة ویتیمه الأب.

- إمتی؟

- وإنت بتلعب شطرنج أونلاين مع أونكل أنور، وفضلت تهز دماغك. اللي هو نفضتلي يعني.

تصرف لا أستبعده عني، كيف تتوقع مني أي انتباه وأنا ألعب ضد غول شطرنج مثل عمو أنور!

- طب قوليلي تاني.

- بابا أنقذ النونة من النار وطار عند ربنا.

وصلت إليّ هذه الإجابة الفخورة من عليا وهي تلعق أصابعها من بقايا الشوكولاتة. كيف استدركت هذه الأريية أن الحديث يدور عن والدها على الرغم من محاولاتي للتمويه!

يبدو أن عليا تشبه ريمي في الشكل، وكذلك في الیتم.

حملتها دليلة، وراحت تقبل جبينها، وتعض خدها بعنف لطيف. أحب مشاهدتها وهي تلاطف الأطفال.

غسلت لها يديها في الحوض من بقايا الشوكولاتة، ثم
جففتها بحنان، وأنزلتها على الأرض قائلة:

- روعي كملي الكرتون وأنا جاية لك.

بمجرد أن غادرتنا الصغيرة وبطبطة حذائها، سألت
دليلة:

- هو مات إزاي؟

- كان مسافر لشغل في الصعيد، ومات وهو بيحاول ينقذ
طفلة من شباك القطر. مش فاكرا الحريق اللي حصل في
محطة رمسيس السنة اللي فاتت؟

- فاكرا.

مات أبوها شهيداً، كما مات أبي، وبمجرد أن أدركت
هذا التشابه بيني وبينها، أثقلني شعور غير مفهوم بالذنب.
انتشلتني دليلة من الكآبة التي كنت على شفا خطوة من
الوقوع فيها بأن لامست خدي، وابتسمت لي ابتسامة
تنضح بالحب، ثم عانقتني، وهمست إليّ:

- الحمد لله إن النهارده عدى على خير.

أغلقت ذراعَي عليها، فشعرت بأنني أخف.

* * *

وقفت أنشف جسدي متجنبًا النظر لانعكاسي في مرآة
الحمام.

لم أتصالح بعد مع أثر الرصاصة التي أصابتني، ولا
الخيطة الجراحية في موضع طحالي المستأصل، ولا
التي في رأسي إثر إيقاف نزيف مخي.

أبغض ندوبي المرئية وغير المرئية، لم أصل بعد إلى
مرحلة التصالح التي وصلت إليها دليلة المؤمنة بأن ندوب
إصاباتي وندب استئصال رحمها هي تذكار نجاة أبداننا
من أقسى محنها.

حببتي الشاعرية!

صفت شعري الذي لم أعد أحتمل وضعه. اقترحت دليلة
عليّ أن أحلقه كله كما كانت الحال بعد العملية التي أجريتها
في المخ، قالت لي إنني أشبه جيسون ستاثام، ولكن نادية
الحقيرة شبهتني بشخصية سرحان من كرتون «سرحان
ونفيسة»، فتراجعت عن فكرة تعجيل صلعي الوراثي.

ذكرت ذات زيارة لأمي أنني أفكر جديدًا في أن أحذو حذو
أبي، وأجري عملية زراعة شعر، فرفضت رفضًا دراميًا
عنيفًا، لأن أبي اغتيل في فراشه بعد أن أجراها بثلاثة أشهر.
حذرتني من نذير الشؤم هذا، ثم بكت.

ربطت خصري بالمنشفة، ثم خرجت من حمام غرفة
نومنا، فوجدت دليلاً تفرد لي بنطالاً وقميصاً قطنياً
لأرتديهما.

انتبهت لخروجي فسألتني:

- عملتلك قهوتك. أعمل لقطر حاجة يشربها، ولا يتغدى
معانا على طول؟

- لما نخلص من الهوليلة اللي بره دي الأول نبقي نشوف
موضوع الغدا.

اتجهت إلى طاولة تزينها، أخذت علبة كريم مرطب بينما
أرتدي بنطالي وأنا أسألها:

- تعرفي اسم عزة الرباعي؟

- لا.

قالتها بلامبالاة وهي تجذب يدي قبل أن أتم غلق
سحابي لتدهنهما بالكريم، لأن فرط تعقيمهما بالكحول
الإيثيلي شققهما وأكثر من الخدوش حول جليدات
أظفارهما.

- ما تعرفيش اسمها إزاي يا دليلاً وإنتمو...

لطخت وجهي الجاف بالكريم، بادئة بالمنطقة حول

شفتي، فأجبرتني على السكوت، حتى لا يدخل في فمي.
أغلقت عيني، واستسلمت لنعومة يديها ولطراوة الدهان
بينما تبرر لي موقفها بهدوء:

- عزة لا زميلتي في الدراسة ولا في الشغل عشان أعرف
اسمها بالكامل. وبعدين ما إنت نفسك بتصبح كل يوم
على جار ما تعرفش اسمه.

بمجرد أن انتقلت إلى خدي أجبتها بنبرة أهدأ:

- أديكي قلتها، بصبح عليه. مش داخل خارج بيته.

انتهت جلسة الترطيب اليومية اللطيفة، ودعكت رواسب
الكريم على كفيها وهي تسألني بفضول بريء:

- إنت عايز اسم عزة ليه؟

- عشان أسجله في محضر الاستدلالات اللي بالمناسبة
هيحتاجوا فيه بصمتك يا ست الشاهدة.

نجحت نبرتي الساخرة في أن تضحكها، وشجعني هذا
على أن أغير دفة الحديث، ما دامت أسئلتني عن عزة تخلق
بيننا توترًا غير مبرر.

- الولاد نفسيتهم عاملة إيه؟

- عليا مش مدركة التفاصيل أوي، بمجرد ما لعبنا وشغلنا

كرتون راق، بس علي لا راضي ياكل ولا يلعب، ولا حتى يعيط. ما تجرب تكلمه يا نوح.

- أجرب طبعًا. هو فين؟

- في أوضة الضيوف.

* * *

سأخبركم بحكاية غرفة الضيوف التعيسة!

شقتي كأغلب شقق الحي: فسيحة وعالية السقف، وبها حمامان، وثلاث غرف. يؤثث المتزوجون حديثًا، عادة، غرفة بمقاعد وأرائك مريحة لتكون غرفة معيشة، ويخصصون الغرفة الرئيسية لنوم رب وربة البيت، والغرفة الثالثة للأطفال. وبما أنني ودليلة لن نرزق أبدًا بأطفال، بقيت الغرفة الثالثة، التي كانت غرفة نومي في طفولتي، خاوية، مدهونة بلون أبيض مائل للرمادي لا هدف له ولا معنى، وخشب أرضيتها القديم على حالته منذ عشرين عامًا.

استغللتها لرفع الأثقال بينما لم تطأها دليلة سوى للإشراف على تنظيف بنت فكيهة لها. كانت لديها طرق أخرى لقتل الوقت لم تشمل أي منها استخدام الغرفة الفارغة.

احترفت الطبخ، وجربت وصفة بسكويت الدقائق العشر،

وكيك المـج، وفطيرة الطاسة، وتعلمت طرقاً مختلفة
لإعداد مشروب أخضر اسمه «ماتشا»، تجربته في بالي،
ووقعت في غرام مذاقه البشع الشبيه بالحناء المخلوطة
بالتبغ، فاشتريت منه كميات كبيرة، واتخذت من شربه
عادة صباحية.

صبغت شعرها هي وعزة بالقرمز الأزرق ثم الأحمر ثم
البنفسجي، وفي النهاية سئمت من الصبغات كلها، وأعادته
إلى لونه الأسود. انشغلت بفن الريزن أسبوعاً، ثم هجرته.
انتقلت إلى الاهتمام بخلطات التجميل الطبيعية فتابعت
قناة صباح، شقيقة صلاح، على يوتيوب، واشترت منها
مستحضراتها المنزلية، وقد منّ علينا صلاح بخصم مبهـر،
اثنين ونصف في المائة.

تقلبت اهتمامات دليـلة تقلب الشمس والقمر، حتى
استقرت على مشروع شغلها لمدة شهر؛ ملء فراغ غرفتنا
الثالثة، وتحويلها إلى غرفة ضيوف بمجهودها الشخصي
من دون مساعدة من صناعي واحد.

انتهت من تأثيث الغرفة الثالثة قبل العيد بـليـتين فقط،
فكان علي وعليـا أول ضيفين يحلان عليها، وهأنذا أدخلها
لأطمئن على الصغير الكتوم النائم فيها.

فتحت الباب فاستقبلتني رائحة كبريتية نفاذة عبأت الغرفة،

وعلى الرغم من أنني لم أنطق بكلمة فإن علي ارتبك واحتد
احتدادًا لا يليق بسنه:

- عيب تفتح باب من غير ما تخطط!

أضحكني تعليقه الصارم، ولكن إن كان هذا ما علمته أمه،
فلا داعي إلى إفساده.

طرقتُ الباب، وقلت مستأذنًا بتكلف مصطنع:

- ممكن أدخل الأوضة يا علي باشا؟

أتت موافقته باهتة. أعرف حالة الخزي هذه، كانت
تتملكني حين كنت في سنه، بعد كل مرة تأخذني أمي
إلى دجال يدعي القدرة على تخليصي من العفاريت التي
تلبّستني حين وقعت في مقبرة داخل جبل الموتى، فصرت
أبصر أرواح الموتى.

تفاوتت طقوس الدجالين الكافرة والمرعبة، وكان
أبغضهم عندي الذي يرى العلاج في ضرب العفريت
الذي يتلبّسني، أي ضربي أنا شخصيًا.

سامحك الله يا أمي! كانت تجبرني في طريق العودة من
هذه الجلسات اللعينة على القسم بأنني لن أنبس ببنت
شفة أمام أبي، فأعود إلى غرفتي، وأستلقي على فراشي،
يدثرني الخزي، والرعب، والعار، حتى أنام هربًا من واقع

لا ترجعني إليه إلا رائحة النشادر الفائحة من البول الساخن
المتسرب من بدن كل طفل أُجبر على الكتمان مثلي سابقاً،
ومثل علي حالياً.

اقتربت من السرير حيث يتكوّر الصغير كالجنين في رحم
أمه، مولياً ظهره لي وللدنيا كلها. فحصدت حجم البقعة
بعيني في صمت، ثم جلست على طرفه قائلاً:

- الجو حر أوي، مش عايز دليّة تحميك بميه ساقعة؟
التفت بحذر متشبّثاً بالغطاء، كأنه يغطي عجزه عن حبس
بوله، كما حبس خوفه، وقال بصوت خفيض:
- أنا بعرف أستحمى لوحدي.

- شاطر. وأنا في سنك كنت بخاف أدخل الحمام لوحدي.
- أنا مش بخاف من حاجة عشان أنا راجل البيت.

- ماما اللي قالتلك كده؟

أوماً إليّ بالإيجاب. لماذا يثقل الأهالي أطفالهم
بمسؤوليات وشعارات تفوق أعمارهم؟

- المفروض إن راجل البيت يكون شجاع ويحب اللي
بيحبهم، بس أحياناً ممكن يخاف، عادي. أنا النهارده
كنت خايف جداً أحسن مراتي تتعور.

- فيه راجل كبير يخاف؟

- كل الناس بتخاف يا علي، المهم إن الخوف ما يمنعناش
نساعد اللي بنحبهم. أقولك على سر؟

اقترب بفضول من دون رفع الغطاء حتى يسمعني وأنا
أهمس إليه بسري:

- وأنا صغير كنت لما بخاف خالص بعملها على روحي.
نظر إليّ عابسًا، وقال بصوت محمّل بذنب أثقل منه:

- أنا آسف. وسخت السرير.

- فداك! يلا بقى على الحمّام عشان أنا جايبلك حلويات
كثير جدًا.

مددت يدي لأنزع عنه الغطاء برفق، ولكنه تشبث به أكثر،
فتفهمت رغبته، واكتفيت بالتربيت على كفه القابضة بعنف
على طرف الغطاء قائلاً بلين:

- هسيبك تغير هدومك لو حدك في الحمّام على ما أجيبلك
هدومك، بس لو احتجت حاجة نادي علينا، ماشي؟

هز رأسه، وابتسم ابتسامة راضية، فقرصت خده، ثم
خرجت من الغرفة.

* * *

ما إن ابتعدت خطوة عن باب غرفة الضيوف حتى رأيت
دليلة تقترب مني وتقف إلى جوارِي وهي تهمس:

- عزة بعثلي ماسيدج دلوقتي.

أرtnي شاشة هاتفها، وتركتني أقرأ الرسالة بنفسِي:

ممکن تباتي مع ماما أمل والولاد في الشقة؟
وأنا بجيب الدوا دخل الصيدلية واحد مش
لابس كمامة وبيقول للدكتور إن عنده كورونا
وعايز أدويتها. أنا والصيدلي روحنا المستشفى
نحلل وممكن يحطونا في الحجر الصحي.

قالت دليلة بنبرة شديدة التعاطف والتضامن:

- يا ساتر يا رب! مين الحيوان اللي يبقى عارف إن عنده
كورونا ويمشي في الشارع من غير كمامة كده؟!!

دعت لها بالنجاة من الوباء، ثم شاركتني قائمة بالأغراض
التي يجب أن أجلبها إليهما من شقة جدتهما، لأننا قد
نضطر إلى استضافتهما أسبوعين إذا تأكدت إصابة عزة
بالكورونا، ثم ذهبت لتفقد عليا، وتركتني وحدسي الذي
نادرًا ما يخيب، يخصب عقلي بجنين شك إن كان في
محله فلن يكفيني رأس عزة: أهِي من ارتدى خفّي أمل
وذبح هذا المجهول في الطابق الأرضي ونقل رأسه إلى

الطابق الرابع؟ هل استدعاء دليلة إلى شقتها بحجة هرب أمها لم يكن إلا محاولة من عزة لتوريط زوجتي، التي تحسن الظن بالجميع، في جريمتها؟

* * *

وليت قطز مهمة استجواب الجيران، ثم أخذت جولة بسيارتي في الحي، متوقفاً عند كل صيدلية أستجوب الصيدلي وحارس العقار، والنتيجة؟

ما من صيدلية في جاردن سيتي ورد عليها مريض بالكورونا لا يرتدي كمامة. ألم أخبركم بأن حدسي لا يخيب!

هذه الكذبة الغبية أوقعت عزة في دائرة الاشتباه، ويتحتم عليّ الآن أن أعرف اسمها كاملاً، حتى أعمم أوصافها وأستدعيها رسمياً للاستجواب.

عدت إلى الجراج فوجدت قطز والمهندس التقني مصطفى الذي ترك حاسوبه المحمول مفتوحاً على مؤخرة سيارته، كلاهما خالع كمامته ومدخن سيجارته، وهما يتبادلان أطراف الحديث بصوت عالٍ على مسافة مترين.

صففت السيارة، وانضمت إليهما قائلاً:

- متجمعين عند النبي. لقيت حاجة في فيديوهات كاميرات المراقبة يا درش؟

- لقيت القتل.

أدار حاسوبه نحوي، فوقفت على مسافة أشاهد الفيديو الذي شغله.

الفيديو من كاميرا الجراج يرجع زمنًا إلى الساعة الثالثة والنصف فجرًا، يظهر دخول الدراجة النارية الزرقاء إلى الجراج، ولكن راكبها لا تتطابق أوصافه مع الذي رأيته يخرج بها قبل وصولي إلى العمارة. هذه المرة الراكب طويل القامة، عريض المنكبين، على رأسه خوذة حمراء، وعلى ظهره حقيبة، يرتدي تشيرتًا أزرق فاقعًا كالذي ترتديه الجثة المذبوحة. مصطفى محق، هذا القتل!

صفّ الدراجة النارية خلف سيارة جارنا الميتسوبوشي، ثم نزل منها من دون أن يخلع خوذته أو حقيبته، وخرج من الجراج.

لم نرَ حقيبة ظهر القتل ولا خوذته في موقع الجريمة، وأتعرّفون ما الذي لم نجده أيضًا؟ الأداة الثقيلة التي تسببت في تكسير عظام وجهه، هل هاجمه القاتل بالخوذة ثم وضعها في حقيبة الظهر ولاذ بالفرار؟

شاركتهما خواطري:

- القتل دخل بالموتوسيكل، والقاتل خرج به.

- علق قطز وخيط الدخان يتسرب من ثقبَي أنفه:
- غالبًا. وشوف الرخامة، نمر الموتوسيكل متغطية
بقماش. يعني قاصد إن الكاميرات ما ترصدهوش.
- بس ده ما يمنعش إننا نعمم الصورة و...
- عممتها على الخيبة الكبرى والخيبة الصغرى، قال
يعني هينفعونا!
- فهمت أنه يقصد صلاح وفادي فتشاءمت، بينما ينفث
مصطفى دخانه منهيًا سيجارته، ثم قال وهو يعيد ارتداء
كمامته:
- راجعت كمان فيديو خروج عزة، لاحظت أنها خرجت
حافية من العمارة. مش عارف ده هيفيدكم في حاجة
ولاً لاً.
- أهذا تفسير أن شخصين ارتديا نفس خف أمل في موقع
الجريمة؟!!
- سينفجر رأسي من التفكير في مليون تفصييلة في الآن
نفسه. زفرت بثقل منفسًا عن كربى العظيم، ثم قلت لهما:
- أنا في عرض سيجارة.
- قال قطز ساخرًا وهو يدعس سيجارته بنعله:

- لأده إنت حالتك صعبة خالص. اطلع نام وأنا مكمل
لحد ما الطب الشرعي يقفل شغله، وكل حي يروح
لحاله.

هزرت رأسي متفقاً مع اقتراحه، وهوّنت على نفسي بأنني
سأعود إلى شقتي التي أحبها وأحب رائحة دليّة المنتشرة
فيها، وسأكل وجبة دافئة، وأحلي بالمثلجات، ثم أنام
نومًا سيكون على الأغلب ملغمًا بكوابيس ستطهرني من
المشاهد الدموية التي رأيته طيلة اليوم، حتى قاطع دخول
سيليا الجراج أحلام يقظتي.

اتجهت نحو سيارتها الفورد البيضاء العتيقة وهي تجر
حقائبها فتقدمت وقطر ومصطفى لنحملها عنها ونضعها
معها في السيارة.

قبلت مساعدتنا بابتسامة مقتضبة، أو هكذا هيئ لي من
تحت كماتها وقناعها، ثم قالت:

- كويس إنني لقيتكم سوا عشان أقولكم الخبر مرة واحدة.
المجني عليه عنده كورونا.

أعاد قطر ارتداء كماته بسرعة كأن هذا سيشكل أي
فارق، بينما انهالت السبات الاعتراضية من مصطفى لهول
الموقف، حتى إن سيليا وبخته بنبرة تليق بمديرة مدرسة:

- أفاظك يا باشمهندس!

صمت مصطفى، وتجمد قطز في مكانه، بينما تتأرجح مقلتاه في محجريهما، أما أنا فكان من المفترض أن أقلق على نفسي ومصيري، ولكن عقلي قاوم الذعر بالإنكار وبإشغال نفسه بالتفكير في التحقيق.

اقتربت من سيليا لأطرح عليها ما يشغل بالي، وليذهب التباعد الاجتماعي إلى الجحيم:

- الفحوصات تقدر تثبت مصدر العدوى؟

- يعني إيه؟

- يعني لو طلع عندي كورونا، فيه حاجة تقدر تثبت إنني اتعديت من القتل مش من شخص تاني؟

- لا مفيش. إيه سبب سؤالك؟

- عزة سابت ولادها عندنا عشان طلع عندها كورونا، ومعايا ماسيدج تثبت ده. وده تفسير منطقي لهروبها المفاجئ، عرفت إن القتل عيان فخافت تعدي اللي في الشقة.

- خافت تعديهم فراحت حاطة راس مريض الكورونا في التلاجة؟

- عندك حق. بس أكيد مش صدفة إنها تقولنا إنها رايحة
الحجر الصحي في نفس اللحظة اللي لقينا فيها قتيل
عنده كورونا جثته في شقة خالها، ورأسه في تلاجة أمها.
- أمها؟!!

- أيوه. إنتي ما تعرفيش إن عزة تبقى بنت أمل؟
- وإنت ما تعرفش إن أمل ما خلفتش غير بنت واحدة
اسمها ميريت ماتت من سبع سنين؟!
ضمّت ذراعيها القصيرتين إلى صدرها، وقالت بنبرة
استنكارية حادة كأنني أهنتها أشنع إهانة:
- إنت مش بتتفرج على بودكاست وليد؟!!

استقال وليد عطية من المباحث الجنائية منذ شهر ليحقق
حلمه بأن يصير سيناريسـت فـذاً. ما إن انتهى صديقنا قليل
البخت من كتابة أول سيناريوهاتـه حتى أغلقت السينمات،
وتعطلت صناعة الأفلام لأجل غير مسمى بسبب الوباء،
فقام بأكثر شيء مبتذل يمكن أن يقوم به إنسان في زمن
الكورونا؛ أنشأ بودكاست.

أدخلت سيليا عودًا لينًا طويلًا قطني الطرف في ثقب أنفي،
وتوغلت نحو بلعومي، فشعرت بوخز حارق في حلقي،
وتراكت دموعي حتى سألت على خدي كطفل أُمته
شكة إبرة التطعيم.

أخذت المسحة مني سريعًا، ولكنها استغرقت وقتًا أطول
مع قطز لأنه يعطس كلما لامست طرف ثقب أنفه الطويل،
وحين نجحت أخيرًا في الولوج، استغللت الفرصة لأرد
تنمره على شعري الخفيف في حمّام أمل، فاقترحت
على سيليا أن تتلو دعاء السفر قبل أن يبدأ العود رحلته
نحو بلعوم أخي.

سبني ثم ضحك، فتخففنا جميعًا من التوتر الجاثم علينا،
حتى إن سيليا أزاحت قناع الجد والعبوس عن وجهها،
وشاركتنا الضحك.

شرحت لنا وهي تحفظ المسحتين في حاويتين منفصلتين، وتسجل عليهما بياناتنا، أن النتيجة ستكون على الأغلب سلبية، لأن عدوى الكورونا تنتقل من الميت إلى الحي في حالتين فقط: إذا لمس أعضاء الجثة الداخلية التي يتوطن فيها الفيروس من دون أن يرتدي الملابس الوقائية ويتبع تعليمات السلامة، أو إذا لامس سطحًا ترك المصاب عليه لعبه أو رذاذه الموبوء قبل أن يموت، وكلتا الحالتين لا تنطبق علينا.

أخرج قطز من جيبه منديلًا يمسح به أنفه الذي لم يتوقف عن السيالان وهو يسألها:

- هنعرف النتيجة إمتى؟

- قول ساعتين ونص. بس لازم تعزلوا نفسكم يومين بعدها، حتى لو كانت النتيجة سلبية.

سألها وأنا أستعير منديلًا من قطز لأمسح به عيني الدامعتين:

- ليه؟

- فترة الحمل الفيروسي ممكن تمتد لثمانية وأربعين ساعة، النتيجة ممكن تطلع سلبية دلوقتي وإنّ حامل الفيروس عادي. الأضمن نعمل اختبار ثاني كمان يومين.

زفر قطز بغضب شديد وهو يعيد ارتداء كمامته وقناعه
الشفاف، وأظن أن سيليا لاحظت هذا، لأنها قالت بنبرة
تضامن ودود:

- الموضوع دمه ثقيل بس معلش، ده لأمانكم ولأمان
اللي حوالكم.

* * *

انضم قطز إليّ في سيارتي، وأرجع المقعد المجاور لي
إلى أقصى الراء ليفرد ساقيه المدينتين.

شغلت مكيف الهواء، وخلعنا كمامتين، واستسلمنا
لهزيمتنا على يد الكورونا قبل حتى إعلان النتيجة.

اتصل قطز بـ «حياته» ليخبرها بضرورة أن تنتقل هي
وطاهر للإقامة في فيلاً أمها، فلا مجال للمخاطرة بنقل
هذا الفيروس الرثوي اللعين إلى سيدة حامل.

لم أذع النبأ على أسرتي بعد، وددت أن أنتظر نتيجة التحليل
الأولي قبل أن أقلقهم، فشغلت نفسي باستكمال التحقيق.
اتصلت براضى، وطلبت منه رقم المهندس محمد، شقيق
أمل، فأملاني إياه وهو يتوسل إليّ:

- سايق عليك النبي ما تقوله إنك لقيت بوابة الجنينة
مفتوحة.

- إشمعني؟

- الباشمهندس سايلي مفتاحها، حاكم بنصفها كل شهر.
نصفتها ليلة العيد، وجيت أقفل الباب لقيت المفتاح
والقفل والجنزير فص ملح وداب. قلبت عليهم الدنيا
مش لاقهم. قلت هشتري غيرهم بس اتلخمت في
تنضيف السجاجيد والعرييات، وسافرت البلد. لو
الباشمهندس عرف إني سبت بوابة الجنية مفتوحة
هيقطع رقبتني.

- إنت بقالك قد إيه في العمارة يا راضي؟

- ييجي سنتين.

- تعرف مدام عزة تقرب إيه لمدام أمل؟

- بنتها يا باشا.

إذن، عزة حبكت انتحالها لشخصية ابنة أمل على الجميع،
ولا شك في أنها التي سرقت من راضي المفتاح.

- ماشي، شكرًا!

- حصلت حاجة لمدام عزة يا باشا؟

- قلت شكرًا يا راضي!

أنهيت المكالمة، وسجلت رقم المهندس محمد. وددت

الاتصال به، ولكنني أدركت أن فارق التوقيت بين القاهرة وفانكوفر الكندية نحو عشر ساعات، فأرسلت إليه رسالة عبر واتساب.

صباح الخير. أنا الرائد نوح الألفي من مباحث قسم قصر النيل وجاركم في شقة ٤١. كنت محتاج أتواصل معاك ضروري بخصوص مدام أمل.

أرسلت الرسالة، ثم عاودت فتح تطبيق تسجيل الكاميرات، اخترت كاميرا بوابة العمارة، وأوقفت شريط الوقت عند لقطة خروج عزة من العمارة، اخترت كادرًا يظهر فيه وجهها بوضوح، ثم أخذت لقطة شاشة عالية الجودة، وأرسلتها إلى صلاح ملحقه بها رسالة صوتية:

- دي المشتبه فيها، وجاري الاستعراف على اسمها. هلاغيك لو فيه جديد.

رد على رسالتي بستيكر لأمير كرامة في شخصية سليم الأنصاري، والذي يخيل جنون العظمة لصلاح أنه يشبهه، ومكتوب تحت الصورة: باشا مصر المسيطر.

قبل أن أترك الهاتف، رن برقم المهندس محمد فوكزت قطز الجالس في صمت، يحدق نحو النافذة بأسلوب

درامي كأنه بطل فيديو كليب لتامر عاشور، وأعلمته بأن شقيق أمل يتصل.

دعست على زر مكبر الصوت كي يسمع معي المكالمات، وقبل أن أنطق بحرف، قال المهندس بصوت مهزوز وقلق: - أختي كويسة؟

- بخير ما تقلقش. أنا بس لقيتها في موقف غريب جداً. حكيت له ما وقع من دون الدخول في تفاصيل جنائية، فكان أول ما سألني عنه بعدما فرغت من الشرح:

- يعني عزة سابت أمل لوحدها؟

- أيوه. هي تقربلكم إيه يا باشمهندس؟

- والدها الله يرحمه كان شغال معايا في محل الفضة قبل ما أصفني أعمالي في مصر وأهاجر. ولما أمل بدأت تتعب، عزة عاشت معاها عشان تاخذ بالها منها.

- يعني عزة ممرضتها وبس؟

- مش ممرضة، مقدمة رعاية زي ما بيقولوا هنا في كندا.

- والكلام ده بقاله قد إيه؟

- حوالي سبع سنين، تبات عندها طول الأسبوع وتروح شقتها في الويك إند، لأن جوزها الله يرحمه هو كمان

كان شغال مدير مخزن مصانع في الصعيد ومسافر أغلب الوقت. بس معلىش، أنا لسه مش فاهم، مين اللي عمل الجريمة البشعة دي في شقتي؟

توقعت أنه سيشك في عزة، ولكن يبدو أنه لم يربط هروبها بوقوع الجريمة بعد، أو ربما لم يفهم أن رحيلها هروب من الأصل.

- التحقيق لسه شغال، فيه حد معاه مفتاح شقتك غيرك؟
- عزة.

- وعزة معاها نسخة من مفتاح الجنية زي راضي؟
- طبعًا، ومعاها نسخة من مفتاح عربيّتي، ومن المحل. عزة دي غلبانة وبنت حلال وأنا اللي مربيهها وأستأمنها على أي حاجة وأنا مغمض.

- تمام يا باشمهندس. عمومًا إحنا مستمرين في التحقيق، ولو فيه مستجدات هتواصل مع حضرتك. بس ضروري تبعتلنا حد ياخد باله من مدام أمل، لأن زي ما وضحت لحضرتك احتمال عزة يكون عندها كورونا ومش هتكون موجودة لأسبوعين على الأقل.

- مفهوم طبعًا، هكلم أخو مراتي دلوقتي، ساعة بالكثير وهيكون عندكم وهيقوم باللازم.

- كويس. معاك أوراق إثبات شخصية وفيش وتشبيه لعزة
بحكم شغلها معاكم، صح؟

- فيش وتشبيه إيه! بقول لحضرتك دي في مقام بتتي.
هذا الرجل مثله مثل زوجتي، كلاهما لا يملك ذرة
احتراس!

زفرت محبطاً، ثم سألته وأنا أدعك عيني المجهدتين:
- طب تعرف اسمها بالكامل؟

ضحك كأنني قلت طرفة، ثم قال:
- عزة عادل عبد الله الدسوقي.

كتبت الاسم في دفترتي، وبمجرد أن أنهيت المكالمة،
أرسلته إلى صلاح فأرسل إليّ الستيكرو المبتذل نفسه.
وضعت الهاتف على التابلوه، والتفت إلى قطز المهموم
فتنهد، ثم قال بأداء شديد الدرامية:

- ورحمة أبوك يا نوح. لو حصلتلي حاجة، آسيا وطاهر
وحتشبسوت في رقبتك.

- أنا اللي هيحصللي حاجة لو سميت بنتك حتشبسوت.
- هتهرج في الموت يا نوح!؟

- موت إيه يا أوفر! يعني بعد الأكشن اللي أنا شُفته ده كله
هموت بسبب عطسة؟!

- عادي بتحصل، بوبي ليتش مات بقشرة برتقانة.

- مين يا خويا؟

- البهلوان اللي نط من شلالات نياجرا سنة ١٩١١.

- قطز، مش وقت قناة النيل الثقافية خالص. استهدى بالله
كده إن شاء الله لا فيها موت ولا حاجة، أنا مش حمل
الفال الزفت ده. وبعدين أنا مش فاهم إنت ليه متخيل إن
لو طلع عندنا كورونا فعلاً أنا اللي هخف، أنا من ساعة
ما شيلت الطحال ومناعتي في النازل، ورثتي اتبهدلت
من خمستاشر سنة تدخين.

- ما هو ما ينفعش إحنا الاتنين نموت يا نوح. مين هياخد
باله من أهلنا؟!

- صلاح!

حذق قطز إليّ فاغراً فاه. الأحمق لم يفهم أنني أمازحه
إلى أن ضربت كرشه، وقلت مداعباً:

- افرد بوزك، مش هيبقى كورونا ونكد.

اتكأ بمرفقيه فوق ركبتيه، وألقى برأسه بين كفيه، ثم زفر

زفيرًا ثقیلاً، لم أرَ أخي يائساً إلى هذه الدرجة من قبل.
لم يهَب الموت أو يحاول الفرار منه يوماً، ولكنني أتفهم
حساسية وضعه، لو كنت في انتظار مولودي الأول لهزمني
الخوف من الغد مثله.

ربت على كتفه لأشاركه حَمْل ثقله، وكدت أقول ما قد
يطمئنه، ولكن رن هاتفني وتوسط شاشته اسم سيليا،
فأجبتها بلهفة:

- طمئينا!

- نتيجتكم سلبية الحمد لله، بس زي ما اتفقنا، ليلتين في
العزل وبعدها نعمل اختبار أخير.

* * *

بمجرد أن غادر قطز الجراج بسيارته وعلى محياه ابتسامة
فيها بصيص من الأمل، اتصلت بدليلة لأشرح لها الوضع،
فأجابتنني هامسة:

- لحظة يا بيبي.

سمعت صرير خشب الأرضية القديمة يتبع حفيف
خطواتها الخفيفة، فعلمت أنها في غرفة الضيوف، ويبدو
أنها نامت إلى جوار الصغيرين.

أتاني تزيق مفصلات الباب وهو يفتح ثم يغلق، وسألتني بعدها:

- وصلت لمكان عزة؟

- لسه. عارفة إن أمل عندها بنت واحدة اسمها ميريت؟

- آه، عزة قالتلي إنها ماتت صغيرة.

- وما قالتكيش إنها مش بنتها؟

- هي مين؟

- معلش، ركزي معايا يا حبيبتى. بقولك أمل خلفت بنت واحدة وماتت، اللي هي ميريت، يعني عزة مش بنتها. أنتيمتك كدبت عليكى.

- عزة مش أنتيمتى. وبعدين إنت جبت الكلام ده منين؟
- لسه قافل مع أخو أمل.

طال صمتها، لا أدري أي شعور تمكّن منها، لو كنت مكانها لثارت الغضبة في نفسي، ولكنها قالت بفتور:

- طيب. هتتغدى إيه النهارده؟

ما أهدأك يا دليلة!

- سيبك من الغدا. عايز أقولك حاجة بس ما تتخضيش.

نقلت إليها خبر احتمالية إصابتي بالكورونا، فصمتت
للحظات، حتى شككت أن الاتصال بيننا انقطع، وقبل
أن أتفقد عداد الثواني لأتأكد من استمرارية المكالمة،
اكتسحني فيضان من قلقها وتوترها، ولن أبالغ إذا قلت
ذعرها وهي تقول جملاً قصيرة سريعة:

- لأ، ما تقلقش. إن شاء الله خير. إنت هتبقى كويس. أنا
متأكدة أن التحليل النهائي هيطلع سلبي برضو.

- وأنا كمان يا حبيبتى، ما تقلقش عليّ، إحنا خدنا كل
احتياطاتنا والتزمنا بتعليمات سيليا.

- كويس، كويس. أنا متأكدة إن ربنا مش هيختبرني فيك
تاني. إنت مش هيجرالك حاجة يا نوح. إنت حاسس
بأي تعب طيب؟

- بالعكس أنا زي الفل. بس يا ريتك سافرت الساحل مع
ليلو وحماتي بدل ما تتعدي.

- وأقضي أول عيد في جوازنا من غيرك؟

- يلا، لعله خير.

تشاءبت بقوة، فأنا لم أنم منذ ست وعشرين ساعة إن كنا
سنستثني غفوتي القصيرة في القسم.

- أسندت رأسي إلى زجاج النافذة وأنا أخيرها:
- تسافروا لحماتي، ولا أعزل نفسي مع قطز بما إن آسيا سابتله البيت؟
- مش فاهمة! إنت عايز تتعزل لوحدك يا نوح؟
- ما أكيد لو حدي يا دليلة، أومال هو اسمه عزل ليه؟
- هو الواحد لما يمرض يروح لصاحبه ولأ لمراته؟
- لو صاحبه عيان زيه يروحله، أومال يغامر بصحة مراته السليمة؟
- ومين قالك إني سليمة؟ إنت قعدت معايا ومع الولاد فلو فعلاً لقطت حاجة يبقى كلنا اتعدينا.
- أنا كنت معقم إيدي قبل ما أدخلكم الشقة ورميت كما متي بنفسي.
- وكنت معقم النفس اللي خارج منك وإنت بتحضني؟
- كان حضن عابر غير مسبب للعدوى، مش بوسة يعني.
- منظمة الصحة العالمية عندها علم بالفتي ده؟
- دليلة، الله يخليكي أنا مش حمل مناهدة. هما ليلتين هتقضيهم عند أمك، ويبقى يحلها حلال بعدين.

- تمام يا نوح. هسيبك البيت لو ده اللي هيريحك. إنت
فين دلوقتي؟

- في الجراج، ومش هطلع غير لما أشوفك قدامي بتركبي
عربيتك.

- أوكيه.

أغلقت الخط من دون سلام، فقررت استغلال الوقت الذي
ستعد فيه نفسها والصغيرين لمغادرة الشقة، لأتواصل مع
عائلي، وأذيع عليهم النبأ اللعين!

أصبح جروب واتساب وتطبيق زووم الطريقتين الآمنتين
لتجمع عائلي منذ أن أصيبت أُمي بالكورونا.

وقع هذا في أواخر شهر مارس بعد زيارتها إلى قبر أبي،
وتوزيعها للصدقات على سكان المقابر، فظهرت عليها
الأعراض بعدها بليتين، وكانت نتيجة تحليلها إيجابية،
ف عزلت نفسها.

بعد انتحار عاطف الزفت في زنزانته، - أو ربما مقتله،
لست متأكدًا - انتقلت أُمي للعيش في شقة في حي السيدة
زينب اشتراها لها أبوها حين كانت طالبة في كلية الطب،
لأن الحياة في سكن الطالبات كانت شديدة التواضع
بالنسبة إلى آخر العنقود مدللة أبيها. عزلت نفسها هناك،

ولم تخبرنا بمرضها لنعني بها كما يتحتم على الأبناء أن يفعلوا. أخبرتنا بأنها ستقيم شهرين مع شقيقتها في المنيا هرباً من ضجيج المدينة، ولم نكتشف كذبتها إلا بعد تعافيتها بشهر.

لا أدري إن كان كتمانها لخبر مرضها يرجع إلى خوفها علينا من العدوى، أم إلى اعتيادها مواجهة مصاعب الحياة بمفردها كأننا ما زلنا طفلين! على العموم، أصاب مرضها تيتة سونة بالهلع، فقاطعت كل ما هو خارج شقتها. استغنت بتطبيقات توصيل الطلبات عن زيارة محال البقالة، واستبدلت التواصل معنا عبر الهاتف بزيارتنا الأسبوعية لها، وأمرتنا ألا نزورها إلا بعد أن يكتشفوا لقاحاً للفيروس. وهكذا مر عليّ شهران من دون أن أقبل جبين من كانت جزءاً أصيلاً من يومي لعقدين من الزمن، أُجبرت على رؤيتها عبر الشاشة فحسب.

لم يستفد أحد بيننا من هذه الجائحة غير نادية، فمكوث الناس في بيوتهم وإبطاء إيقاع حياتهم جعلوا الكثيرين يتجهون إلى قراءة الروايات، خصوصاً روايات الجريمة من منطلق «اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته». ولأن روايات الألغاز تعطي المرء إحساساً زائفاً بتحقيق

العدالة، فقد وصلت رواية نادية الأخيرة التي روت فيها، وبشكل غير مباشر، شهادتها عن اغتيال أبي، إلى شريحة عريضة من القراء. قبل هذه الرواية لم أكن أعرف أن نادية شهدت هذا الكم من التفاصيل ليلة وفاته، ولكن أظن أن من يهاب البوح علانية يصبح كاتبًا بارعًا مثل شقيقتي، التي حصدت أخيرًا بعد سنوات من المثابرة شهرة أدبية مستحقة، جعلت رواياتها الأكثر مبيعًا في كبرى المكتبات لثمانية أسابيع على التوالي.

أول من استقبل مكالمة الفيديو الجماعية كان سونة التي احترفت استخدام الكاميرا والميكروفون، حتى إنها اشترت لهااتفها مسندًا حديثًا مزودًا بإضاءة قوية، تضعه على طاولة الطعام في غرفة السفارة، وخلفها النيش الفرنسي مذهب الحواف.

- بونجور يا روجي. وحشتني خالص يا نوح.
 - وإنتي أكثر يا سونة، بتعملي إيه اليومين دول؟
 - بتفرج على مسلسل بميت وش. الولد أسر ياسين ده خطير، عليه واحدة هاي شو جر تجنن!
 - إنتي بتكراشي على أسر ياسين يا تيتة؟
- كان هذا صوت نادية التي انضمت إلى المكالمة مع طارق،

كلاهما جالس على الأريكة، وبينهما «حزلقوم»، القط
البرتقالي الذي انتشلته تالا الحنون من الشارع، لأن أعداء
الرحمة سمموا أمه وإخوته. عارضت نادية تبني القط
البلدي بشدة، ولكن، وكعادة الأمهات، تصالحت مع
الأمر، واعتبرت أن لها أربعة أولاد: ياسر، ويحيى، وتالا،
وحزلقوم القط.

ردت جدتي على تعليقها بتحفظ:

- اسكتي يا بتاعت القطط الجربانة إنتي!

حملت نادية قطها، وقبّلت رأسه وهي تقول بنبرة لطيفة
لم أرها تستخدمها حتى مع أولادها:

- حزلقومي مش جربان، ده قمر.

استمرت في تقبيله حتى ماء بعنف وعض إصبعها، فألقته
على الأرض وهي تسبه، بينما يضحك عليها ياسر ويحيى
من خارج الكادر.

انضمت أمي إلينا وهي تعدل طرفي حجابها، وتلقي علينا
تحية السلام كاملة، كأنها ستلقي خطبة الجمعة، فسخرت
منها جدتي التي لم يصف قلبها من ناحيتها بعد، وما زالت
تلعب عليها دور الحماية المتسلطة.

أعطيتهم مجالاً لتبادل الأخبار. تيتة تقسم إنها تحيا أسعد

أيام حياتها، لأنها أخيراً ظفرت ببيتها لنفسها، وأصبحت لديها مساحة شخصية لم تحظَ بها منذ أن كانت تدرس الحقوق في السوربون، كأنني كنت كاتم أنفاسها!

نادية تشتكي من نظام التعليم عن بُعد الذي ألقى على كاهلها مسؤولية تعليم أولادها الضجرين المحرومين من مدرسة يفرغون فيها طاقتهم الشيطانية مع أقرانهم، وأنهكها كأستاذة جامعية تُدرس تاريخ الأدب لقسم اللغة الإيطالية في كلية الألسن. ظهرت تالا في الكادر فجأة تقول بشغف متقد أدامه الله عليها:

- بص الحركة دي يا خالو.

وقفت على أطراف أصابع قدميها، وراحت تدور بطريقة معقدة وهي تقول إنها تعلمت حركات الباليه الجديدة هذه من يوتيوب بما أن التمارين توقفت، فصفقت لها أنا وتيته، بينما تتمم أمي بآيات من القرآن وهي تمتدح رشاقة وليونة حفيدتها، ثم ظهر يحيى وياسر ليرياني علامات عضهما وخربشتهما لبعض، ليؤكدوا لي شكّي في أنهما رضعا من كلبة بلدي في غفلة من نادية وطارق.

خرج الأولاد الثلاثة من الكادر ليشاهدوا شيئاً ما على التلفاز، فقلت من دون مقدمات:

- أنا وقطر بنحقق في قضية جديدة، واكتشفنا إن القتل كان عنده كورونا.

حدقت تيتة إليّ، ثم قالت:

- هو ينفع تتعدي من جثة؟

- الدكتور اللي معانا في مسرح الجريمة شرحنا إن خطر العدوى بيكون منخفض جدًّا، بس ما ينفيش احتمالية وجوده.

شهقت أمي، وضربت صدرها، كأنني أخبرتها بأني سأقابل عزرائيل بعد خمس دقائق:

- يا حبيبي يا ابني! لا حول ولا قوة إلا بالله! يا حبيبي يا... تأففت جدتي، فتابعنت انكماش ملامحها من رد فعل أمي الدرامي، حتى صاحت فيها بنبرة أمرة:

- اتسدي يا سعاد، هترعبي الولد على نفسه! ما إنتي جاتلك كورونا وبقيتي زي القرودة أهو.

فردت أمي كفها في الكاميرا، فيما نعرف كلنا أنه تخميس ضد الحسد، وقالت:

- رقدت خمس أسابيع وخمس أيام وخمس ساعات لحد ما خفيت.

مطت جدتي شفتيها، وقالت ردًا على تكرار أُمي لرقم
خمسة:

!Sauvage –

نطق صوت العقل بين أفراد هذه العائلة المختلة، طارق،
ليسألني بما أنه صيدلي أريب:

– عملت PCR أولي يا نوح؟

– أيوه، وطلع سلبي.

زغردت أُمي، وظلت تحمد الله، ثم ماء حزلقوم بصوت
حاد غطى على أصواتنا جميعًا كأنه يستغيث، فقامت
نادية عن الأريكة، وغابت عن الكادر وهي تصيح في
ولديها اللذين لا أرى ما الجرم الذي ارتكبه في حق
القط البريء.

تجاهل طارق الحرب الأهلية الدائرة حوله، وسألني بسلام
نفسي أحسده عليه:

– طب حاسس بسعال، إسهال، حمّى، غثيان، احتقان،
ضيق تنفس؟

تحول صريخ يحيى وياسر إلى بكاء، ثم علا صياح نادية
فكتمنا كلنا آذاننا، ما عدا طارق الذي لا شك في أن سمعه

ضعف من الضجة التي يعيش فيها صباحًا ومساءً مع أختي.
علقت بنفاد صبر:

- والله يا طارق ما فيه حاجة تجيب ضيق تنفس غير صوت
مراتك المسرّسع ده!

عادت نادية إلى الكادر تحمل قطها المقدس، وقالت وهي
تجلس إلى جوار زوجها:

- ما تخليك في وكستك يا خفيف! هتتزلوا فين؟

- قطز هيتعزل في بيته، وأنا مستني دليلة تروح لأمها
عشان أطلع الشقة.

رفعت جدتي حاجبيها المصبوغين حديثًا باللون الأحمر
الكرزي، وقالت بنبرة شديدة الاستنكار:

- Pardon؟!

قالت أمي بنبرة ملغمة بخبث لا أحبه فيها:

- استني يا حماتي نفهم، أكيد ما يقصدش إنه هيقعد بطوله.
دليلة بنت ناس وبتفهم في الأصول برضو.

- لا، أقصد فعلاً إني هقعد بطولي. ودليلة طبعًا بتفهم في
الأصول ومصممة تفضل معايا، بس أنا اللي رافض.

- وليه ترفض يا ابني؟ أو مال مين هياخد باله منك؟

- أنا هاخذ بالي من نفسي، هو أنا صغير؟
- كلنا بنبقى صغيرين لما بنمرض، مين هيرعاك لو لا قدر الله، ابعدي يا شر، طلع عندك كورونا؟
- أنا مستغربك جدًّا يا ماما. إنتي لما جالك كورونا خبيتي عننا عشان خفتي نتعدي. ومش بعيد لو كنت قلتك إن دليلة هي اللي احتمال تبقى عيانة كنت هتقوليلي خليها تتعزل بعيد عنك.
- قصدك يعني إني ست ظالمة ومنافقة يا نوح؟ ماشي يا ابني. كتر خيرك.
- أنا ما قلتش كده.
- صاحت فيها جدتي بمجرد أن لاحظت انزعاجي:
- بطلي تقلبي الطرابيزة علينا كل ما تتزني في الكلام يا سعاد.
- الله يسامحك يا حماتي.
- تدخل طارق قائلاً:
- صلوا على النبي يا جماعة. نوح عنده حق، لو دليلة اتعدت مين هياخذ باله منهم هما الاتنين؟
- قالت أمي:

- أنا هخدمهم. ما أنا بقى عندي مناعة.

صرخت نادية فينا بصوت حاد كصرير الباب جعل القط
يفر منها لينقذ أذنيه الحساستين، وأجبرنا كلنا على الإمساك
عن الكلام.

- بسسسسس. لا إنتي ولا دليلة، أنا اللي هخدم أخويا!
تدخلت قائلاً:

- لا يا نادية، أنا...

- إنت عيل أتنشن. كل ما تلاقي الدنيا مستقرة تجرجرنا
وراك في المستشفيات. ما تشوفلك شغلانة غير اللي
بتقتل فيها كل خميس وجمعة دي، قرفتنا!

استنكر الجميع أسلوبها الفج، ووبختها أمني لاستخدامها
نذير القتل، ولكنني ضحكت حتى أكمني بطني وفر من عيني
المرهقتين الدمع. شقيقتي على حق، عملي في المباحث
الجنائية عرضني لثلاث محاولات قتل خلال السنوات
الأربع الماضية، يا له من أمر مبتذل!

أصابتهم عدوى ضحكي، فلانت ملامحهم وابتسموا، ثم
قالت نادية بنبرة حنون ينذر سماعها:

- خلي بالك من نفسك يا جحش. أنا هتابعك كل ساعتين،

لو ظهرت عليك أي أعراض أو نتيجة التحليل الثانية
طلعت إيجابية هكس عليك.

نادية حادة الطباع، ومتقلبة المزاج، وفتيل غضبها قصير،
وما من لسان أسلط من لسانها في القاهرة الكبرى، ولكن
حين أفكر في كلمة أم لا أرى غيرها.

لخصت مشاعري كلها في نظرة تقدير ونبرة امتنان صادق،
فأنا لا أحترف التعبير بالكلمات.

- شكرًا يا نادية.

- على الله يطمري يا خويا. سلام.

دعونا لبعض بالسلامة والصحة، ثم أنهيت المكالمة،
وأغلقت التطبيق، وبينما أعيد هاتفني إلى جيبتي، فُتح بابي
فحزرت كالملدوغ، وراحت يمناي من تلقاء نفسها صوب
طبنجتي، ولكني لم أستأنف إخراجها من جرابها حين
التفت لأجد أن دليلة هي التي تقتحم خلوتي.

وقفت في المسافة بين بابي ومقعدي، وأنزلت كمامتها
عن ذقنها وهي تميل نحوي، وتجذبني من ياقة قميصي،
وتدفس أنفها بأنفي لتشاركني أنفاسي، بينما تطبع على
فمي ما لا يرتقي إلى أن يكون قُبلة من فرط قصرها، الأدق
أن أصفها بلثمة سريعة، إن رمش المرء فاته ملاحظتها.

لا نعبر عن محبتنا في العلن حتى بعد زواجنا، استسلمنا
للجرح الأخلاقي المتعفن الذي أصاب مجتمعنا بغير غريتنا
لا شفاء منها إلا بالبر، فجرمنا الود الحلال قبل الحرام،
وحبسناه في زنزانة «العيب». كسب الكارهون معركتهم
ضد الأحبة منذ عقود، وهذا ما جعلني أستغرب جرأة
فعلتها على الرغم من أننا في الجراج بمفردنا والأمر كله
حدث في ثانيتين.

أحاطت وجهي بكفيها، ثم قالت:

- أديها بقت بوسة مش حضن عابر غير مسبب للعدوى،
ممکن نطلع بيتنا بقى؟

اللعنة، قبّلتني وخاطرت بصحتها!

أدركت أن ما فعلته لم يكن تعبيراً جريئاً عن الحب، كانت
لثمة انتحارية تضعني بها أمام الأمر الواقع لتشاركني
مصابي بالإجبار.

أنزلتُ كفيها عن وجهي، ورمقتها بسخط قابله بأن ضغطت
على طابع الحسن الذي يختم ذقني، وأصدرت صوتاً يشبه
تكة الزر. تفعل هذا كلما استشعرت بأنني منزعج منها،
كأن في ذقني زراً يغير تعبيرات وجهي! ولسبب غامض
تنجح هذه الخدعة الطفولية كل مرة، فتلين قسماتي،

وترتسم ابتسامة بلهاء على وجهي، ويتحول الانزعاج
إلى مزاح ينتهي بأن أهتم في عيني زوجتي التي لم يخفت
هيامي بها منذ أن وقع نظري عليها للمرة الأولى منذ أربع
سنوات.

٧

كلما تحركت دليتي في فراشنا، وهي كثيرة الحركة، أخرجتني
من رقادي، وعلقتني في حالة بين اليقظة والنعاس، حتى يستقر
رأسها بين ذراعي، ويتقابل وجهانا، فتداعب أنفاسها العميقة
الدافئة طرف أنفي، وأطمئن إلى أن سدادتي السيليكون في
أذنيها تحرسان هناء نومها من ضراوة شخيري.

أعاود النوم، وهنا تكمن المشكلة، فغياب وعيي يفتح
بوابة هذياني المؤذي على مصراعيها.

تحولت أشلاء حياتي على مدى الأشهر العشرة الماضية
إلى كوابيس تمر كمونتاج سريع كما في الأفلام.

سخونة رذاذ دماء الشاب خالد على وجهي، رائحة بارود
رصاصة هتكت طحالي، ألم كدمات ضربت رؤيتي،
انغراس أظفاري في سور شرفة أسمنتتي، دفعة شرسة،
ثم فقدان توازني فأسقط.

أستيقظ عادة قبل الارتطام، ولكن هذه المرة استمر
السقوط والأسفلت الذي أقرب منه متلهفًا لالتقافي.
تخذلني صرخاتي، صوتي تبرأ مني، صمت الكون،
وطغى السكون في الأفق حتى وقعت معجزة، ظهر
غراب عملاق.

اندفع نحوي، وانقلب في الهواء فجعل من بطنه وسادة
ناعمة تحول بين بدني المغدور به والأسفلت.

تنفست الصعداء، ولكن سرعان ما أغلق جناحيه عليّ،
فأدركت أنهما ليسا مصنوعين من ريش، بل عشرات
الغربان الصغيرة التي اصطفت حولي، وراحت تنعق
بحدة أدميت لها أذناي، ثم فتحت أفواهها، ومالت نحوي
بمناقيرها الحادة التي يتقطر منها دم قانٍ. هذه الغربان
جائعة وأنا وليمتها!

- بيبي!

كان هذا صوت دليلة ينقذني من المناكير قبل أن تمزق
لحمي، يبدو أن الغربان ستظل تنقر سلام نومي حتى
يطرد ذهني سموم رؤيتي لها وهي تنقر جثة هذا القاتل
المجهول.

رفعت يدها لتضعها على وجهي وهي نصف نائمة، فنزلت

كفها على عيني في سوء تقدير منها للمسافة وهي تقول
بصوت خمل:

- كابوس؟

أزحت يدها عن عيني، وقبلت راحتها المكتترة، ثم قلت:
- لا، كملي نوم.

استأنفت نومها بسرعة تحسد عليها، ولم تترك يدي،
فتحسست أصابعها الرفيعة مقتفياً الخطوط التي خلقها
الله حول أناملنا لتشكّل بصماتنا الفريدة.

ماذا لو كانت لدليلة بصمة في مكان مثير للشبهات داخل
مسرح الجريمة؟ في المطبخ مثلاً أو على الطبق الذي
وجدت فيه الرأس المقطوع؟ ماذا لو وجدوها على سلاح
الجريمة؟ ستقع فوراً في دائرة الاشتباه، وسينحونني عن
التحقيق، وربما يجدون مزيداً من الأدلة الجنائية التي
لفقتها عزة ضدها؟!

كيف تنام بسلام، وتتنفس بعمق من دون أن تعضها
المخاوف التي تنهشني الآن؟

صرت قلقاً أكثر من اللازم يا نوح، تماسك يا رجل!
خذ نفساً عميقاً، وأدخل هواء المكيف البارد إلى جسدك

المحموم، ثم انظر إلى محيا زوجتك البهي الذي تلقي
عليه لمبة الطريقة البرتقالية ضوءها الحميم، راقب كيف
غرقت في أحلامها الوردية، تحسس أطراف شعرها التي
تلامس كتفك العارية واهداً.

كنت على وشك إغلاق عيني، ولكن حالت رنة إشعارات
رسائل واتساب بيني وبين استئناف كوابيسي.

كانت الرسالة من قطز، من غيره يجرؤ على مراسلتي في
هذه الساعة! حوت رسالته على كلمة واحدة يستحيل أن
يتركك فضولك تنام بعد قراءتها:

صاحي؟

* * *

- خير؟

سألت قطز عبر الهاتف وأنا أجلس على مقعد الشرفة
وأمدد ساقي على الطاولة المستديرة المقابلة له بحذر،
حتى لا أرطم أصيص زهرة دوار الشمس الذي اشتريته
دليلاً منذ يومين.

- الصحافة كتبت عن الجريمة.

- كاتبين أي تفاصيل تضر التحقيق؟

- لآ، قالوا العثور على جثة في بناية الفنانة التي هزمها الزهايمر، وباقي الخبر كله عن أمل نفسها.
- وعرفوا منين إن فيه جثة؟ إنت قلت حاجة للجيران اللي استجوبتهم؟
- عيب عليك هو أنا مبتدئ!
- قضم شيئًا مقرمشًا، وراح يمضغه في أذني، فأدركت أنني أيضًا أشعر بالجوع.
- ابتلع ما مضغه، ثم قال:
- تعرف إن وليد نزل الشهر اللي فات حلقة من البودكاست بتاعته عن أمل فهمي؟
- عرفت لما سيليا هزأتني عشان مش مفعّل زر الجرس لجوزها.
- طب روح اتفرج عليها وكلمني.
- إنت مصحيني من النجمة عشان أتفرج على بودكاست وليد؟
- يخرب بيت ضيق خلقك، إنت جعان ولّا إيه؟
- أيوه، انجز بقى.
- طب يا سيدي، أنا مكلمك عشان صلاح لسه قافل معايا.

- على الريق كده؟

- ما إنت عارف، وقت الحظر ده ساعة حظه. المهم،
لسه مفيش جديد عن عزة بس تتبعنا خط سير القتل
على الموتوسيكل من خلال كاميرات باقي محلات
الشارع، لقيناه وقف قدام محل موبيليا بعد بيتكم بيعجي
عشر دقائق.

- موبيليا عاشور؟

- أيوه، وقف قدامه زي الحمار ولبس اللوحات شراب
حريمي عشان يخفي نمره اللوحة.

- كواليتي الفيديو كويسة؟

- آه مصطفى ظبط الدنيا، وقدرنا نجيب النمره، واستعلمت
عنها من نادر الصاوي. طلعت متسجلة في المرور باسم
مدير فرع غيبوبة اللي في عماد الدين، سألناه عن القتل
أنكر تمامًا إنه يعرفه، ومفيش ورقة واحدة باسمه في
ملفات التعيين.

- شغال عندهم من غير ورق؟

- أوله زميل شغال هناك وخذ منه الموتوسيكل سلف.

- وخذ منه اليونيفورم كمان سلف؟

- إحنا هنقضيها تخمين؟ مش كده عدت تقريباً أربعة وعشرين ساعة على توقيت الوفاة؟

فهمت إلام يرمي، يريدني أن أشق ليمونة نصفين، وألقي السلام على روح الميت التي ستنجذب إلى رائحة الليمون.

أعترف بأن قدرتي على رؤية أرواح القتلى نجحت في اختصار طريق إيقاعي بقتلتهم، ولكن ما أصابني في الغيبوبة من تأرجح بين عالمي الموتى والأحياء، ومجالسة روحي أبي وجدي، ورؤية عشرات الأرواح الطافية خلال إقامتي في العناية المركزة، دفعني لاعتزال التواصل مع الأرواح تماماً، إلى درجة أنني صرت أتجنب وضع ليمونة في جيبتي.

- معنديش لمون. تصبح على خير يا أبو حتشبسوت. أنهيت المكالمة، ثم اتجهت إلى المطبخ لأخرس أطيط بطني.

* * *

رن الميكروويف معلناً انتهاءه من تسخين طعامي الذي كان تشكيلة من بقايا وجبات سابقة في الشلاجة.

أخرجت الطبق فلسعت سخونة طرفه إبهامي، ثم عدت إلى

الشرفة، أتكى بمرفقي على السور العريض الذي اتخذته
منضدة بينما أراقب الشارع ساعة الصبح.

أحب استدارة شرفتنا منذ طفولتي، كنت أتخيلها برج
مراقبة، وأحمل بندقيتي البلاستيكية، وأتظاهر بأنني باسل
من بواسل حرب أكتوبر أقتنص الصهاينة باحترافية، ولكن
هذا الصمت والسكون المميتين أكأباني.

قررت أن أسلي نفسي، بمشاهدة حلقة بودكاست وليد.
جلست على مقعدي، ووضعت طبقي على حجري،
وأسندت الهاتف إلى أصيص دليلة، ثم شغلت الفيديو.

بدأت الشارة بتتابع بوسترات أفلام أغلبها هوليوودية
تصحبها موسيقى لا أذكر أين سمعتها من قبل. تخطيت
الافتتاحية فبدأت مقدمة شغلتها على سرعة مضاعفة،
لأنني في غنى عن مشاهدة وليد وهو يقدم نفسه للمشاهد
في أربع دقائق كاملة، ما كان عمر الشريف ليقدم نفسه في
هذه المدة!

دخل أخيرًا في صلب الموضوع، فأعدت الفيديو إلى
سرعته الطبيعية وهو يقول:

- أكيد تعرف أمل فهمي من أفلام زي: درية اللي بيحكي
حياة الناشطة الحقوقية والنسوية المصرية درية شفيق،

وفيلم رصاصة لحبيبي، ودموع سوداء، وغيرها من الأفلام اللي حققت أرقام قياسية في شباك التذاكر في التمانينات والتسعينات، ومهدت طريق للبطولة النسائية في أفلام الجريمة والتشويق لفنانات كثير. بس النهارده هحكيلك عن الفيلم الوحيد لأمل فهمي اللي ما حققش نجاح تجاري لأنه فيلم «آرت هاوس» مش مغري للمشاهد العربي، ولكنه كسب أمل جائزة أفضل ممثلة في مهرجان كان، وخلاها أول ممثلة مصرية وعربية تحصل على الجائزة دي. الفيلم اللي هكلمك عنه النهارده هو فيلم أرتيميسا.

ظهر بوستر الفيلم في الركن العلوي الأيسر من الشاشة، كانت اللوحة المعلقة في صالة أمل لجوديث وخادمتها بعد أن قطعتا رأس الرجل ذي الاسم المعقد الذي يصعب حفظه.

بدأ يروي قصة الفيلم التي لخصتها لي حماتي، ثم شرح كادراته ورمزياته وتفاصيل حبكة وإيقاع حوار، وظل يتفذلك سينمائياً لنصف ساعة، فهمست بنفاد صبر: «انجز يا وليد!».

كأنه سمعني، نطق أخيراً بجملة لفتت انتباهي بعد أن كدت أغفو من الضجر:

- كده إنت عرفت قصة الفيلم اللي الجمهور أنصفه
بعد عرضه تلفزيونيًا، وعرفت كمان إنه كان آخر فيلم
سينمائي مثلته أمل، بس يا ترى تعرف إن نهايته حصلت
لأمل وبنتها الوحيدة بحق وحقيقي؟

حكى وليد حكاية هي الأعجب، ولا أعرف كيف لم أسمع
بها من قبل، خصوصًا أنه لم يمر عليها سوى سبع سنوات.
كرست أمل حياتها للفن من دون أن تُنجب، حتى فاجأت
الوسط الفني وهي في عمر الخامسة والأربعين بصورة
في المشفى وهي تحمل ابنتها ميريت التي كانت آية
في الجمال، إلى درجة أن بوصولها إلى سن السابعة
عشرة أصبح مهووسًا بها بسام التميمي، ابن صاحب
أشهر مصنع غزل ونسيج في البلاد، وكان يكبرها بعشر
سنوات.

المقرف وقع في غرام قاصر، وتقدم لخطبتها، ولكن أمل،
وكأي إنسانة عاقلة رفضت، وبسام، كأبي مختل لم يقبل
الرفض. تربص بميريت وطاردها، إلى درجة أن أمها عيّنت
لها حارسًا شخصيًا، وتقدمت ضد بسام ببلاغ رسمي
تمكّن محاميه من أن يدحضه بحيله القانونية.

وفي الأول من ديسمبر لعام ٢٠١٣، وصلت ميريت إلى
بيتها في سيارة يقودها سائق في رفقة حارسها. نزلت من

السيارة، التي بدأ السائق يقودها ليغادر الشارع، ولكن ميريت تذكرت أنها نسيت هاتفها فيها، فركضت لتلحق بالسائق، وإذ بسيارة تنطلق بقوة جنونية من خلفها، وترطمها بعنف جعلها ترتفع عن الأرض، ثم تسقط، فينكسر عنقها، وتلفظ أنفاسها الأخيرة. إليكم الجانب الأتعس من هذه التراجيديا، وقعت هذه الجريمة على مرأى ومسمع من أمل الواقعة في شرفتها!

حُكم على بسام، بعد قبول استئناف محاميه، بالحبس ستة أشهر، لأنه لم يهرب من موقع الجريمة، واتصل بالإسعاف وبالشرطة، ولم تكن في حيازته مواد مخدرة، ومع ذلك لم يقضِ ليلة في الحبس. اختفى قبيل جلسة النطق بالحكم، أي منذ سبع سنوات، مما يعني أنه حتى وإن ظهر الآن على الأغلب لن يُسجن، لأن الحكم سقط عنه بالتقادم.

طرح وليد أكثر من تفسير محتمل لاختفائه:

- فيه ناس شايفة إن أهله هربوه بره البلد عشان ما يتنفذش فيه الحكم. وناس شايفة إنه لسه في البلد وعایش حياته عادي بس غير اسمه. لكن أهله نفوا الكلام ده وعرضوا مكافأة اتنين مليون جنيه، خد بالك الكلام ده لما كان الدولار لسه بسبعة جنيه. وقالوا إن بسام اختفى من ليلة

الحادثة، واتهموا أمل بإنها ورا اختفائه، ولمحوا إلى أنها خدت بتار بنتها منه على طريقة فيلم أرتيميسا، والشرطة والنيابة فعلاً اتحركوا في السكة دي وفتشوا بيت أمل وحققوا معاها، ولكن ما أثبتوش تورطها بأي شكل في اختفاء بسام. ولحد النهارده يبقى سؤال حبكة فيلم أمل وميريت اللي ملهوش فينالة: هل أهل بسام هربوه بره البلد وتصريحاتهم دي بروباجندا عشان يغطوا على عدم امتثاله للحكم الصادر ضده، ولّا التار لعب دور محوري في الحبكة دي؟

أنهى الحلقة بمقطع عائلي شديد الحميمية لأمل وهي تعانق مراهقة شقراء، الفتاة التي رأيت لها عشرات الصور في شقة أمل، وأمامها كعكة عيد ميلاد عملاقة في حديقة جميلة مزدهرة مزينة بطريقة مبهجة، لم أصدق أنها نفس الحديقة المهملة الميتة التي تحولت الآن إلى مسرح جريمة! من حولها بعض الممثلين الذين شاركوها أعمالها يصفقون لها وهي تغني بالأداء نفسه الذي غنت به بعد أن قيدتها في الحمام أمس:

علشان ما هي سن سبعتاشر قال يعني خلاص
تزعل ويايا لو أبوسها قدام الناس

بنزول شارة النهاية، أدركت أنه كلما طلبت مني أمل

أن أحضر لها ميريت لم تكن تقصد ماركة السجائر،
بل قصدت ابتتها الوحيدة التي غنت لها أغنية «أمورتي
الحلوة» في عيد ميلادها السابع عشر والأخير.

وضعت طبقي الفارغ إلى جوار هاتفي، وانزلت في
مقعدي لأمدد ساقَي، وأسند قدمي إلى السور، بينما أضم
ذراعَي نحو صدري، وألقي نظرة على البونسيانا التي
تقتحم شرفتنا مهما قلمنا فروعها، وتتخلى عن بتلاتها
الحمراء في آخر أيامها، فتجرحها نسمات الصيف على
الأرض بلا رحمة، حتى تتراكم في الزاوية كبركة دم، لا
أظن أن لونها يختلف كثيرًا عن البركة التي خلفتها ميريت
أمام بنايتنا حين دُهست أمام أمها.

شعرت بغيمة من الضيق تتكاثف فوق رأسي، وكادت
تمطرني بزخاتها الحزينة، ولكن بانتهاء الحلقة، انتقل
الفيديو تلقائيًا إلى آخر تعلم حوار زمياتي أنه من مفضلاتي.
اشتغلت أغنية «تيجي تيجي» لحكيم، فانقشعت غيمة
الهم.

اخترق غناء حكيم صمت الشارع، فأخفضت الصوت
قليلاً، حتى لا أقلق منام الجيران وأنا أتساءل: متى سأنام
مثلهم؟

أغمضت عيني، وأرهفت السمع إلى كلمات الدويتو

العبقري الذي يشارك فيه المغني البورتوريكي دون عمر.
للأغنية إيقاع جذاب يختلف عن باقي أغاني حكيم،
محاولة باهرة لدخول عالم الراب قبل وجود «راب سين»
في مصر، كما تُسمّيه ليلو ورفاقها.

أرخيت رأسي على ظهر المقعد منتظرًا أن ينتهي مقطع
دون عمر لأدندن مع حكيم بصوت خمل:
إنت في عالم وأنا من عالم
والمسافات بينا بتباعد

تشاءبت، ثم فاحت رائحة نشارة خشب مفاجئة، وشعرت
بقشعريرة مقيّنة جعلت أطرافي ترتعد كأنني حين فتحت
فمي لأتشاءب أقحم أحدهم فيه سلكًا كهربائيًا شل عمودي
الفقري وجعل العرق ينضح من ثنايا جسدي.

ما تيجي ما تيجي ما تيجي
ليه بنخاف من بعض بس ليه

هذه كلمات الأغنية، ولكن هذا ليس صوت حكيم! إنه
صوت أجش به بحة مرض وإجهاد، صوت رجل طويل،
وشعره غزير، ولا أقصد شعر رأسه الأسود كالفتح
فحسب، بل هذا الرجل الأسمر أشعر إلى درجة التحام
شعر صدره بلحيته المشعثة، واتصال حاجبيه كجناحي

نسر محلق، ورموشه كثيفة كأنها أقواس سوداء تحد عينيه
الداكتين الضيقتين، وله أنف حاد كمنقار الغراب الذي
رأيته ينقر جثته في الأمس.

هذا صوت الميت الذي مر على ذبحه أربع وعشرون
ساعة، فقرر أن يقتحم خلوتي، ويجلس إلى جوارى في
الشرفة، ويغني معي أغاني حكيم، ويهز كتفيه، ويحرك
يديه كأنه ممسك بمطواة خفية يطعن بها غريمًا خياليًا.

التفت نحوي، ثم قال بصوت عريض أجش يليق برجل
يملك مخزون احتياطي العالم من التستوستيرون:

- ذوقك في الأغاني طرش!

تجمدت في مكاني، أنا حقًا عاجز عن إيجاد رد فعل
يناسب الموقف العبثي الذي وجدت نفسي فيه، وعن
القرف الذي يقوله.

- ألا دي شقة ٤٢ يا شبح؟

وددت أن أعلمه بأنه هو «الشبح» الحقيقي، ولكنني ارتبكت
من مجرد تخيل التواصل مع روح ميت، لمسة منه قادرة
على إيقاف قلبي الصغيرين النائمين في شقتي، واللذين
تقع مسؤوليتهما بالكامل على عاتقي حتى أجد أمهما
اللعينة، أو ماذا لو استيقظت دليلة فلم تجدني بجوارها

فدخلت الشرفة، ولمسها هذا العملاق الأشعر، فتأذى
كما فعلت فتون بها منذ عامين.

قررت أن أتبع الاستراتيجية التي خلصت دليلة والصغيرين
من فأس أمل، جاريت أوهامه.

- لا، دي ٤١. بس إنت دخلت هنا إزاي يا شبح؟

مسد لحيته بأصابعه المتسخة أظفارها، ثم سعل بعنف،
فغطيت فمي بيدي بشكل غريزي، كأن روحه المصابة
بالكورونا ستنقل إليّ العدوى.

سألني وهو يرفع حاجبه ويتكئ بكوعه على مقعدي:

- برجولة؟

- برجولة.

- أنا ما أعرفش دخلت هنا إزاي. وأقولك على موضوع
في القطمان، حاكم شكلك أفندينا وفيك مين يكتف
السر؟

- قول.

- أنا ضارب أبو صليبة ومش مرزمن.

المسكين يظن أنه غير مستقر ذهنيًا، لأنه تناول مخدر
الروهيبنول الذي يخلق نشوة مؤقتة يتبعها اضطراب في

الذاكرة، لا يدري أنه ذُبِح والغربان تناولت أنسجته على
الفتور.

- أنا كنت في الجنينة التتنة اللي تحت وراسي مبرجلة.
سمعت صوت حكيم، ومحسوبك مزاجنجي قديم،
هوب التقيت نفسي قاعد في ريحك يا شبح.

أحبال حكيم الصوتية؟ أهذا ما جذب هذه الروح التي
تحدث بمصطلحات «الحبسجية» إلى شرفتي؟
هزرت رأسي بهدوء، وقلت ملتزمًا بأقصى مراحل ضبط
النفس:

- حصل خير. هفتحلك الباب.

نهضت عن مقعدي فقلدني، تركته يخرج أولاً لأتأكد من
أنه يتجه نحو الباب، ففعل وهو يستمر في التبرير:

- إنت كنت سايب بابك مفتوح ولأنا رنيت وإنت فتحتلي؟
أجبتة بعد أن خرجنا من الشرفة ووصلنا إلى منتصف
الصالة:

- كنت سايبه مفتوح.

- وده يصح يا شبح؟ افرض واحد ابن حرام قشط شقتك
الحلوة دي هـ... .

أمسك عن الكلام، ووقف في منطقة الجلوس، حيث
وحدة أرفف صغيرة معلقة فوق التلفاز، عليها جوائز
دليلة الموسيقى، وشهاداتها التقديرية، وأسطوانة يويو ما
الموقعة التي أهديتها إياها، وصور زفافنا.

تأمل زوايا ومفصلات الأخشاب واضعاً يديه خلف ظهره
وهو يقطع بلسانه متبرماً، ثم قال:

- مين المعوج اللي عملك الشغل ده يا شبح؟!

لم يمهلني أن أجيبه، أضاف على الفور:

- محسوبك فوزي زهر، نجار وإيدي ميزان رمانة، ما
يخرجش مني شغل عوج زي اللي معمولك ده.

- أنا كنت فاكرك طيار.

نظر إليّ مستفهماً، فأشرت إلى لوجو غيوبة على التيشيرت
الأزرق الذي يرتديه، فقال:

- آآآه، لأ دي شغلانة كده على السخان. حاكم شغل
النجارة عطلان بسبب لبش الكورونا، فقلت أمشي
حالي بأي شغلانة مضمونة، الإيد البطالة نجسة. مش
كده برضك؟

- كده. لو احتجت أي شغل نجارة هلاغيك يا فوزي.

- برجولة؟

- برجولة.

استأنف طريقه، فارتاح قلبي لعدم إصراره على المكوث،
وسبقته بخطوتين لأفتح له باب الشقة فأخرج ساقه اليمنى
وأبقى اليسرى في الداخل ليقول لي بنصف ابتسامة:

- عندك تيك توك؟

- لا.

- حمّله يا شبح واعملي متابعة. أنا بخطط وبنفذ أي حاجة
خشب، يعني شغل جاحد اتنين في واحد.

- هتابعك حاضر.

- افرد البوز وتابع أبو الفوز.

- إيه؟

- ده اسم حسابي.

فتح كفه، وقبل كل إصبع فيها بصوت مقرف، ثم مدها
ناحيتي كي أصافحه مصافحة على الأغلب ستؤدي إلى
أن أفقد وعيي من فرط الطاقة الكهرومغناطيسية التي
ستصعق بدني، فألهمني الله بحجة عظيمة على الأغلب
ستجعله يتراجع عن الرغبة في مصافحتي:

- مش هينفع، عندي تينيا.

سحب يده على الفور وهو يقول:

- ألف لا بأس عليك. صباحك بيكرر.

خرج من شقتي أخيراً، فأوصدت الباب بالمفتاح وبالقفلين
الداخلين بسداجة، كأن هذا منع روحه من الدخول!

أصبح الهواء أخف فأخذت نفساً عميقاً، ثم هرعت
صوب النيش لأحصن الشقة من أي عودة محتملة لروحه،
وأدركت أنني سأضطر على مدى الأربعين يوماً القادمة
إلى أن أحرم نفسي من أسمى لذات حياتي البائسة، حتى
لا أجذب روح فوزي مجدداً؛ سماع أغاني حكيم.

أخرجت بخور الحجر الأسود وعلبة الكبريت، ثم أشعلت
عوداً، ورحت أنفخ فيه حتى يزداد دخانه، ثم ثبته على
الطاولة، والتفت ورائي فارتطمت بشيء ما فسقط على
الأرض.

ما ارتطمت به كان عليا، لا أدري كيف وصلت إلى الصالة
ووقفت خلفي في صمت وخفة، حتى إنني لم أنتبه لها،
وغالباً دعست قدميها الصغيرتين بكعبي فسقطت على
مؤخرتها، وراحت تبكي.

حملتها عن الأرض والذنب يعتصرني، ورحت أهدها

برفق لتهدأ وتعاود النوم، ولكنها كانت مفزوعة كمن أبصر
عفريتًا.

لا أظن أن هذا القدر من الفزع ناجم عن مجرد ارتطامها
بي، ربما تسير نائمة مثل تالا حين كانت في مثل عمرها،
وارتطامها بي أيقظها وسبب لها حالة الارتباك هذه.

خرجت دليلة من غرفتنا بخطوات مرتبكة وعين نصف
مغلقة فتخبطت في الحائط كخفاش أعمى وهي تعدل
حمالة ثوب نومها الأزرق الفاتح، وتردد:

- فيه إيه؟ فيه إيه؟

اقتربت منها قائلاً:

- مفيش حاجة.

خرج علي بدوره إلى الصالة، واقترب نحوي يمد يديه
كي يحمل عني أخته وهو يقول:

- آسف. مش هسيب الباب مفتوح تاني. آسف.

ربت دليلة على ظهره بيد بينما تدعك عينها بالأخرى،
وقالت بلسان أثقله النعاس:

- ما حصلش حاجة يا لولو. أعملك فطار؟

قلت لها وأنا أرى النوم يسدل ستاره عليها وعلى علي

الذي أسند رأسه إلى خاصرتي وما زالت يده مرفوعتين
إلى أعلى ليحمل شقيقته:

- نبقى نفطر بعدين، كلنا هنكمل نوم دلوقتي.

هزت دليلة رأسها موافقة، وعادت إلى غرفتنا وهي تغمغم
بشيء ما، بينما أحمل علي النعس عن الأرض، ثم أسير
بالصغيرين إلى غرفة الضيوف؛ رأس علي على كتفي
اليسرى، ورأس أخته على اليمنى.

وضعتهما في السرير، ثم بقيت إلى جوارهما بضع دقائق
ساكنة لا أسمع فيها غير تغريد عصافير ساعة الشروق
وشخير عليا الطفولي المضحك، وأزيز مروحة السقف.
ربما يجب أن أشتري لهما مكيف هواء، فالحر خانق،
والرطوبة غاشمة.

هممت أن أمد يدي لأغلق ضوء الأباجورة، ولكن علي
استوقفني قائلاً:

- عليا بتخاف من الضلمة.

ما أحن هذا الصغير الحازم!

تركت له الضوء، ثم نهضت لأخرج، ولكنه أمسك إبهامي
وسألني وعيناه زائغتان معلقتان بين النوم واليقظة:

- ماما لسه بتنشف الميه؟

- ميه إيه؟

- الميه اللي عمو راضي سابها عشان توم وجيري
بيتزحلقوا على الثلج في المطبخ.

استمرت خترفته عن توم وجيري وتزلجهما على الجليد
للحظات قصيرة، حتى غط في النوم، فخرجت من الغرفة،
وكنت سألحق بدليلة إلى فراشنا، ولكن هاتفني رن مجدداً
باسم قطز.

- خد منوم يا قطز وحل عن قفايا.

- نوم إيه دلوقتي، إنت تلبس كمامتك وتأخذ بعضك
وتجيلى. تقرير البصمات وآثار الأقدام طلع.

٨

بدأت أشك في أن جاري ذا الرائحة الكريهة يراقبني، أهى
مصادفة أن أراه كلما خرجت من العمارة؟

قابلني هذه المرة في الجراج، كان ينظف سيارته، وحين
لمحني ترك خرطوم الماء يعمل من غير حساب، ورمى
الإسفنجة الممتلئة بالصابون في دلو إلى جواره، ثم اقترب
نحوي فضغطت على كمامتي، وتراجعت قدر المستطاع،
حتى لا أتسبب في إصابته بعدوى الكورونا، إن كنت
مصاباً فعلاً بها.

قال ببشاشته المصطنعة:

- سلام عليكم. أنا راجعت الكاميرات. المدام براءة، اللي
حك العربية كان موتوسيكل.

لم يعتذر، ولم أبال، هزرت رأسي وهممت أن أفتح
السيارة، ولكنه حال بيني وبين المقبض قائلاً:

- بقالنا ييجي شهرين بنصَبِّح على بعض وما عرفتكش
بنفسي. أنا دكتور شريف فاخر.

- تشرفنا.

أخذت خطوة إلى الوراء على أمل أن يفهم أنني ملتزم
بقواعد التباعد الاجتماعي، ولكنه تقدم خطوة في
مقابل كل خطوة أرجعها، حتى أجبرني على أن أقولها
له بوضوح:

- خطوتين بس عشان النفس.

- إنت بتصدق في التباعد الاجتماعي والكلام الفارغ
ده؟ دي تمثيلية أمريكا عاملاها عشان تخترعلنا تطعيم
جديد، وتعمل قرشين على قفا الغلابة اللي زيك.

- هو حضرتك دكتور في إيه بالضبط؟

- في قانون الأحوال الشخصية. لو محتاج أي استشارة
مكتبي فوقك على طول.

لم أكن أعرف أن في شقته مكتب محاماة، لم أر له لافتة،
أيتهرب من الضرائب؟

انتفخ صدره بغرور لا يليق بالبنطال الرث الذي شممه
فوق ربلتيه، وقال:

- أنا عمري ما خسرت قضية. مش عايز أتكلم عن نفسي
كثير بس من الآخر، مش هتلاقي مني اتنين.

ولله الحمد، لا أتخيل أن أعيش في كون فيه اثنان في
سماجة شريف فاخر.

تلفت حوله، ثم مال نحوي، وقال بصوت خفيض كأنه
سيعترف بسرٍّ يود أن يخفيه عن قرينه:

- أنا شُفتك إمبراح إنت واللي معاك في الجراج.

أظنه يقصد سيليا حين وقفت معي وقطر ومصطفى
لتذيع علينا نبأ احتمالية إصابتنا بالكورونا. هل يود أن
يطردني من العمارة، كما فعل أهل قرية مع جثة طيبة
ماتت بالكورونا وهي تعالج مرضاها فاعتصموا ضدها
في المقابر؛ خوفاً من أن يصيبهم بدنهما المكفن والمعقم
بالوباء، ولم ينفذ جمعهم إلا بتدخل الشرطة بقنابل
مسيلة للدموع؟

كلّا، شريف لا يؤمن بالكورونا من الأصل، كما أنه قال
«معاك» وليس «معاكم».

تطلب مني الأمر بضع ثوانٍ حتى أفهم من يقصد.

- اللي معايا دي تقصد بيها مراتي؟

- مراتك؟ أصل الواحد مش متعود يشوف الحاجات دي
في العلن بين واحد ومراته.

أيرمي هذا الوغد إلى لثمة دليلة القصيرة لي داخل سيارتي
في لحظة ظنت فيها أننا في الجراج المظلم بمفردنا؟ كيف
لم نتبه لوجوده؟

ألقيت نظرة سريعة على سيارته، لا بد أنه ركبها في أثناء
انشغالي بمكالمتي مع عائلتي، وبقي في داخلها يفعل أيًا
ما كان يفعله حتى فاجأني دليلة بوجودها، وما كنا لنراه
لأن زجاج سيارته كله معتم بفضل ورق التظليل الأسود
الملصق عليه.

غمز بعينه، ولاعب حاجبيه، ثم قال بنبرة أظنه أراد أن
يعلمني بها أنه عريد متمرس:

- نصيحة من أخ، فيم عربيتك عشان اللحظات اللي زي
دي، بدل ما حد من السكان يعملك محضر ارتكاب
فعل مخل بالآداب.

لست مندهشًا، فوقاحة الناس لم تعد تدهشني، ولكنني
شعرت بالقرف، فمن الواضح أن شخصية شريف
السخيف ليست أقل نتانة من رائحته، ومن الواضح أيضًا
أنه ليس بالمحامي المتمكّن، أعرف ما يكفي من القانون

لأثق بأن هذه اللثمة الخالية من الإباحية والشهوة والتي لم تدم لأكثر من ثانيتين، ما كان ليصل تكييفها القانوني إلى فعل مخل بالآداب، ستقع في خانة تبادل مودة بين زوجين لا أكثر، ولكن الهوس الجنسي عند شريف وأمثاله سيجعلهم يرونها «عيباً»، والعيب في مجتمعنا أقدم من الخروج عن القانون.

- عموماً شرك في بير، أنا برضو مقدر إنك كنت بتصالحها.
- أصالحها؟! -

- أيوه. مش الصريخ اللي سمعته إمبارح الصبح بعد ما اتقابلنا عند الأسانسير كان جاي من شقتكم برضو؟
كثرة أحداث الأمس أنستني أنني لم أجد جاراً يخرج من شقته ليتفقد سبب صراخ زوجتي الذي كاد يخلع فؤادي من مكانه، اكتفوا بسؤال راضي عما إذا كانت لصراخها علاقة بسيارة الشرطة الواقفة عند العمارة.

اقتربت منه بحزم أجبره على التراجع خطوتين، وإلا دعست مشط قدمه، وسألته بنبرة باردة صارمة لا أستخدمها خارج غرفة الاستجواب:

- أنت سمعت مراتي بتصرخ؟
- طبعاً، يظهر إنك اتعافيت عليها شوية.

قهقهه قهقهة سمجة، وخبط كتفي على اعتبار أن ضرب الرجل زوجته مزحة واجب أن أشاركه الضحك عليها.

- هو البوكس اللي جه ده كان عشانك؟ أنا حاولت أرر راضي بس هو قالي إنك منبه عليه ما يتكلمش. اوعى يكونوا استجوبوك من غير المحامي بتاعك. لو مش موكل محامي قولي وأنا أخرجك منها زي الشعرة من العجينة، أصل نسوان اليومين دول اتسعدوا. لسه من يومين أخ فاضل زيك كده جالي المكتب، مراته قدمت ضده بلاغ عشان زقها فذراعها اتكسر. مش ذنبه إن عندها هشاشة عظام وكل ما يادبها تتكسر و...

قاطعت حكايته الخسيصة، حتى لا أكسر عظمه هو و«أخيه الفاضل»، وسألته من دون أن أفقد برودي:

- يعني إنت سمعت مراتي بتستغيث فافترضت إني بضربها وما فكرتش تحوش بينا ولا حتى تتصل بالنجدة؟!!

أكد افتراضي بهزة رأس، فطويت ذراعي، وضممتها نحو صدري، لأمنع نفسي من تسديد لكمة جانبية تكسر له فكاه:

- مش عيب تبقى راجل قانون ومش عارف إن نطاعتك دي اسمها تعمد الامتناع غير المبرر عن إغاثة شخص

في خطر؟ دي تهمة يعاقب عليها القانون، وممكن
تكييفها يوصل لجناية.

تحولت ابتسامته البشوش المصطنعة إلى ابتسامة خبيثة
تتوافق مع النبرة المستهزئة التي سألني بها:

- هو الأخ برضو محامي؟

- الأخ مباحث!

قلتها بغرور سلطوي يستحق شريف وأمثاله أن أمارسه
عليه. تبددت ابتسامته حين أدرك أن موازين السلطة
تبدلت، وأنني صاحب اليد العليا في هذا الموقف الدنيء،
وإذ بنبرة الوصاية الأبوية تتلاشى من صوت عديم النخوة
هذا وهو يبرر حقارته ليكون التطبيق الحي للمثل الشعبي
«ناس تخاف ما تختشيش».

- إنت اتضايقت ولّا إيه! أنا كنت بتكلم عشان مصلحتك.
إنت أكيد فاهم إن ما يصحش اتدخل بين راجل ومراته
بيتخانقوا في أمور شخصية.

عجيب أمرك يا شريف! ترى في قبلة زوجة لزوجها قضية
رأي عام تخصك، وفي ضرب زوج لزوجته ما يخصه
وحده؟

احتفظت بابتسامتي وبسكوتي، بينما أتابع تداعي عجرفته

وتأجج خوفه من أن أكبله وأجرجره إلى القسم، لا يعرف أنه أتفه من أن أضيع وقتي ووقت زملائي على حثالة مثله.

نظرت إلى زجاج سيارته المخالف لقوانين المرور، وسألته بنبرة تهديد بيّن:

- معاك رخص بالفاميه ده؟

ها هي ذي قطرات العرق تتبلور على جبينه، تكديري لصفو هذا المتلصص البجح هو ثاني أعظم إنجاز حققته في حياتي بعد تزوجي من دليلة.

أزحته عن طريقي، وركبت سيارتي، ثم انطلقت وأنا ألعن حالة تناسي الأصول الجمعية التي وصلنا إليها.

اعتاد أبي وسائر رجال عمارتنا أن يهبوا لنجدة أي جار يصرخ مستغيثاً من دون تردد. لا أدري متى استبدلنا نموذجاً كامل العيوب، تام النواقص كنموذج شريف السخيف، بنموذج أبي الكريم صاحب النخوة والشهامة! ولا أدري كيف النجاة من مجتمع يستنكر مودة زوج لزوجته أكثر مما يستنكر تعنيفه لها!

* * *

ساعدت قطز على الانتقال إلى مسكنه الجديد منذ ثلاثة

أشهر. لم يرتح هو و«حياته» للمكوث في شقة قُتل فيها
زعفران الذي أرسله عاطف الزفت ليقتل آسيا وطاهر.

شقتة الجديدة تبعد عن القديمة بشارعين، وتقع في
الطابق الثالث حتى يصعب التسلل إليها، ولكنها في
عمارة أعطال مصعدها أكثر من أعطال سيارتي النوبيرا
المسكينة.

فتح لي بابه وأشار إليّ بالدخول، لأنه منشغل بمكالمة
هاتفية يقول فيها:

- أنا مش مستهتر يا بابا. ما كل اللي كانوا معايا في موقع
الجريمة هيتعزلوا يومين برضو... إيه دخل التدخين؟!
هو أنا كنت بخمس في سيجارة مع الجثة؟!

اتجهت للجلوس على المقعد المريح المقابل للنافذة،
وقطر يغلق الباب ويمر من جوارى بينما يشتد توبيخ عمو
أنور له، حتى إنني سمعت صياحه عبر الهاتف:

- إنت هتستظرف يا بيه! يعني ما قلعتش كامامتك وخاطرت
بصحتك وصحة مراتك الحامل عشان نفسين دخان
يا مدمن!

عجزت عن كتم ضحكتي، هذا الرجل يحفظ سلوكياتنا
أكثر مما ينبغي.

ألقى قطز بنفسه على المقعد المجاور لمكتبته التي
اختلست نصف مساحة صالة شقته الضيقة، ثم قال:

- الموبايل هيفصل يا بابا... معلش. خلي بالك من نفسك
إنت وماما، وأنا هشحن وهتصل بحضرتك عشان تكمل
تهزيء على راحتك. هبطل سجاير، حاضر. سلام.

أنهى المكالمة بعد أن صدق أبوه كذبة نفاذ شحنه، وقبل
أن يعلق على مكالمة أبيه، رن هاتفه، فتفقد اسم المتصل،
ثم زفر بثقل وصاح:

- الله يحرقك يا أخي!

خمنت أن المتصل صلاح، وتأكدت حين ناولني هاتفه
قائلاً:

- رد على صلاح، عشان أنا على آخري.

تلقيت المكالمة بينما ينهض قطز إلى ماكينة الإسبريسو
في الزاوية الضيقة بين المكتبة وباب الشرفة.

- باشا مصر.

- الله! عم عيالي، إنت عند نسكويك ولا إيه؟

- آه، عاملين عزل صحي على الضيق. القعدة نقصاك والله.

قلتها على سبيل المزاح، ولكن صلاح قال بغطرسة:

- عارف يا حبيب أخوك. بص من الشباك كده.

للحظة شعرت بأن صلاح سفاح متلصص في فيلم رعب وأنا الضحية التي يراقبها.

نهضت عن المقعد، وجذبت الستائر، فسألني قطز:

- إيه؟

رأيت سيارة الشرطة عند الرصيف المقابل للبناية، ونصف صلاح العلوي متدلياً من نافذتها، يلوح نحوي مرتدياً الزي الميري الأبيض الذي يجعله يشبه البطريق، ولكنه على الأقل أعفانا من لمعة قمصانه الفاقعة. يجاوره فادي في الزي نفسه، والذي يبدو فيه كالضباط مفتولي العضلات مفرودي القامة في مسلسل الاختيار، يرتدي نظارة شمسية، وينفث بخار سيجارته الإلكترونية.

أجبت سؤال قطز المقترّب مني ليناولني فنجان إسبريسو:

- صلاح تحت.

- تحت فين؟

وقف يرى المشهد الذي أراه، بينما يصيح صلاح بعنف حتى أسمعه من النافذة لا من الهاتف.

- افتح الـ«إزيكر» يا نحنوحة.

تأذت أذناي من صياحه الأقرب إلى النباح، وسمعت فادي
ذا اللثغة الواضحة التي تحول الرء غيناً، يصحح لصلاح
نطقه بينما أدعس زر مكبر الصوت:

- سبيكر.

- شكر الله سعيكم يا دودي.

سأله قطز بخليط من الاندهاش والارتباب والفضول:

- إنت جبت عنواني الجديد منين يا صلاح؟

- عيب عليك يا نسكويك، هو أنا «فووت بروجر»؟

عدل عليه فادي مجدداً:

- فوود بلوجر.

- ما خلاص يا إنترناشونال سيب الكبار يتكلموا!

أمسك فادي عن الكلام كما سيفعل أي شخص إذا أمره
صلاح بهذا الصوت الأجش.

سأله قطز بنبرة متهكمة:

- إيه سبب الزيارة السعيدة دي؟ لقيتوا عزة؟

- جاري البحث عنها يا خويا. أنا قلت أصبّح عليكم
وأسييلكم هدية تقوي عضمكم. افتحوا الباب.

اتجه قطز إلى باب شقته مستغربًا، فاستدرت بفضول لأرى
ما الذي تركه صلاح لنا.

وجدنا عند عتبة الباب حقيبة بلاستيكية سوداء عقمها قطز
بالكحول قبل أن يحملها إلى الداخل. فتحناها فوجدنا
في داخلها حقيبة أخرى، وبعد الكثير من الفك والتمزيق
والتشويق والترقب، وجدنا علبة سمن من الصفيح،
فسألت صلاح:

- إنت لافف علبة السمينة كده ليه؟! هي ممسوكة آداب!

- يا جدع افتحها!

فتحناها، ففاحت رائحة حمضية حريفة شهية من سائل
لونه ولزوجته قريان إلى الملوخية تطفو على وجهه شرائح
من الليمون، ولكنني حين لمست الصفيحة أدركت أن
محتواها بارد.

سأله قطز:

- إيه ده؟

- يا وكستك وعاملي فيها مثقف! ده شلولو.

- عارف الشلولو على فكرة، بس عمري ما أكلته.

- أديني هطفح هولك يا خويا. كُل وادعي لشكرية.

أضحكتني تعبيرات الغيظ المرتسمة على وجه قطز، ثم
تدخلت قائلاً:

- تسلم أيديها يا صلاح، بس إسمعني شلولو يعني؟

- الله! إنت ما سمعتش كلام دكتور مجدي نزيه على
التيك توك؟ الشلولو ده فيه الشفا كله، لو داومنا عليه
كل يوم الكورونا هتطلع معاش مبكر.

* * *

غمست الخبز بالشلولو فأدركت أنه النسخة غير المطهورة
من الملوخية، يهيمن عليه طعم الليمون والثوم والفلفل
الحار.

لم أسمع عن الشلولو قطُّ، ولكن قطز لم يتقاعس عن
سرد تاريخه لي كأكلة مصرية أصيلة تبلغ من العمر خمسة
آلاف سنة، أحبها القدماء المصريون، وأكلت منها العائلة
المقدسة، فعاشت كأكلة شعبية حتى اليوم، خصوصاً في
الصعيد.

لم آكل أكثر من نصف رغيف، فالملوخية الساخنة ألد،
ولكن يبدو أن قطز الذي صار يأكل الأخضر واليابس لا
يتفق معي، فهذا هو ذا ينهي رغيفه الخامس قبل أن تنتقل
إلى دراسة تقارير الطب الشرعي التي وصلت إلينا.

غسل يديه، ثم وضع على طاولة الطعام نسختين مطبوعتين من التقارير الرقمية التي أرسلتها سيليا إلينا.

رتبها من الأهم إلى الأقل أهمية، واستخدم أقلام التظليل ليحدد المعلومات اللافتة للنظر، ثم وضع أوراقاً فارغة ليكتب كلُّ منا ملاحظاته عليها، ثم نقارنها معاً، فذكرتني هذه الجلسة بأجواء الدراسة، حين كان يدرس لي هو وأمه طنط نجوى.

أول ما وقعت عليه عيناى كان سطرًا ظلله بالأصفر، ووضع سهمًا إلى يمينه، والذي أفاد بغياب بصمات دليلة عن سلاح الجريمة، وعن الطبق الذي وُجد فيه الرأس المقطوع، وعن المطبخ، وعن شقة الطابق الأرضي، وحديقته.

خرجت دليلة رسميًا من دائرة الاشتباه، فتبخر القلق الذي يخنقني منذ أمس.

قرأت باقي التقرير. البصمات المدماة على سلاح الجريمة، أي التي على مقبض الفأس، بصمات قوسية بعكس البصمتين اللتين رفعناهما عن باب شرفة شقة الطابق الأرضي. هذه البصمات القوسية المميزة نمطها يتطابق مع بصمات أمل، وهذا أمر بديهي، ولكن كان من غير البديهي غيابها تمامًا عن الطابق الأرضي وعن الحديقة وحتى بوابتها. وهذا يدعم نظرية قطز وسيليا حول أنها لم تطأ

موقع الجريمة من الأساس، ويعزز شكّي في عزة، وها هو
ذا الدليل الدامغ ضدها: البصمة المملطخة بدم القتل على
باب الشرفة الزجاجي المواجهة للحديقة تطابقت مع بصمة
لعزة رفعناها عن كوب ماء مجاور لكومود سريرها.

تكرر هذه البصمة في شقة الطابق الأرضي، وفي شقة
أمل، وفي كل مكان تقريباً عدا سلاح الجريمة.

آخر بصمة معروف صاحبها هي بصمة راضي حارس
العقار، وُجدت على بوابة الحديقة وطاولتها الرخامية،
ولكن من دون أي ظهور لها داخل الشقة التي ذُبح فيها
فوزي، مما يتماشى مع حقيقة أنه نظف الحديقة قبيل
العيد.

تبقى أمامنا بصمة رابعة، وهي البصمة المجهولة الوحيدة
في التقرير، تكررت في شقة الطابق الأرضي ومحيطها
وصولاً إلى الجانب الداخلي للباب الزجاجي للشرفة،
والتي أرجو أن تكون بصمة فوزي.

أخبرني قطز وهو يعد ثاني فنجان إسبريسو:

- أنا نسقت مع سيليا عشان نقارن البصمة المجهولة
بالبصمات اللي عندنا في الصحف الجنائية، يمكن
نلاقي للقتيل أثر يدلنا عليه. أنا مش فاهم إمتى هيبقى

عندنا بنك جنائي للبصمات والـDNA، بدل ما إحنا
طالع عين أبونا في الاستعراف كده!

لم أشارك قطز تجربتي مع روح القتيل المحب لأغاني
حكيم، تخطيت تعليقه، وتبادلنا الملاحظات حول
البصمات، ثم انتقلنا إلى تقرير انطباع آثار الأقدام على
الرمل الذي يؤكد كل ما قالته لنا سيليا، ويثبت نظريتها
حول وجود ثلاثة أشخاص في شقة الطابق الأرضي.

تركت الملفات، ورحت أدعك عيني، بينما يشعل قطز
سيجارة، مخالفًا الوعد الذي قطعه على نفسه أمام أبيه
بالإقلاع عن التدخين.

أخذت نفسًا عميقًا كأنني أتنهد من فرط الإجهاد، بينما
كنت في الواقع أسترّق الدخان الذي ينفثه صديقي، ثم
قلت وأنا أحك ذقني:

- فيه حاجة مش راكبة! تقرير آثار الأقدام بيقول إن كان
فيه تلات أشخاص في شقة الأرضي، وتقرير البصمات
بيقول إن ما كانش فيها غير فردين.

- تقصد إن فيه انطباع قدم زيادة؟

- أقصد إن فيه بصمة ناقصة!

* * *

في الصباح التالي، تصادف وجودنا في صالة انتظار نتائج التحاليل المعملية مع وجود سيليا، التي اقتربت منا في اللحظة التي سجد فيها قطز على البلاط حامداً ربه على أن نتيجة التحليل الثاني أتت سلبية. نجونا رسمياً من عدوى الكورونا.

- طمنينا؟

أجابتني شامخة الرأس:

- نتائج تحاليل فريق البحث الجنائي كلها سلبية.

يحق لها أن تفخر، فالإجراءات الاحترازية التي تململ الجميع من الالتزام بها هي التي نجتنا من التهلكة.

سرنا متباعدي الخطي، وتركناها تقود الطريق وصولاً إلى الطريقة التي تضم المصاعد وأبواب الطوارئ والسلالم. فضلنا السلم لأن تهويته أفضل واستخدام المرضى له أقل، فنزلنا وصدى صوت سيليا يتردد:

- بدأت شغل في تحاليل الـDNA. لقيت في أستيك الساعة اللي إنت لقيتها على الشجرة، شعرة حمراء. من حسن حظنا إن لها جذر، وده وصلني لنتيجتين هما إن...

أسرع قطز يكمل جملتها نيابة عنها كتلميذ نجيب:

- إن دي شعرة ناتجة عن مقاومة، وإننا نقدر نطلع منها
الـDNA.

على عكس حسني، لم تستحسن سيليا مقاطعة قطز لها،
فتنحنحت كأنها تصفي حلقها، وقد فهمت من التعامل
معها في مسرح الجريمة أن هذه حركة لاإرادية تقوم بها
عوضًا عن أن تطلب منا صراحة أن نخرس.
هزت رأسها بهدوء، وأضافت:

- الـDNA اللي طلعت منها متطابق مع DNA عزة اللي
لقيناه في فرشاة شعرها.

خرجنا من المعمل، ووقفنا عند الرصيف، لهث قطز بعنف،
النزول من طابقين فحسب أجهده! يجب أن أنصحه بالعودة
إلى التمرن، وبالتوقف عن الأكل والتدخين بهذه الشراهة.
اللعنة على حبسة الكورونا التي ستدمر صحة صديقي!
أخرجت سيليا كيسًا أحمر صغيرًا مرسومًا عليه أوراق
نعناع خضراء من جيبها، ومدته نحونا قائلة:

- سكوتش منت؟

شكرناها، فأخذت حبة نعناع بيضاء رائحتها نفاذة، وألقتهما
في فمها سريعًا من تحت الكمامة، بينما يستعيد قطز أنفاسه
ويسألها:

- مفيش جديد عن البصمة المجهولة؟

- النتيجة لسه وصلاني. ممكن نبص عليها سوا.

مدت يدها في حقيبتها القماشية العملاقة، وبدأت تبحث عن شيء ما، على الأغلب هاتفها.

- البصمات تطابقت مع واحد له معلومات جنائية، اتسجن سبع سنين، ولسه خارج من شهرين. صعب أتأكد إنه القاتل، ومش هقدر أعتمد على مقارنة صورته في ملفه الجنائي بشكل الجثة، لأن عضم وشه اتكسر، وآثار الذبح شوهدت ملامحه وخليتها غير صالحة للاستعراف. اعتمادى كله هيكون على الـDNA المحفوظ في بياناته بمصلحة السجون.

وجدت هاتفها أخيراً كأنه كان ملقى في بئر لا قرار لها، وراحت تقلب فيه وصولاً إلى صورة القاتل في سجله الجنائي لترينا إياها.

ستحتاج سيليا إلى ما لا يقل عن ثلاثة أيام لتجري اختبارات الحمض النووي للتأكد من أن صاحب هذا الملف الجنائي هو القاتل، ولكنني لست في حاجة إلى انتظار النتيجة، هذه صورة الروح التي رقصت أمامي على أغاني حكيم صباح الأمس.

كنت على وشك أن أسألها عن نوع الجريمة التي سُجن فوزي على إثرها سبع سنوات، ولكنها تحولت في لحظة من الدكتوراة سيليا طرابلسي ذات التعبيرات المتزمّنة والنبرة المحتدة، إلى امرأة ذات وجه مرتاح وصوت بهيج بمجرد أن سمعت بوق سيارة يضرب بإيقاع مميز، فقالت قبل حتى أن تلتفت لرؤية سائقها:

- وليد!

شبت على أطراف أصابعها ملوحة إليه، فأشار لها هو الآخر، ونزل من سيارته المجانية للرصيف المقابل للمعمل.

هرعت نحو زوجها الذي فتح ذراعيه لها، وعانقها عناقاً طويلاً كأنها عادت من هجرة، لا بد أن القلق سحقه كما سحقنا جميعاً خلال الليلتين الماضيتين.

قبّل جبينها، فمصمست سيدة خمسينية عابرة شفيتها بدافع الاستنكار أو الغيرة أو كليهما، حتى انفض اشتباكهما اللطيف.

وضع وليد ذراعه على كتف زوجته التي بالكاد يصل رأسها إلى صدره، ثم اقترب منا بابتسامة لم ترتسم على وجهه إلا بعد أن تزوج سيليا.

- إيه يا باشوات؟ كله تحت السيطرة؟

تبادلنا التحية والسؤال عن الحال والشكوى من ارتفاع أعداد المصابين بالكورونا، حتى سألنا مماًزحاً:

- شكرتوا الدكتور اللي أنقذتكم من الكورونا؟

ضحكت سيليا في خجل، ويبدو أنها قررت أن ترد الشاء لزوجها، لأنها قالت:

- وما تنسوش تشكروا وليد كمان عشان البودكاست بتاعته هي اللي عرفتكم إن عزة بتكذب عليكم.

قال وليد بنبرة حاول أن يغلفها بالمزاح، ولكنه فشل في أن يخفي بها ضيقه:

- يشكروني إزاي وهم مش بيتفرجوا على البودكاست أصلاً؟ دول صحاب أي كلام.

قلت له:

- على فكرة اتفرجنا على حلقة أمل فهمي إمبارح.

- بحق وحقيقي؟

- بحق وحقيقي.

- طب وإيه رأيك؟

أجابه قطز:

- حلوة جدًا يا وليد، وبعدين أنا بصيت على الكومنتس،
الناس عاجبهم المحتوى بتاعك وعدد الفيوز يشهدلك.
- لا يشهد ولا حاجة، الحلقة بقت فايرل بس عشان خبر
الجريمة.

- مصائب قوم عند قوم فوائد.

قالت سيليا وهي تربت على بطن وليد بحماسة:

- قولهم نظريتك.

سأله بفضول:

- نظرية إيه؟

- ما تتحمسش أوي، هي ممكن تبقى نظرية ميديوكر وأنا
معنديش عليها دليل جنائي بس...

- أغلب نظرياتك بتضطبط يا وليد، فانجزنا من غير مقدمات.

- أنا مش مقتنع بإن مجرم دخل شقة أخو أمل، دبح واحد
وبعدها طلع شقة أمل حط راسه في تلاجتها.

- بمعنى؟

- بمعنى إن بصمات أمل على الفاس، ونمط شبشبها في

موقع الجريمة، ودم القتل على هدومها وعلى أيديها.
سايين كل ده وقافشين في عزة عشان كدبت كدبة عبيطة
زي إنها بنت أمل مش ممرضتها؟

- خليني معاك. لو أمل القاتلة، ليه تسيب الجثة في حته
والراس في حته؟

- تسمعوا عن حبكة الرنجة الحمراء؟
أجابه قطز بثقة مثقفي وسط البلد:

- نسمع طبعًا.

اعترضت قائلاً:

- أنا ما سمعتش.

تفضل قطز بشرح المصطلح لي:

- دي خدعة بيستخدمها كُتّاب الجريمة. يخلوك تركز مع
دليل أو مشتبه فيه، ويدوك تفاصيل كتير عنه، ويدسولك
كام تفصييلة ثانوية عن القاتل الحقيقي عشان يأخروا
اكتشافك لحل اللغز. حاجة كده زي بُص العصفورة.

هز وليد رأسه متفقاً مع شرح قطز، وأضاف:

- أنا شايف إن ده اللي أمل عملته. مش سهل إنك تتخلص
من جثة خصوصاً لو قتلتها في حي حيوي وحواليك

جولات أمنية مستمرة، بس سهل تعمل نفسك مجنون،
وتخلي مسرح الجريمة فوضوي، والأدلة الجنائية اللي
فيه مش متسقة مع بعضها.

تدبرت ما طرحه، هذا يصلح ليكون حبكة سيناريو فيلم
أمريكي لا وقائع جريمة حقيقية ارتكبت في مجتمع
انفعالي لا يملك ذكاء إجرامياً فذاً، ولله الحمد، وأغلبية
جرائمه بدوافع عاطفية وليدة اللحظة ينقصها التخطيط
المثالي الذي نراه في المسلسلات والأفلام الغربية.

شاركت وليد وجهة نظري:

- كلامك كان هيبقى منطقي يا وليد لو اللي بتتكلم عنها
دي سفاحة محترفة مش ست سبعينية عندها زهايمر.

- ما دي الرنجة الحمراء في حبكة أمل يا نوح. إنتو
مخرجينها من دائرة الاشتباه عشان مريضة زهايمر.
مممكن أعرف إيه دليلكم على إنها مريضة بحق وحقيقي؟
شفتوا بعينكم أي تشخيص رسمي؟

- هتكون بتشتغلنا يعني؟

- وليه لأ؟ شفت فيلم Primal Fear؟ بطل مستضعف انتقم
من اللي ظلمه، وعمل إن عنده انفصام في الشخصية
عشان يفلت من حبل المشنقة، وحبك الدور لدرجة

إن المحامي بتاعه والدكاترة النفسيين صدقوه، وفعلاً
ما تسجنش. غول تمثيل زي أمل فهمي مش هتعرف
تحبك عليكم دور إن عندها زهايمر؟

- البطل بتاعك ده عمل فيها مريض بعد ما نفذ جريمته
على طول. لكن إنت بنفسك قلت في البودكاست إن
خرف أمل بدأ من سبع سنين لحد ما وصل للزهايمر.

- ما دي البلوت تويست! أخو أمل أعلن للصحافة إنها
اتشخصت بالزهايمر من سبع سنين. حلو؟

- حلو.

- ميريت بنت أمل ماتت من كام سنة؟

- سبع سنين.

- والملف الجنائي بتاع القتل بيقول إنه اتسجن كام سنة؟

- تقريباً سبع سنين.

- أكيد تكرار تفصيلا السبع سنين دي مش صدفة يا نوح!

فتح قطز، اسم الله عليه، الكوب الحراري الذي ملأته «حياته»
بالكاكاو الدافئ، وأعطته كيس مارشميلو، حتى يفرغه فوقه،
بينما أفتح الملف الجنائي الخاص بفوزي رفعت زهر.

قبل أن أبدأ قراءة الملف كان قطز قد أنهى مشروبه وأخرج
من درج مكتبه تودو براونيز، ثم أرسل عم حمدي الفرّاش
ليشتري له بعض ساندويتشات الفول والطعمية من عربة
«ليفربول»، لأنه التهم الساندويتشات التي أعدتها آسيا له
في الساعة الأولى من ورديتنا.

- كفاية يا قطز، وزارة التموين اشتكت!

أصدر صوتًا ساخرًا وهو ينظف مكتبه من فتات الطعام
من دون تعليق، فأضفت:

- هو ده اللي بيقولوا عنه على تويتر أكل عاطفي؟

- نوح، أنا على آخري.

- من حبسة البيت؟

- من أجواء الحب في زمن الكوليرا اللي عايشين فيها دي!
كل شوية أقرأ عن حوامل ماتوا هما واللي في بطنهم
بالكورونا، أعداد المصابين والمتوفين بتزيد ومفيش
حاجة في أيدي أحمي مراتي بها. فوالنبي تسيبني أعض
في الأكل بدل ما أعض فيكم.

كنت سأؤازره، وأفكر معه في طريقة صحية يتخفف بها من
قلقه المحموم، ولكن صلاح ركل بابنا واقتحم مساحتنا
بهمجيته المعهودة وهو يحمل عدة أكياس كالتى وجدنا
فيها الشلولو على باب شقة قطز.

سار حتى المساحة بين مكتبيننا وهو يغني بصوت بشع:

- حمد الله عالسلامة، هلا يا هلا. اشتقنا ليكم ياما، هلا
يا هلا. شُفتوا شلولو شكرية اشتغل إزاي؟

قال قطز بينما يرطب شفتيه بلسانه وينظر إلى الكيس الذي
يحملة صلاح ويحك عنقه كالمدمنين:

- جبتلنا منه تاني؟

- لآ، ده للوا رشوان، بس والله مش خسارة فيك
يا نسكويك. خد.

أعطاه كيسًا فتحه قطز بلهفة، وأخرج علبة الشلولو وطبقًا به
قرون فلفل حار مقلي، وكيس خبز بلدي وليمونة مشقوقة
شقًا غير مكتمل أجبر نصفها على البقاء معًا.

أتم شق الليمونة، ثم انتشل رغيفًا من الكيس، والتهم
الطعام كأنه آخر زاده.

وقف صلاح يراقبه وهو يأكل بنهم، ثم سأله بابتسامة
ارتبت فيها:

- عجبك يا نسكويك؟

- يخرب بيت حلاوته.

- ألف هنا يا قلب أخوك، الحساب ميت جنيته.

وقفت اللقمة في حلق أخي الغلبان، وسعل بعنف جعل
عينيه تدمعان، فضربه صلاح على ظهره بغشومية جعلت
اللقمة تقفز من فمه، وتستقر على السجادة.

ارتشف قطز بعض الماء، ثم قال لصلاح:

- إنت واخذني زبون يا صلاح؟

- كلنا زباين يا نسكويك، الدولار بقى بستاشر، ومدارس
العيال غليت. خف تعوم.

- مال الدولار ومال مدرسة حمادة وميادة الكحيانة اللي

مدخل عيالك فيها. هتحاسبني على لقمة ملوخية ناشفة
وانت كل يوم ناهب ساندويتشات النوتيل والروز بيف
بتاعتي يا معفن!

- ولا تفرق معايا البوليك اللي إنت عاملها دي. برضو
حسابك ميت جنيه.

راحا يتبادلان الاتهامات والسباب، حتى طفح كيلى من
ضجيجهما، وأخرجت من جيبي ورقة من فئة المائة جنيه
قائلًا:

- خد يا صلاح، حسابه عندي.

انتشل مني المال بشهوة مرعبة، بينما يصيح قطز معترضًا:

- حسابه إيه يا نوح، إنت هتجاره في النصب ده!

- نصب؟! أقولك إيه، ما هو ما يتحنجلش على الطبلية
إلا الصحن العوج.

التفت صلاح نحوي وهو يدس المال في جيب قميصه،
ثم سألني:

- مش عايز شلولو يا عم عيالي؟

- عندي حموضة.

- ألف سلامة. يووووه، شُفت بقى زيطه صاحبك كانت

هتسيني إيه؟ أنا أصلاً جاي عشان أقولكم إني لقيت
البت اللي بتدوروا عليها دي.

- لقيت عزة؟

هز رأسه بفخر كأنه وجد جثة سيد نفيسة، فوددت لو أمطره
بسيل من السباب الممنوع من الرقابة، لأنه أضاع وقتي في
الحديث عن مشروع الشلولو بدلاً من مشاركتي معلومة
بهذه الأهمية، ولكن موانعي الأخلاقية الجديدة حرمتني
من الانسياق وراء حماة غضبي، واكتفيت بقول:

- هتقولي لقيتها فين ولّا لسه فيه فاصل إعلاني؟

- في الحميات، محطوطة على جهاز تنفس عشان عندها
كورونا، سبت عسكري على أوضتها وجيتلكم.

- بس كده؟

- اللهم صلي عليك يا نبي. أيوه، افكرت. لقيت كمان
الموتوسيكل اللي بتدوروا عليه، مركون في الزمالك
تحت كوبري ٢٦ يوليو. مصطفى راجع كاميرا محل
الميه اللي قدامه...

قاطعہ قطز بنبرہ استفهامیہ بحتہ:

- محل الميه؟

والآن سيجلب على نفسه تنمر صلاح، لأنه محترم،

ولا يعرف أن «محل الميه» كناية شعبية عن محلات الكحوليات.

- يا اختي بيضا، ما تعرفيش محلات الميه؟
قلت لصلاح قبل أن يجر صديقي المضغوط إلى شجار آخر:

- انجز يا صلاح، لقيت حاجة في الكاميرا؟
- الجدع اللي راكبه نزل من عليه، وركب ميكروباص، وفص ملح وداب.

- وشه باين في الكاميرا؟
- كان لابس كاب وكمامة ونضارة شمس.

- الكلام ده إمتى؟

- أنا اكتشفت مكان الموتوسيكل ي...

- قصدي الكاميرا وضحت هو ركن الموتوسيكل إمتى؟

- نفس يوم الجريمة على الساعة ستة وربع الصبح. نحرز الموتوسيكل؟

- ده لو معندكش مانع.

- ماشي، تلزمك أي حاجة عشان الواد دودي مستنيني تحت؟

قالها وهو يحك شاربه الكث وينظر نحو الشرفة، فارتبت
في أمره. شبكت أصابعي واستندت بمرفقي إلى المكتب
واستجوبته بهدوء:

- عندك حاجة ثانية تقولها لي؟

عدل توكة حزامه، وتظاهر بالسعال، ثم قال:

- لا يا قلب أخوك.

- متأكد؟

- مية المية. لو جد جديد هديك ألو. سلامات.

غادر المكتب مسرعًا، وكلّي ثقة بأنه ارتكب مصيبة ما،
ويخفيها عني.

ترك بابنا مفتوحًا، خير ما فعل، فرائحة جل شعره وعطره
عبأت الغرفة، واختلطت مع رائحة ثوم الشلولو.

نهضت عن مقعدي ألملم أشياءي عن المكتب، بينما ماكينة
الأكل الجالسة قبالي لم تتوقف عن المضغ.

- مش يلا نروح لعزة؟

- ورحمة أبوك استنى أخلص أكل.

عصر نصف ليمونة على الطبق فكدت أخبره بأنني سأرحل
من دونه، ولكنني انتبهت إلى أن الليمونة بدأت تذبل

وتتعفن بما يخالف الطبيعة، ويخالف رغبتني في الإقلاع
عن جذب أرواح الموتى.

ها هو ذا قلبي يخفق، وأنفاسي تثقل، والقشعريرة تهيمن
على بدني، ترافقها رجفة مقبئة. تجربة رؤيتي لروح فوزي
تعيد نفسها لأنني أراه الآن في الممر، يتخطى العسكري
الواقف عند بابنا، ثم يدخل الغرفة، ويستقر عند مكتب
قطز حيث الليمونة التي جذبتة رائحتها.

اللعنة عليك يا قطز، أنت، والشلولو، وصلاح، وشكرية!
لا أملك بخورًا في المكتب حتى أتحصن من فوزي.
نظر إلى اللوحة المكتبية المنقوش عليها رتبة قطز واسمه
فقال:

- فخامة الرائد أنا عايز أقدم بلاغ.

لم يدرك فوزي أن قطز لم يسمعه، ولم يدرك قطز وجود
فوزي من الأساس، ولكنه حذق إلى النصف المتعفن من
الليمونة، ثم نظر إليّ مستفهمًا فهو يدري مثلي أن هذه
علامة ظهور روح ميت.

زفرت مستسلمًا للواقع السخيف وأنا أومئ إليه في صمت
بما يؤكد تخمينه غير المنطوق.

عاودت الجلوس، وأخرجت من جيبني علبة سماعتني
اللاسلكيتين السوداوين، وضعتهما في أذني بينما أقول:

- السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

التفت فوزي نحوي قائلاً:

- وعليكم ال... الله! الفخيم اللي بيسمع حكيم؟

تلفت قطز حوله، أیظن الأحمق أنه إذا تلفت كثيراً سيرى ما أراه؟!!

- طب مش كنت تقول يا فخامة إنك حكومة؟ ده من ساعة ما التقيتك وأنا بيرم في القسم عايز أقدم بلاغ، بس الكل هنا قاطعلي ودانه، وشكوتي لا واصله، ولا لاقية مواصلة.

أشرت إلى قطز بالخروج، لا أتواصل مع روح في وجود إنسان آخر.

احترم رغبتني، ولكنه أخذ وقتاً أطول من اللازم في الخروج، لأنه انشغل بحمل طبق الشلولو اللعين وكيس الخبز وقرون الفلفل، فهمست إليه بسخط من تحت ضرسي:

- انجز أهلي!

اعتذر، ثم خرج أخيراً، وأغلق الباب وراءه، وتركني مع روح الميت التي تود أن تقدم بلاغاً للشرطة.

- عايز تقدم بلاغ ضد مين؟

- ضد عزة عادل عبد الله الدسوقي، بنت ال...-
- اظبط لسانك، إنت في القسم!
- لا مؤاخذه يا فخامة، بس يرضيك إنها تشيلني في وشي؟
- شيلتك في وشك إزاي؟
- نزلت عليّ بالخوذة زي القادوم، كسرتلي عظمي،
وحكمدار عمارتكم يشهد.
- حكمدار عمارتنا؟
- عم راضي.
- راضي! إذن لم تكن بصماته في الحديقة لأنه كان ينظفها
فحسب.
- مهلاً، ألم يسألني علي في نومه إن كانت أمه عادت من
تجفيف الشقة لأن راضي البواب أخبرها بذلك؟ إذن،
لم يكن مجرد هذيان طفل نائم يتمتم عن توم وجيري.
- لم يتوقف فوزي عن الشكوى، أضاف:
- أنا قطعت بسببها ميه ونور، ولما فوقت لقيتها قلبتني،
محفظتي وورقي ومفاتيح مكنة الشغل، وحتى المكنة
نفسها. قشطتني بنت الناس اللي مش ولا بد!
- وإن عملت إيه عشان تعمل فيك كل ده؟

- بقولك كانت هتموتني لولا ستر الستار تقولي وإنت عملتلها إيه! هي الحكومة ما بتقفش غير مع الحريم؟

لم يعجبني كلامه، لا أرتاح لمدعي المظلومية، ولا يبدو لي فوزي شخصاً مغلوباً على أمره. صحيح أنني لا أعرف أي جرم ارتكبه ليسجن سبع سنوات، ولكن ها هو ذا يرتكب جريمة أخرى بعد خروجه من السجن بشهرين، ويقتحم شقة المهندس محمد.

حدقت إليه من دون تعليق. الصمت هو استراتيجيتي المفضلة لإجبار من أستجوبهم على الظهور على حقيقتهم، ولم يحتج الأمر إلى أكثر من ثلاثين ثانية حتى أظهر لي فوزي وجهه الآخر وهو يقول كبلطجي خطر:

- يعني الحكومة مش هتجيلي حق دمي اللي ساح؟
أتصرف أنا بدراعي يا شبح؟

- اتصرف بدراعيك عشان أكلبك يا شبح.

قلتها بهدوء، وأنا أدفع صوبه ملفه الجنائي، فألقى نظرة خاطفة عليه، وبدأ يحك قفاه كأنه يسترجع ذكرى حسية. ابتلع حمأة سخطه، وبدأ يبرر موقفه:

- أنا قضيت مدتي كاملة وماشي عالظبط، والحكومة راضية عني. شطبنا النوش خلاص.

- ما إنت اللي رايح تاني للنوش برجليك أهو! شغال ليه
في غيبوبة من غير ورق؟

- ده الفخامة عاملي متابعة بقى!

صمت مجددًا، لن أتجاوب إلا مع إجاباته المباشرة عن
أسئلتى، فهو لا يعرف بعد أنه روح ميت لا سلطان لي عليه.
دعك وجهه بكفيه بعنف كأنه يغسله، ثم قال وهو يشذب
شاربه ولحيته:

- المطعم مش بيسجل سوابق، فواحد زُمل ابنه شغلني
هناك معاه بالحب. بس أنا أصلًا نجار. ما أنا قلتلك. أنا
كان عندي ورشة، لكن السجن خلنى شريكى يطمع فيّ،
الله يحرق أمه. بس أديني بعافر بالحلال أهو وهفتح
ورشة ثانية. ده غير إني أملك دور كامل في بيت أهلي،
تلت أدوار من بابهم. وخطبت واحدة بنت حلال أخوها
كان زميلي في التخشبية، ولما الرزاق يفك الضيقة هطلع
بدور رابع وأكتبه باسم ابني عشان يتجوز فيه لما يكبر
ويبقى شبح زي أبوه.

- نطيت من سور الجنينة ليه بقى؟

- أنا مش نطا ط حيط! راضي هو اللي فتحلي البوابة.

راضي الوغد الخبيث اللعين!

- بس إنت اللي طلعت على كومة الرمل ودخلت الشقة
بالعافية، فلو هتمشيها ميري، عزة كانت بتدافع عن
نفسها ومش هتبات ليلة في الحجز، إنت اللي هتلبس
قضية جديدة. فانجز وهات اللي في عبك وقولي
ضربتك ليه.

زفر بضيق، وحك النقطة التي يلتقي فيها حاجباه، ثم
شاربه، ثم لحيته، ثم حك شعر صدره، وأخيرًا اعترف:
- عشان مش عايزة تديني علي.

- علي ابنها؟

- ابنها بتاع إيه! ده لحمي أنا، وهي اللي فرقت بينا
بعمائلها الوسخة. أنا اتكلبشت سبع سنين ظلم بسببها
هي وأورطة النسوان اللي سخنوا الدنيا في النت وقفشوا
في رقبتني زي الشنابر. قلت يا روح ما بعدك روح يا عزة،
يا تديني ابني، يا تديني روحك.

- وثبتها بإيه وإنت بتهددها بالقتل يا دكر؟

- وربنا ما ثبتها بأيوتها حاجة، أنا جايلك عالظبط. إنت
ليه مش مصدق إنها حرمة سحرانة؟!

- عايز تفهمني إنك قتلها هاتي العيال...

- ما قلتش عيال، هو علي وبس.

- إسمعني؟ بنتك ما تلزمكش؟

- بنتي؟!!

ما أغباني! بالطبع عليا ليست ابنته، ف عمرها ثلاث سنوات
بينما فوزي حُبس سبع سنوات. يبدو أن عزة تطلقت من
فوزي الذي أنجبت منه علي، ثم تزوجت شهيد حريق
محطة رمسيس، وأنجبت منه عليا.

- إنت عايز تاخد علي بالغصب ليه؟ مش الأحسن الأمور
تتحل بالاتفاق، والولد يتربى بين أمه وأبوه بدل ما...

- أديك نطقته يا فخامة، بين أمه وأبوه. إيش حشر عزة
وسطنا بقي؟

قاومت ألا تظهر على ملامحي تعبيرات عدم فهم، وانتقيت
سؤالي بدقة حتى لا أبدو أحمق فأفقد هييتي:

- قولي إنت إيه اللي حشرها وسطكم؟

- أختها يا باشا. كل ما أنا ورحاب نتشاكل عزة تتدخل
ما بينا. ياما قلت لرحاب ما تدخلش أختك البومة في
حواراتنا، أديها كانت هتموتني عشان عايز آخد ابني
يعيش معايا. وبعدين ما يغركش شغل الممرضات اللي

عملاه عند الأرتيست اللي قاعدة عندها دي. عزة دي
عندها أمراض الدنيا، وكل يوم والتاني في المستشفى.
دي تقدر على تربية فحل ابن فحل زي ابني؟

اتضححت الصورة، عزة هي خالة علي، ولكنها تربيته مع
ابنتها كأنها أمه. لماذا؟ أين رحاب أمه؟

- إيه الجريمة اللي عملتها عشان تتسجن سبع سنين
يا فوزي؟

- ما تقولش جريمة، أنا عملت اللي أي ذكر عنده نخوة
هيعمله لو كان مكاني. أنا أدبت مراتي عشان مشيها
شمال.

- وإيه نوع التأديب اللي يخليك تتحبس سبع سنين؟

- ضربتها. هو أنا أول راجل يضرب مراته يعني عشان
التشريد اللي حصلي ده كله!

- بس عقوبة الضرب ثلاث سنين، بالكثير خمسة. مش
هيتحكم عليك بسبع سنين إلا لو سببتلها عاهة مستديمة.

حك ذقنه الأشعث مجددًا، وأجابني متجنبًا أن تلتقي
أعيننا:

- يا فخامة إنت أكيد متابع وشايف إن نسوان اليومين دول

مفيهمش بركة وإيدك من صحتهم والقبر، مش زي أمي
وأأمك اللي كانوا يترقعوا كل ليلة علقة عنابي ويصحوا
يعملوا الفطار ويشيلوا البيت ويحطوه ...

- عملت إيه في رحاب يا فوزي؟

- سفختها كفين في ساعة شيطان، فماتت!

١٠

فوزي لم يصفع رحاب صفعتين كما زعم، بل طعنها
ثمانى طعنات!

طعنتان في عنقها، وطعنة في صدغها، وأخرى في أذنها،
وأربع طعنات في منطقة منتصف البطن، مخترقاً رحمها
التي كانت تحمل جنيناً عمره ثلاثة أشهر.

أتت الطعنات بعد لكلمات وصفعات متتالية انتهت بارتطام
رأس الضحية بطرف السرير، ثم سحلها على الأرض جثة
هامدة.

قرأت تقرير الطب الشرعي الملحق بملف قضية مقتل
رحاب عادل عبد الله الدسوقي، بعد أن هددت فوزي
بالحبس إذا لمحته قرب القسم، أو قرب العمارة، أو مجرد
التفكير في الاقتراب من علي، فاتهمني البجح قاتل زوجته
بالمحابة للنساء، ثم غادر وهو يحسبن ويشكوني إلى الله.

أثبت التقرير أن الطعنات كانت بمفكين مختلفين؛ أولهما مفك إزميل ألماني انكسر مقبضه في يد فوزي، وعلق طرفه في أذن الضحية، فتركه واستعان بمفك صليبي الطرف استأنف به جريمته الشنعاء.

عجز قطز عن استكمال قراءة القضية، ألقى الملف على المكتب، وظل يحدق أمامه، كأن مشهد مقتل رحاب الدموي يتمثل أمام عينيه بالتفصيل.

لخصت له ما أتى في القضية؛ ارتكز دفاع محامي فوزي، واسمه سمير خفاجة، على أن حادث الضرب - لاحظ كيف وصفه بحادث ضرب وليس جريمة قتل! - وقع لحظة دخول الجاني إلى شقة الزوجية في بيت العائلة بعد أن اتصلت به أمه لتبلغه بوجود رجل غريب مع زوجته، فأتى رد فعله بدافع الاستفزاز من دون نية للقتل العمد.

لم يتدخل أحد لإغاثة رحاب على الرغم من أن الحي كله شهد بسماع صريخها، بل بالأحرى، اعتيادهم سماعه كل بضعة أيام بسبب ضرب فوزي لها. الحي كله مثل جاري شريف السخيف!

شهدت أمه وأشقائه الثلاثة المقيمون معه في بيت العائلة وزوجاتهم برؤية رجل غريب ينزل من شقة فوزي، ووصفوه وصفاً مبهماً ينطبق على ثلاثة أرباع الشعب

المصري. لم يؤكد وجود هذا الرجل الذي أشعل فتيل العنف والثأر للشرف عند الزوج «المخدوع» أي من سكان الحي أو الزبائن على المقهى المقابل للبناية التي سال فيها دم رحاب، لم ينطق بهذه الفرية المشينة غير أهل فوزي وشريكه في ورشة النجارة.

استشهد المحامي أيضًا بأن المجني عليها كثيرًا ما تخرج عن طوع زوجها، وضرب مثالًا على هذا بأنها أنشأت صفحة على فيسبوك، ونشرت عليها فيديوهات تصنع فيها الحللي بغرض الترويج لها وبيعها والتربح منها، وخلق ذمة مالية منفصلة عن زوجها من دون علمه، لأنها تبنت له نية الطلاق، والاستيلاء على شقيقته، وحرمانه من ابنه.

بحثت عن اسم صفحة رحاب للحلي الواردة في التحقيقات، وشغلت بعض مقاطع الفيديو الموجودة عليها، لم يظهر من رحاب سوى يديها وصوتها وهي تشرح شغفها بالحلي، ويا له من صوت مفعم بالأمل وبالحب لما تصنعه، صوت لا يستحق أن تمزق رحم صاحبتة بمفك! استشهد أيضًا بأنها خرجت من دون موافقة بعلها لبيع هذه الحللي في بوتيكات الزمالك، والتي كان من ضمنها بوتيك الممثلة أمل فهمي الذي يعمل فيه أبوها، وأن أمل

روجت لحليها في الوسط الفني، وظهرت بها في دورة من دورات مهرجان القاهرة السينمائي. وللعبة، ألحقت بملف القضية صورة لرحاب مع أمل، ليصف العجوز في الصورة بممثلة الإغراء، التي لا شك في أنها ساهمت في تضليل رحاب عن الطريق المستقيم، وأسقطتها في وحل الرذيلة.

خنزير مثل هذا المحامي يدافع عن ضبع قاتل، ثم يتحدث عن وحل صنعة مخيلته السقيمة من دون دليل ليلطخ سمعة قتيلة!

استوقفني قطز قائلاً:

- يعني شهادة أهله وبيدج على الفيسبوك وصورة لها مع ممثلة خلوا قضيتها تتحول من قتل عمد لقضية قتل بدافع الاستفزاز؟!!

- ما تحولتش لقتل بدافع الاستفزاز، لأن مفيش تلبس للزوجة بالزنى. حوار إنه كان شاكك في سلوكها وإنه شاف راجل غريب في الشقة ده همبكة فارغة ملهاش دليل مادي.

- أومال إيه اللي خلاه يتحبس سبع سنين بدل ما ياخذ إعدام يا نوح، كنا عاملين ديسكاونت يومها؟

التوت شفتاي بابتسامة ساخرة مريرة، ثم أجبته:

- القاضي استخدم المادة سبعتاشر من قانون العقوبات.

استند محامي فوزي إلى تفصيـلة محورية في تقرير الطب الشرعي تفيد بأن سبب وفاة رحاب نزيـف ناتج عن ارتطام مؤخرة رأسها بطرف سريرها، مما مكَّنه من تعديل قيد القضية وتكييفها من قتل عمد إلى ضرب أفضى إلى موت من دون نية القتل، وعليه تتحول عقوبة القاتل من الإعدام إلى سجن مؤبد، ولكن ما خفضه إلى سبع سنوات مشينة هو وضع روح القانون ورحمة العدالة في غير محلها حين استعرض فوزي ندمه أمام القاضي، وبكى قائلاً إنه لم يكن على علم بأن زوجته حبلى، وإن سلوكها غير القويم هو ما تسبَّب في أن يقتل ابنه بيديه.

استخدم القاضي سلطته في قضية رحاب، كما استخدم إينوسنت العاشر سلطته في قضية أرتيميسا، كلاهما قرر أن يرأف بالجاني على حساب المجني عليها.

أعلنها القاضي بضمير مرتاح أمام أهل القتيـلة، سيرأف بالمتهم الشاب لأنه فقد ابنه في لحظة غضب شيطانية، ولا يصح أن يحرم ابنه الآخر من أبيه كما حُرِم من أمه، التي بالمناسبة كانت شابة لم تتخطَّ الثانية والعشرين من عمرها.

اعترض قطز قائلاً:

- وهو مين اللي حرم فوزي من علي ولا من الجنين اللي
كان في بطن رحاب عشان نرأف لحاله؟!!

تركت الملف المलगم بالبطش، ونهضت إلى الثلاجة
الصغيرة في الغرفة لآخذ منها زجاجة مياه باردة أتجرعها
على دفعة واحدة، عسى أن تيسر عليّ ابتلاع المرارة التي
علقت في منتصف حلقي من الظلم الذي حاق برحاب.
هز قطز قدمه وهو يعض على شفته، يبدو أن تفاصيل
الملف أيقظت فيه نوعاً جديداً من الهلع فراح يتمتم:

- طعنها تمن طعنات فخد سبع سنين! ده لو كان ثبت
واحد بسلاح أبيض كان خد مؤبد!

ألقيت زجاجة المياه الفارغة في سلة القمامة وأنا أوضح
له:

- من الناحية القانونية المفك مش سلاح بطبيعته، الجاني
بيستخدمه يومياً كأداة من أدوات شغله بحكم إنه نجار،
فالمحامي قدر ينفي عنه سبق الإصرار.

عدت لاستكمال التفاصيل. شهدت عزة ووالدها المرحوم
بحسن سلوك رحاب، وحكيا عن تعدد وقائع ضرب
فوزي لزوجته ضرباً مبرحاً أدى إلى علاج يزيد على

واحد وعشرين يوماً، وحين شكته رحاب في القسم التابع لدائرتها، انتهى المحضر بالتصالح بسبب جلسة عرفية بين الأهلين أجبروها فيها على الغفران بعد أن استحلفوها برحمة أمها، حتى لا يتزعزع كيان أسرتها، وحين أصرت على الرفض هددوها بحرمانها من ابنها، فرضخت، وسحبت الشكوى، ووعدتها فوزي ببداية جديدة، وبعدها بيومين قتلها!

نعتا فوزي بـ«بلطجي الحارة»، رياضته المفضلة الأذى والإساءة، ولا يهتم في الحياة غير الحفاظ على سمعته كوحش كاسر يستحيل أن تكسر له كلمة، مما جعل ثأرته تثور حين عرف أن رحاب وكلت محامية لترفع قضية طلاق بما أنه يرفض تسريحها بإحسان.

أشعل قطز سيجارة، نفث دخانها وهو يحك خديه المتقدين بجمرة الغضب، ثم قال:

- رحاب اتقتلت. فوزي اتسجن. أبو رحاب مات مقهور. عزة ربت علي، لحد ما فوزي اللي إلهي يولع في نار جهنم خرج من السجن، وبدأ يترصدها عشان ياخذ منها الولد، فعزة رفضت تسلم علي للي قتل أمه. فالقدر عملها فخ مع البواب وانتهى بأن عزة قتلتها. كل ده بالنسبة لي مفهوم.

- أو مال إيه اللي مش مفهوم؟
- ليه عزة تاخذ راس فوزي وتحطها في تلاجة أمل،
ما كانت سابته مقتول في شقة الأرضي؟
- ده لو كانت هي اللي نقلت راسه. شُفت اللوحة اللي
في صالة أمل اللي حكيت عليها؟
- شُفتها.
- مش يمكن عزة وأمل قتلوه سوا؟
- عمدًا؟
- أو دفاعًا عن النفس.
- أو يمكن أمل دخلت موقع الجريمة بالصدفة بعد ما
عزة هربت، فخذت الراس وحطيتها في التلاجة زي
نهاية فيلمها. أو هام زهايمر يعني.
- إنت لسه مصدق إن عندها زهايمر؟
- أو مال هصديق السيناريو الهابط اللي وليد ألفه؟ ده
واحد الأفلام لحست مخه. أنا شايف إن تورط أمل في
الجريمة دي كان بالصدفة، ما أظنش إن عزة هتورطها
في جريمة بشعة زي دي.
- أعدت ترتيب المكتب معيّدًا كل ورقة في ملف القضية

إلى مكانها، وبدأت ألملم أشيائي حتى أذهب إلى الحجر
الصحي الذي عُزلت فيه عزّة، كما كنت أنتوي قبل أن
تدخل روح فوزي المجحوم إلى غرفتنا.

- مش عارف يا قطز، مش مقتنع إن عزّة تعمل كل ده
لوحدها!

لا أعرف طبيعة عزّة بقدر معرفة دليلة بها. لم أبادلها أكثر
من التحية إذا تصادف خروجي من الشقة مع خروجها،
وجملتين حين بحثت معها عن أمل ذات مرة، حتى
وجدناها فوق سطح العمارة تلقي فتات خبز للطيور
المجتمعة حولها.

كنت أراها جارة ضئيلة البنية، قصيرة القامة، لا تخلع
الأسود، وتغرق في ملابسها الفضفاضة وحجابها الطويل.
كانت تربكني حركة عينيها المستمرة، حسبتها تعاني خللاً
في الأعصاب، أو ربما قلقاً مرضياً يحتاج إلى تدخل
إكلينيكي. الآن فقط فهمت أن مشكلتها ليست مشكلة
عضوية، هذه مشكلة إنسانة لم ترّ في حياتها عدلاً فتحولت
إلى ماكينة ذعر، تنتظر غدر الزمن في أي لحظة حتى
صارت سفاكة للدم.

ليتها لجأت إليّ حين تعرّض لها فوزي للمرة الأولى،
ليتها استغاثت بي، ليتها اعترفت لي أو لدليلة بأنها

ضربت فوزي بالخوذة، كنت سأنقذ المجرم الذي أمن
العقاب حتى احترف إساءة الأدب، وسأحول بينها وبين
ذبحه وتشويهه، وما كنت لأضطر إلى القبض عليها الآن
بتهمة القتل العمد، التي بالتأكيد لن تكون عقوبتها سبع
سنوات!

* * *

وقفت أنا وقطر خلف عازل زجاجي شفاف، يرتدي كلانا
كمامة طبية، فوقها قناع شفاف، وسترة وقائية تحمينا
من احتمالية العدوى من عزة التي تبلل حجابها الأسود
بعرقها الغزير.

بدت شديدة الضالة في فراش المرض وهي جالسة بزاوية
مائلة، وأضواء الغرفة النيون تزيدها شحوبًا وتكشف
الخدوش التي تفرش وجهها وكفيها إثر اشتباكها مع
فوزي.

رفعت قناع الأكسجين عن فمها، وسألني بصوت منهك
اضطرنني خفوته إلى الاقتراب خطوتين نحو الزجاج العازل
لأسمعها بوضوح:

- ولادي؟

- بخير. مستنينك تقومي لهم بالسلامة.

- قولهم ماما راحت لبابا السما. يفتكروني ميتة أحسن ما يعرفوا إني هتسجن.

تبادلت أنا وقطر نظرات الشفقة التي أثارها فينا اعتراف عزة المباشرة، ظننتها ستتهرب من جريمتها، إن كان الدفاع عن النفس جريمة، ولكن ها هي ذي تسلمنا رقبتها قبل حتى أن تطرح عليها سؤالاً واحداً.

أخرجت دفترتي، وهممت أن أدوّن تفاصيل ما ستقوله، ولكن قطر انتشله من بين يدي، والتصق بالحاجز، وطرق عليه بدبلة زواجه كأنه يرن منبهاً ليوقط عزة من كابوس، وقال بنبرة تضامن خالص:

- ما تعترفيش بحاجة إلا في وجود المحامي بتاعك يا عزة.
- هو أنا أملك أوكل محامي؟ وإن وكلته، هلاقي اللي يرأف بحالي وما يطسنيش إعدام؟

- ما تسبقيش الأحداث، مش كنت بتدافعي عن نفسك؟
أومأت إليه بنعم، فسألتها وأنا أستعيد الدفتر من قطر وأضعه في جيبتي:

- قوليلنا اللي حصل بالظبط عشان نعرف نساعدك.
- راضي النطع خبط عليّ بعد صلاة الفجر، قالي فيه

تسريب ميه في شقة الباشمهندس محمد، لبست حاجة
في رجلي و...

- الحاجة دي اللي هي شبشب أمل؟
- أيوه.

- وليه مش شبشبك إنتي؟

- ما ركزتتش، أنا لبست أول حاجة لقيتها في وشي جانب
الجزامة، وصّحيت علي وقعدته في الصالة، عشان
تفضل عينه على ماما أمل بدل ما تهرب من الشقة. لو
كنت أعرف اللي مستنيني، كنت فضلت في حضنهم!
سالت دموعها، وتحشرجت أنفاسها فأعادت القناع لتمد
رئتيها بمزيد من الأكسجين بينما أقترح عليها:

- لو مش قادرة تتكلمي دلوقتي، ممكن ناخد أقوالك في
وقت ثاني.

أنزلت القناع عن فمها ببطء، وقالت:

- أنا اتحجرت من غير بطاقة واديتهم اسم غلط، وفضلت
ليلتين بسوف إنني هبعت حد ييجي ببطاقتي، بس خلاص
تعبت، لازم أقول وأخلص.

سألها قطز كأنه يتوسل إليها ألا تعترف:

- مستعجلة ليه؟

- عشان محدش غيري يتورط في اللي عملته.

التفتت إليّ وهي تبتلع ريقها ببطء، ثم انفرجت شفتاها
المرتعثتان، وقالت بنبرة رجاء منهك:

- ما تزعلوش مني عشان قتللكم إني بنت أمل. أنا
مستنضفاكم من أول يوم سكتتوا جانبنا. محدش غير
دليلة كان واخد بحسي أنا والولاد في الحبسة السوداء
اللي عايشين فيها دي. يعلم ربنا إني ما كدبتش عليها
غير عشان خفت لو عرفت إني على قد حالي تشوفني
مش قد المقام وتبعد.

- لا أنا ولا دليلة متضايقين.

- طب ماما أمل متضايقة مني؟ مين واخد باله منها؟

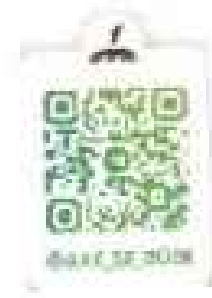
- فيه ممرضة مقيمة معاها.

- وعلي؟ اوعى يكون حد أكله شيبسي، بيجيله حساسية
منه. وعليها عندها حساسية من الفراولة و...

- مفيش داعي للقلق يا عزة. محدش هيحصله حاجة.

- طب احلف.

لا تعد أحدًا بشيء في أثناء التحقيق. هذه قاعدتي التي



تجنبني التورط عاطفياً في أي قضية أعمل عليها، وكنت أعيب على قطز اعتياده أن يعد ذوي الضحايا بأنه سيحقق لهم العدالة، ولكنني نظرت إلى وجه عزة المنهك، ورأيت القلق المتأرجح بين عينيها اللوزيتين، وعرق الخوف الذي يندي جبينها، هذه امرأة في حاجة إلى الطمأنينة.

- ورحمة أبويا. قوليلي بقي إيه اللي حصل بينك وبين فوزي لما نزلت شقة الأرضي؟

- فتحت الباب بمفتاحي ودخلت.

- الباب ما كانش مقفول بقفل من جوه؟

- لا، القفل موجود بس سايبينه مفتوح. لسه بدخل الشقة وبقفل الباب ورايا لقيت حد بيكتفني وبيكتم بقي. عرفته من غير ما شوفه. وشوش في ودني قالي إن عنده كورونا، ولو صرخت هيقلع خوذة الموتوسيكل والكمامة اللي لا بسهم وهيعديني، وإني لو ما سيبتهوش ياخذ علي، هياخذ روحي.

كنت محققاً حين سألت فوزي أي سلاح استخدمه ليهدد عزة بقتلها، نفى الحقير حيازته للسلاح لأنه هو نفسه السلاح.

- كان لوحده؟

- لا، راضي كان واقف في الجنيئة يشرب سيجارة

وبيتفرج، أكنه بيشوف فيلم. مش عارفة فوزي قاله إيه
عشان يغدر بي ويعمل عليّ كماشة معاه.

سب قطز راضي ولعنه هامسًا، وراح يكيل له الوعيد، بينما
تستأنف عزة سرد ما وقع:

- عرفت إن محدش هينجدني، فحاولت أنجد نفسي قبل
ما يعمل فيّ زي ما عمل في أختي، وعلي يتحرم من
أمه للمرة الثانية.

سعلت بعنف، ثم شهقت واستنشقت مزيدًا من الأكسجين
الصناعي، ثم أكملت:

- عضيت إيده اللي كانت كاتمة على نفسي، وعرفت
أهرب منه لحد البلكونة، بس هو قلع خوذته وكمامته
وجري ورايا. شدني من طرحتي، وجابني من شعري،
ولوحلي رقبتني، وتف عليّ.

ارتعش ذقنها والتوت شفتاها، وبدأت تبكي بحرقة وتشهق
بين الكلمة والأخرى وهي تقول بقهر لا نظير له:

- البلطجي قتّال القتلة تف عليّ. عارف إني مريضة رئة
فقرر يقتلني، مش يقتلني عادي، ده قتلني متهانة. خد
في رحاب سبع سنين، ومش هياخد فيّ ليلة، هيقولوا
جريمته إيه للقاضي، تف عليها فماتت؟!!

رأيت تعبيرات التخاذل تبدى على وجه صديقي، وأكاد
أجزم أنني لمحت لمعة دموع القهر في عينيه من وراء
قناع وجهه الشفاف.

مسحت عزة دموعها بطرف حجابها، ثم استكملت
كلامها:

- لما تف عليّ ما حسيتش بنفسي غير وأنا بشيل الخوذة
من على الأرض وبنزل بيها على وشه. قتلته ودمه الزفر
طرطش على وشي. أول ما راضي شاف دم فوزي عليّ
خد ديله في سنانة وقال يا فكيك.

- وبعدين؟

- دخلت الحمام غسّلت إيدي ووشي، ولبست الطرحة
تاني. كان نفسي آخذ علي وعليا وأبعت رسالة لدليلة
أوصيها على ماما أمل، وأهرب وما تعرفوليش طريق
جرة. بس ما كانش ينفع، فوزي مرضني فما قدرتش
أطلع الشقة وأنقل المرض لماما أمل والعيال. طلبت
من دليلة تاخذ بالها منهم وجيت هنا.

ثمة خطب فيما تقوله، اعترافها يتطابق جزئياً مع تفاصيل
الجريمة، ولكنه لا يغطي أساسها؛ الذبح.

- ضربت فوزي بالخوذة وجيتي هنا على طول؟

هزت رأسها بالموافقة، فتأكدت من نظريتي.

سألها قطز:

- بس ضربة الخوذة ما قتلتش فوزي يا عزة.

مسحت عرق جبينها بظهر كفها، وارتسمت ابتسامة باهتة على شفثيها وهي تسألنا بنبرة مفعمة بالأمل:

- فوزي ما ماتش؟

الصدق الذي طرحته به هذا السؤال جعلني أدرك أنني كنت محقاً منذ البداية، هذه جريمة لم ينفذها فرد واحد.

أتوقع أن هذا ما جرى: شرعت عزة في قتل فوزي دفاعاً عن نفسها. ظنت أنها أنهت حياته بتحطيم عظام وجهه، فهربت من موقع الجريمة، ثم أتى الشريك الغامض، وأدرك أن فوزي ما زال حياً، فذبحه، وقطع كفيه، وعبث بموقع الجريمة حتى يغطي على فعلة عزة. أو ربما ثمة شخص آخر له ثأر عند فوزي فتربص به، ولحقه حتى الحديقة، واستغل ما فعلته عزة، وأتم هو ثأره. ألم يكن بلطجي حارته قبل أن يُسجن؟

رتبت قائمة من الأسئلة غير المباشرة التي سأطرحها على عزة حتى أصل منها إلى شريكها في الجريمة، ولكن قطز سبقني:

- يعني مش إنتي يا عزة اللي قطعتِ راسه وحطتها في
تلاجة أمل؟

سحقًا للمباشرة التي تستجوبها بها يا قطز، متى ستعلم
اللؤم؟!

حدقت عزة إليه فاتسعت عيناها، وتحركتا في محجريهما
حركة قلوبًا لا تبشر بخير، فتدخلت قائلاً:

- فوزي ما ماتش بسببك يا عزة. إنتي مش هتتعدمي،
وهتاخدي علي وعليا في حضنك تاني. بس لازم
تساعدينا عشان نخرجك من الكارثة دي. مين دخل
شقة الأرضي بعدك، ولبس الشبشب، ودبح فوزي،
وحط راسه في تلاجة أمل؟

عضت على شفتها بعنف بينما تغشي تعبيرات الفجيعة
ملامحها المرهقة كمن يرى وحش الموت يفرغ فاه
ويتأهب لعضه.

حررت شفتها من بين أسنانها، وأفلتت منها صرخة مدوية
غير متوقعة، لا تكرر بها سوى كلمة:

- لا! لا! لا!

راحت ترطم رأسها بمسند السرير المعدني وتلطم وجنتيها
بعنف أجبر حجابها على الانزلاق عن شعرها المصبوغ

بالأحمر، فأشحت نظري عنها بينما يهرع قطز نحو الباب
منادياً الطبيب.

شهقت عزة بعنف اقشعر له بدني وأنا عاجز عن مد يد
العون لها، ما كان لي إلا الثرثرة بجمل فشلت في تهدئتها
حتى احتد شهيقها كغريق يلهث للنجاة، وغابت عن الوعي
تماماً.

* * *

في أثناء خروجنا من المستشفى، اتصلت بسيلى فأجابتنى
بنبرة ودود مستخدمة اسمي من دون أن يسبقه لقب ليتأكد
لي أنها تعتصم بالرسميات الجافة داخل موقع الجريمة
فحسب.

- صباح الخير يا سيلي، خلصتي تقرير الـDNA؟
- أيوه، هعتمده من مدير المصلحة وأبعتهولكم.
- حلو، لحد ما يوصلنا، قوليلي وصلت لـDNA صاحب
علبة السجاير الفاضية وعقب السيجارة اللي لقيناها
في الجنينة؟
- أيوه، وكتبته في التقرير.
- طلع مين؟

- هاخذ موافقة مدير المصلحة و...
- أنا محتاج أعرف اسمه دلوقتي.
- بس البروتوكول يقول...
- عارف البروتوكول يقول إيه! بس السجائر دي هي الدليل المادي الأساسي ضد صاحبها، فهددني اسمه عشان أكون مالي إيدي وأنا بستجوبه ولا نسيبه يهرب لأجل عيون البروتوكول؟
- تنهدت بعمق، لا بد أنها ترددت. جماعة الطب الشرعي يحسبون كل كلمة، ويزنون كل حرف، قبل أن يشاركونا إياها كأنهم ينتظرون منا غدرًا.
- أنا مش مسؤولة عن أي تصرف هتقوم به بناءً على المعلومة دي قبل ما يوصلك التقرير بشكل رسمي. فاهمني؟
- فاهمك.
- عقب السيجارة والعلبة طلّعوا بتوع راضي عبد ربه، البواب.

١١

استجواب راضي كان أقصر استجواب أجرته في مسيرتي
المهنية.

مثل أمامي وقطر في غرفة مكتبنا، وكاتب المحضر يدوّن
أقواله التي بدأت بتوسل للرحمة، وسرعان ما تحولت
إلى اعتراف.

الكاذب اللعين لم يفقد مفتاح بوابة الحديقة، ولم يعد
من قرينه قبل انتهاء العيد لأنه تشاجر مع زوجته، كما
زعم، كل ما وقع وقت الجريمة كان باتفاق مسبق مع
فوزي.

فتح بوابة الحديقة لفوزي، وساعده على اقتحام الشقة
عبر صعود كومة الرمل ومنها إلى الشرفة من دون ضجة
لافتة، وما إن تأكد من استقراره داخل الشقة حتى نفذ
الجزء الثاني من خطتهما.



استدرج عزة إلى الطابق الأرضي بحجة وجود تسريب للماء، ثم تركها زاعماً أنه سيذهب لاستدعاء سبّاك، إلا أنه في الحقيقة عاد إلى الحديقة، ومكث فيها بنية أن يغلق البوابة بعد انتهاء فوزي من إجبارها على إعطائه علي، ولكنه لم يتصور أن تتحول الفريسة إلى مفترس حين تصبح حياتها على المحك.

انتفض راضي مذعوراً حين رأى عزة تحطم عظام وجه فوزي، ظن أنها ستحطم عظامه هو الآخر، فركض، وتعثرت خطواته فسقط على حشائش الحديقة، فاقداً السيجارة التي كان يدخنها وعلبتها، ثم لاذ بالفرار إلى غرفته فوق السطح، تاركاً بوابة الحديقة مفتوحة على مصراعها.

احتقرت راضي، ولكن ليس بالقدر نفسه الذي احتقره به قطز، فلم يوجّه إليه سؤالاً إلا وكان ملغماً بالتنديد والشجب والاستنكار، حتى وصل الأمر إلى الاتهام الصريح.

- بس إنت ما هربتش من الجنية على أوضتك فوق السطوح. إنت استنيت عزة تهرب وبعدها حاولت تقطع جثة فوزي عشان تخلص منه بدل ما التهمة تلبسك.

- أنا أقطع؟! ده أنا بتخرج من الدم!

تدخلت قائلاً:

- أو مال مسحت السلم بعد الجريمة على طول ليه؟

- عشان السكان ما يعرفوش اللي جرى. محدش بيهوب
ناحية الجنية ولا شقة الأرضي. فسيت الجثة زي ما
هي، وقلت أكيد الدود هياكلها، ولا من شاف ولا من
دري.

- يا سلام! على أساس الميت مش هتطلع له ريحة؟

- أنا اترعبت يا باشا، وده اللي عقل بالي هداني له. قلت
مين يدري باللي جرى غيري أنا وعزة وتالتنا فوزي الله
يرحمه! لا أنا ولا هي هنتفتح بُقنا، مفيش حاجة كانت
هتفضحنا غير الدم اللي على السلم فنصفته.

- وإيه اللي جاب دم فوزي على السلم؟

- علمي علمك يا باشا. أنا كنت في أوضتي شوية، نزلت
بعدها لقيت دم ورملة من الدور الرابع للدور الأرضي،
فغرقت السلالم فيه وصابون لحد ما حضرتك وصلت
وقابلتك في شقة مدام أمل.

صاح قطز بعنف غريب عنه:

- إنت شايفنا داقين عصافير عشان نصدق إنك ما كنتش
في الليلة دي أكثر من متفرج؟

- يا باشا أنا حكيتلك كل حاجة بحق ربنا. واللي تشوفه
حضرتك.

- اللي شايفه حضرتي إنك دبحت فوزي وخطيت راسه
في شقة أمل عشان تلبسها هي أو عزة موت فوزي وتبعد
عنك الشبهات، لأن باشمهندس محمد شاهد على إن
معاك مفتاح الجنية وبتدخل وبتخرج منها براحتك.

راح قطز يستعرض سيناريو مفصلاً يتخيل فيه دور راضي
المحوري في الجريمة، ويجعل منه القاتل الوحيد، ولكني
لم أتفق مع خطوطه الدرامية.

راضي صادق، وكذلك عزة. إنها الوحيدة التي تعرف من
ذبح فوزي، بل بالأحرى تعرف من دخل موقع الجريمة
بعدها من دون أن تعرف تفاصيل ما فعله في غيابها. تركت
خفيها له، وخرجت حافية، لأنه وعدّها بمحو خطواتها من
موقع الجريمة. لم نعر على بصمة واحدة لهذا الشريك
المجهول، ولكننا رصدنا آثار قدميه، فعرفت أنه مصاب
بداء القدم المسطحة، وأن عزة تحبه إلى درجة انهيارها
حين أخبرناها بأنه لطخ يديه بدماء فوزي، وأنه يحبها إلى
درجة أنه ذبح رجلاً وبتر كفيه لأجلها.

حدقت إلى السقف للحظة، محاولاً أن أجد ضالتي، ولكن
توسلات راضي وأيماناته الكثيرة ليقنعنا بأن لا دخل له
بذبح فوزي أخلت بترتيب أفكاره.

زفرت بضيق، والتفت إلى راضي طارحاً عليه السؤال
الوحيد الذي شغلني منذ أخبرتنا عزة بدوره المشين فيما
جرى:

- أنت تعرف فوزي منين؟

- عرفته من قيمة شهر، جه العمارة يسأل عن عزة، وحكالي
إنها خاطفة ابنه الوحيد وإنها ومدام أمل ومعارفها سخنوا
عليه بتوع حقوق الحريم وطسوه سبع سنين ظلم.

- بس كده؟ لا بينكم قرابة ولا شغل ولا عشرة؟

- يا باشا الراجل لجألي فاستجدعت معاه، حط نفسك
مكاني!

- ده أنا أخط نفسي تحت قطر ولا أخط نفسي في مكانك.
استجدعت مع غريب في الشر على حساب واحدة
بقالك سنتين ما شُفتش منها وحش؟!

- يا باشا بقولك سارقة منه ابنه. أنا خابر لؤم الحريم ده
كويس، ده أنا متجوز ثلاثة. إن كيدهن عظم...

ضرب قطز مكتبه بغضب، وصاح بعنف جعل عروق عنقه
الزرقاء تبرز من تحت جلده:

- إياك تستخدم كلام ربنا عشان تبرر الوساخة اللي عملتها.
تنصب فخ لو احدة بطولها وتساعد واحد عايز يخطف
عيل من حضن أمه وتقولي كيد نسا؟

- يا باشا أنا كنت بساعده ينقذ ابنه من الضياع. يرضيك
يعني يتحرم من أبوه ويبقى تربية نسوان؟
أجبتة بغیظ:

- ما كلنا تربية نسوان يا راضي، ولأ أنت أبوك كان متجوز
راجل؟!!

- الله يسامحك يا باشا. أنا نيتي كانت خير. الراجل كان
لسه خارج من ضيقة بسبب واحدة لا مؤاخذة ماشية
على حل شعرها بتستغل إنه بيشقى طول اليوم في ورشته
عشان تدخل راجل غريب في سري...

في جزء من الثانية نهض قطز عن مقعده، وانقض على
راضي، وأمسك بتلابيبه كشاهين غرس مخالبه في بدن
جربوع صحراوي حقيق.

تعثر راضي في طرف السجادة، وسقط على ظهره،
ولكن هذا لم يخلصه من قبضة قطز، ولولا تدخله

وكاتب المحضر والعسكري لما فضضنا هذا الاشتباك
المفاجئ.

دفعت قطز نحو الحائط، ووقفت أمامه قابضاً على مرفقيه،
وأمرت العسكري بنقل راضي إلى الحجز، وطلبت من
الكاتب المغادرة وإغلاق باب المكتب من خلفه.

حدقت إلى قطز الذي احمر وجهه البض بدموية عنف
دخيل على طبائعه الحليلة.

وعمري لم أره يتجاوز في حق شخص من قبل. قطز الذي
لا يقاوم لصاً يسرقه ويفضل الجنوح إلى السلم واسترداد
مسروقاته بالقانون، يتعدى على متهم بالضرب؟!!

تركته يلهث لهاثاً حامياً، له وقع كالزئير، بينما أتابع من
تحت قناعه الشفاف، الذي ترحزح إلى اليسار، تبدل
ملامحه من العنف الأعمى، إلى الغضب الثائر، فأرخيت
قبضتي عن مرفقيه، ورجعت خطوة إلى الوراء لأترك له
مجالاً للتنفس، ريثما يسكت عنه غضبه.

خلع قناعه، ثم كمامته، وألقاهما بغضب على الأرض،
وفك أول زر من قميصه الأبيض، ثم اتجه إلى مكتبه، أخذ
من عليه كوب ماء تجرعه بيد ترتعد كما يرتعد بدنه كله
من فرط الغضب، وحين انتهى، سأله بهدوء:

- ليه؟

كأن هذه الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف راية حمراء
لوحتها أمام صديقي الثائر كالثور، فإذ به يصيح فيّ:

- هو إيه اللي ليه؟! ليه ضربت واحد بيقذف محصنات،
ست اتقتلت والكل نهش في عرضها من غير دليل لحد
ما أبوها طب ساكت من الفضيحة؟! ولأ ليه لسه عندي
دم ويستفزني الظلم؟! ولأ ليه الجهل والكبت خلونا
نحول علاقة الراجل والست اللي ربنا جعلها شرط
لاستمرار الكون لماتش غل؟!!

لم أكن أدري أن صديقي نسوي إلى هذا الحد، أعرف أن
كلامه صحيح ومنطقي، ولكنه لم يغضب إلى هذا الحد
حين نكره أبوه، وتبرأت منه عائلته، لأنه عصاهم وتزوج
آسيا!

استمر ثورانه حتى كاد يغرقني في حممه الملتهبة وهو
يتابع مستنكراً:

- أنا دورت على خبر الجريمة على الفيسبوك لقيت شوية
أوساخ يقولوا على فوزي «كينج» و«دكر» عشان قتل
مراته وابنه اللي جوه رحمها! وأغلبهم ما يعرفوش فوزي
أصلاً، زيهم زي الكلب اللي اسمه راضي بيأيدوه عشان

اتربوا على استباحة الست، وعلى إن كل راجل من حقه
يشكمها ويأدبها على كيفه.

- مش كل الرجاله، ما أنا وإن وأبويا وأبوك وجدي
وجدك محترمين. ما تعممش.

- نسيب كارثة إن اللي بيقتل مراته بقى بياخد عقوبة
أقل من لو اختلس قرشين، ونمسك في نعمم وما
نعممش. مش كل الرجاله أنطاع يا نوح، دي بديهيات
مش محتاج أقولها، بس عدد الأنطاع بقى كفيل إنه يدمر
حياة المحترمين اللي زينا. إحنا بنرجع قرنين لورا، قاسم
أمين ومحمد عبده بيتقلبوا في قبرهم دلوقتي!

ابتلع ريقه بصعوبة ملحوظة، إلى درجة أنه قبض على عنقه
من الغيظ، ما أثقل القهر، وما أمر الظلم!

ناولته زجاجة مياه باردة، تجرع نصفها، ثم حرك رأسه
بقوة، كأنه يطرد فكرة بغیضة من عقله، حتى قال بصوت
ضعيف تفوح منه رائحة الهزيمة:

- المفروض أتعايش مع الانحدار الأخلاقي اللي وصلنا له
وأتصالح مع إن محدش مهتم يسد الثغرات القانونية
اللي بتبرأ القاتل وبتدين المقتول! لأ، ده مش بس
المفروض أتعايش، المفروض كمان أقدم بنتي قربان

لمجتمع بقى أسهل ما فيه يخوض في عرضها ويمجد
قاتلها!

ها هو ذا مفتاح لغز ثورة قطز؛ «بنتي».

يبدو أنه رأى نفسه في والد رحاب الذي مات مقهورًا، أو
رأى ابنته المستقبلية في النساء اللاتي ظُلمن. قطز لم يفقد
أعصابه لأنه نسوي، ولكن لأنه سيصير أبًا لبنت.

* * *

تلقيت توبيخًا شديد اللهجة من اللواء رشوان.

استدعاني إلى مكتبه ليسألني عن الهرج والمرج اللذين
دارا في مكتبنا، وبعدها تأكدت من أن العسكري والكاتب
لم يحكيا له حرفًا مما وقع، تطوعت قائلًا إنني من دفع
راضي على الأرض.

مثله مثل قطز، غضب وثار وندد واستنكر، ثم سكن تمامًا،
وقبل اعتذارى، وسمح لي بالمغادرة مع وعدٍ بعدم تكرار
هذا السلوك المشين.

لم أخبر قطز بأنني نسبت ثورته إلى نفسي، تكفيه الأخطاء
التي اقترفها حين كان يحاول الإيقاع بعاطف لخاطري
ولخاطر ذكرى أبي، والتي تسببت في إخضاعه للتحقيق
وما ترتب عليه من حتمية تأجيل ترقيته واقتطاع مرتبه

مؤقتًا، فما المشكلة لو تلقيت بعض التوبيخ نيابة عن أخي؟

عدت إلى منزلي محملاً بصهد الصيف وتراب الشارع واضمحلال قيم مجتمعي.

صففت السيارة في الجراج، ومكثت فيها أنصت إلى هدير المكيف، جيبني مستند إلى طارة القيادة، مسامي تستنزف باقي لاصقة النيكوتين، وروحي تجاهد للتخلص من سموم يومي الكبيس، حتى لا أنقلها إلى دليلة والصغيرين.

أخذت نفسًا عميقًا، وأسلمت أمري إلى الله، ونزلت من السيارة فغادرت الجراج، وسرت أنظر إلى الأفق، أتأمل حمرة الغسق التي صوّرها لي عقلي المشبع بمشاهد القتل والعنف بأنها نزيف ينتشر في السماء ولا أحد يبالي بإسعاف صاحبه.

أخرجت مفاتيحي من جيبِي، ووقفت عند بوابة العمارة، وما إن فتحتها حتى وجدت أمل أمامي بثوب نوم أبيض طويل، كُمّاه فضفاضان، وصدره يرتفع حتى عظمة ترقوتها. هربت من شقتها مجددًا، ولكن حمدًا لله لا تحمل سلاحًا، ويداها غير ملطختين بالدم هذه المرة.

اقتربت نحوي تقول بابتسامة عذبة:

- خدني للجنينة يا دودو، نفسي أشوف الشمس.

ها نحن أولاء أمام مشهد آخر!

دخلت، وأغلقت الباب خلفي وأنا أقول لها بهدوء:

- الشمس بتغرب، نبقى نروح الجنية بكرة.

علقت ذراعها بمرفقي، وقالت بدلال لطيف:

- عشان خاطري يا دودو، نفسي أشم شوية هوا.

- بكرة هـ...-

- عشان خاطري، عشان خاطري، عشان خاطري.

ظلت تكررهما بتوسل طفولي عجزت أمامه عن الإصرار
على رفضي، فراسلت دليلاً لأعلمها بالوضع فتنقل بدورها
الخبر إلى ممرضة أمل الجديدة، ثم أخرجت من جيب
الكمامة الإضافية المغلفة التي أبقيتها معي للطوارئ
وألبتها إياها.

لا أدري متى كانت آخر مرة خرجت فيها هذه المسكينة
من شقتها، وإن أمد الله في عمري ووصلت إلى عمرها
واختبرني في عقلي كما اختبرها، فسأود أن أجد من
يأخذني من يدي ويتركني في الطبيعة ولو لساعة، ثم
يعود بي آمناً إلى بيتي.

* * *

عبرت أنا وأمل بوابة الحديقة، وجلسنا على المقعدين
المتجاورين أسفل الأشجار التي تتشابك فروعها، فتشكّل
مظلة طبيعية تستكين الطيور في حناياها، مغردة تغريداتها
الأخيرة قبل الإخلاء إلى النوم في أعشاشها.

تابعنا طلوع القمر الأحدب الناقص وانسكاب نوره على
حجريننا من بين فروع البونسيانا الصفراء والجاكرندا
البنفسجية المتعانقتين. لو دليّة معي لصوّرت هذه
اللّقطة، وأضّفت إليها موسيقى شاعرية، وحملتها
«ستوري» على إنستجرام، وكتبت تعليقاً مرهفًا مثل:
الطبيعة تتعافى!

بعد قرابة نصف ساعة من الجلوس في صمت تحت نور
القمر الفضي والإضاءة البرتقالية الدافئة للأعمدة الباريسية
المحيطة بسور الحديقة، ابتسمت بهدوء، وقالت بنبرة
صافية وهي تشير إلى شجرة الجاكرندا:

- زرعت الشجرة دي في اليوم اللي رجعت فيه من
المستشفى وميريت على إيدي. كل ما أحمل كنت
أغرس بذرة شجرة، الحمل ما يتمش أخلع جدر
الشجرة. عشرين سنة أبذر وما طرحش لحد ما بطلت
أشتري بذور. هي اللي ما حملتش في العشرين هتحمل
في الأربعين!

ضحكت ضحكة شديدة العذوبة، ثم قالت كمن صدق
عشمه في الله:

- آه، تحمّل وحملها يتم ويبقى عندها بنت زي القمر
الكل يتمنى ضفرها.

تنهدت كأنها انتصرت على ألد أعدائها، ثم قالت:

- حب عمري طلقني. كان يقول للناس إنه طلقني عشان
اخترت أمثّل، بس أنا عارفة إنه اتلكك عشان ما بخلفش
وعشان عمري ما هقبل يبقالي ضرة. جوزي الثاني قالي
أنا مش فارقلي عيال، سنتين وأمه زنت عليه وطلقني
واتجوز غيري، وبرضو ما خلفش. التالت بقى هو
عوض ربنا. قبلني زي ما أنا بس مات بعد ما ميريت
خدت الابتدائية. روحها في أبوها، بتحبه أكثر مني.
بتقولي إنتي يا مامي موسوسة. عندها حق. أنا بترعب
عليها من النسمة الطائرة. بخاف أشيلها تقع مني، بخاف
أبوسها أنقلها أي جراثيم، بخاف أنام جانبها أتقلب
عليها أفطسها، وبخاف أسيبها تنام في سريرها تتقلب
على وشها فتتخنق. الخوف أكلني، لا منه سابني أعيش
متطمنة مع بنتي، ولا منه حماها من الموت.

كسا الحزن عينيها بلمعة دموع سرعان ما انزلقت على
خديها المتغضنين، وقالت بصوت مرتعش:

- ببعثها كلامي مع الشجرة، بهمس للورد عشان يحفظ السر، ولما الخريف يطيره يبعثها شوقي. أمورتي الحلوة بنت السبعناشر راحت. راحت يا ناس ومحدث اتعاقب.

كورت قبضتيها، وضربت مسندَي مقعدها بغضب، ثم التفت إليّ بحاجبين مقطبين، وهمست بصفاء ذهن شديد كأنها شُفيت من الزهايمر للحظة:

- أنا أتعذب العمر كله وهو يتعذب ست شهور! حكموله بست شهور ما قضاش منهم دقيقة. ده يرضي ربنا يا دودو؟

- لا.

كانت إجابتي صادقة تعبر عن مكنون ضميري، ولا تهدف إلى مجازاة خيالاتها. طفح كيلى من متوالية القهر وملحمة العدالة الانتقائية التي تصادفني بين القضية والأخرى. خُلق القصاص لردع المجرم، وجعله عبرة، لا لنجد فيه ثغرات تحرر عنق القاتل من سيف العدالة!

أظنها استشعرت صدقي، فانفكت عقدة حاجبيها، وانبسطت ملامحها، وأضافت:

- قضيت أول ليلة بعد الحكم هنا، على نفس الكرسي

ده. أبص للجاكردا فافتكر إن بسام حرمي من ميريت،
وأبص للبونسيانا فافتكر إني دفنته حي تحتها.

انتقلت من تأمل الشجرتين إلى تأمل وجهي بابتسامة
منتصرة، ورفعت هامتها، ثم مدت يدها نحوي، وأمسكت
كفي، ثم قبلت راحتي، وقالت بامتنان:

- شكرًا يا دودو إنك دفنتهولي.

تركت يدي متدلية في الهواء، وعادت الاسترخاء في
مقعدتها تنظر إلى السماء بابتسامة مطمئنة، وتركتني أتخبط
في إعصار استيعاب أنها اعترفت لي لتوها بدفن قاتل ابنتها
حيًا، وزرعت فوقه شجرة بونسيانا!

ذكرتني بقضية تولاها جدي حسين الألفي في ستينيات
القرن الماضي، امرأة اسمها شويكار عبد الحي، اعتاد
زوجها تعنيفها فجعلت من رأسه مزهرية في مطبخها
زرعت فيها زهورًا وردية.

الظلم يُنجب ظلمًا، وفي غياب العدالة يحضر ثأر عنيد
يولد الكفر بكل ما هو إنساني، فتنحول مدنية المجتمع
إلى قبلية عمياء ستقودنا إلى هلاك لا مخلص منه.

ثأرت أمل لابنتها منذ سبع سنوات، كما ثأرت لصديقي
ذات مرة. لا تشغلني الآن إدانتها أو تبرئتها، بل تشغلني

معرفة من يكون دودو الذي قبلت يدي على أساس أنني
هو. من الرجل الذي دفن قاتل ابنتها حيًا نيابة عنها؟

التفت إلى أمل الناظرة إلى السماء بابتسامة عذبة، وقلت
لها وأنا أمل ألا يعكر سؤالي صفو ذهنها فتعطيني إجابة
صريحة مفيدة:

- ما تنادينيش باسم الدلع. ناديني باسمي الحقيقي.

لم تتجاوب.

- ما تفكريني إحنا نعرف بعض إزاي؟

لا رد، ولا حركة، ولا أي تفاعل معي، لماذا قررت أن
تتجاهلني وتمسك عن الكلام الآن؟

بعد ثوانٍ من التحديق إليها لاحظت سكونها التام: عيناها
مركزتان على الشجرتين، لا ترمشان، وابتسامتها ثابتة لا
تتسع ولا تضيق، ولا يصدر عنها أي صوت، ولا حتى
صوت تنفسها.

لمست كفها برفق، فأدركت بغريزتي وبخبرتي في التعامل
مع الموتى والأحياء، أن بعد أربع وعشرين ساعة من
الآن، إذا شققت نصف ليمونة فسأجذب روح الفقيدة
أمل فهمي.

حُرِّم المهندس محمد من الصلاة على جثمان شقيقته
بسبب تعليق حركة الطيران، فتوليتُ وشقيق زوجته
الإجراءات كلها.

لم يسر في جنازتها غيري ودليلة وقطر وكل من استطعنا
أن نجتمع من عائلتنا وأصدقائنا المقربين، إلى درجة
أن رجلاً بجلباب فلاحى ضرب كفاً بكف متعجباً من
قلة عددنا، فراح يدعو لها بالرحمة، وانضم إلينا ودفنها
معنا مشفقاً على من لم تنسَ فنّها ولا مشاهديها حتى بعد
أن أصابها الزهايمر. أخلصت أمل لجمهورها، ولكن
جمهورها لم يخلص لها.

تحول موتها إلى «ترند» بسبب حلقة وليد عنها التي
وصلت إلى نصف مليون مشاهدة.

استرجع الناس صدق فنّها وإخلاصها للقضايا التي عبرت

عنها. زادت نسبة مشاهدات أفلامها على قنوات مجهولة الهوية على يوتيوب، صنعوا مقاطع مجمعة من أفلامها على تيك توك كمثال على المصرية «النجشة». امتدحها النقاد، وأثنى السينمائيون عليها، كأنهم كانوا ينتظرون موتها حتى يتذكروها.

واكبوا الترند، استهلكوا طرق التعبير عن الاهتمام التي لا تتطلب مجهودًا أكبر من الكتابة على لوحة المفاتيح ودعس زر النشر في زمن التعفن الدماغى وذاكرة الذبابة. فعلوا كل شيء ليرثوا أمل إلا الصلاة على جثمانها أو المشي في جنازتها.

ماتت أمل بين شجرة زُرعت يوم ولدت ابنتها، وأخرى يوم اقتضت من قاتلها، وبعد أيام سيموت ترندها على مواقع التواصل الاجتماعي ليحيا ترند آخر، ولن يستمر شيء غير بحثي عن المدعو «دودو» الذي دفن لها بسام حيًا!

* * *

رصدتني مجموعة من الغربان في طريقي إلى الجراج فنعقت نحوي بعنف جعلني أتصور أنها تلعن أسلافي. تحمل الغربان الضغينة مثلنا، قلوبها سوداء كريشها فتتذكر ولا تغفر، ولا أعلم إلى متى ستظل تنعق صوبي، لأنني

هششتها، وكدرت صفو اجتماعها حول جثة فوزي. ليتني تركتها تلتهم الوغد حتى لم تبق منه خلية واحدة!

ركبت سيارتي، ثم غادرت الجراج في صمت. ما زلت صائماً عن أغاني حكيم، فسليت نفسي بتشغيل حلقة من حلقات المحقق كونان والإنصات إليها كأنها مسلسل إذاعي، ولكن حتى هذا الحل البديل لم أهنأ به، فقد اتصل بي قطز في أكثر لقطة مشوقة من الحلقة.

- عندك جديد يا قطز؟

- عزة اعترفت بدبح فوزي وبقطع كفه وبكل العك اللي حصل.

- اعترفت، ولّا شالتها؟

- طبعاً شالتها مكان حد. أقوالها لا متسقة مع بعضها ولا مع تقارير الطب الشرعي. وخذ عندك بقي، بتقولي إنها قتلت سمير خفاجة.

- محامي الدفاع بتاع فوزي؟

- أيوه، هو، الله يحرقه. كان محامي هلفوت محدش يسمع عنه، بعد ما كسب قضية رحاب بقي له صيت، واتخصص في قضايا الأجواز اللي بيقتلوا مراتاتهم. يلا، أديه غار في ستين داهية!

- قتل سمير ده اعتراف حقيقي ولّا برضو شيل؟
- بعمل تحريات من الصبح عشان أتأكد. وصلت لبلاغ قدمته مراته في قسم الجيزة من ييجي ست سنين إنه مختفي. اسمه لسه في قائمة المفقودين.
- طب عزة قالت أي تفاصيل تفيدنا في إعادة تمثيل الجريمة؟
- قالتلي إنها دفنته في جنيّة أمل.
- اللعنة، كم جثة مدفونة في الحديقة التي تطل عليها شرفتي!
- ما لحقتش تحكي لي حاجة تانية. حطوها على جهاز الإنعاش الرئوي. نفسي أعرف مين اللي يستاهل إنها تشيل مكانه جريمتين قتل فتنعدم وتحرم منها عيالها.
- الله يحرقك يا فوزي يا...
- قطز إحنا ساحلين نفسنا في وساخة فوزي وسايين القاتل الحقيقي لصلاح وفادي يدوروا عليه.
- تقصد مين؟
- الراجل اللي خرج بالموتوسيكل من الجراج بعد الجريمة. هو الشجرة الباقية في القضية دي، أنا وإنّ لازم نحط تركيزنا كله على إننا نلاقيه. إنت فين دلوقتي؟

- في القسم بطلع موافقة بحفر الجنية عشان أتأكد من
حكاية سمير خفاجة.

- زي الفل. دقيقتين وأكون عندك.

* * *

بمجرد خروجي من سيارتي أمام القسم، ناداني صوت
عالٍ أكثر من اللازم، صوت سخيف يشير حنقي، صوت
فادي ابن اللواء رشوان الذي يتزل الآن من سيارة الشرطة.

لم يتقاطع دربي وهذا المتغطرس الذي كان استهتاره
شريكًا في قتل الشاب خالد. تجنبت التعامل معه بشكل
مباشر، لأنني لم أصفُ من ناحيته بعد.

أقبل عليّ بالزي الميري الأبيض وهو يمسد شعره
الكستنائي الغزير ويقول:

- إزيك يا برو؟

- بمب.

- قطز قالي إنك على وصول، فقلت أستناك.

- إشمعني؟

- عندي معلومة حاولت أوصلها لك مع صلاح، بس
الظاهر إنه محرج منك.

- صلاح محرج؟ ده كده عجائب الدنيا بقوا تمانية!
- ضحك ضحكة ثقيلة الظل مثله أعقبها بقول:
- عمومًا أنا جيت أعرفك اللي حصل بالنيابة عنه. بس
يا برو، مش هو صيك. الكلام بيني وبينك.
يقصد ألا أشي به عند أبيه.
- سترك يا ربي، يبدو أنني كنت على حق حين شككت في
أن صلاح يخفي عني مصيبة.
- ضممت ذراعي نحو صدري في محاولة لتقييد حركتي،
حتى لا أفقد أعصابي، فكلي ثقة بأنني على وشك سماع
أقذر كارثة مهنية ارتكبتها الخيبة الكبرى والخيبة الصغرى.
- عملتوا إيه يا فادي؟
- يا برو ما عملناش حاجة، خُذ الأمور بسلاسة واقبل
مشيئة الرب. حصل سوء تقدير لموقف بسيط، بس
الموضوع في النهاية اتقلب لصالحنا و...
- أعني يا الله على برود فادي ابن طنط إيفون، القادر على
إشعال جذوة غضبي في ثانية إلا ثانية.
- إحنا مش في الإذاعة المدرسية! انجزني وقول هبيت
إيه إنت وصلاح.

قطب حاجبيه الكشين، ثم زفر بنفاد صبر، وقال بطريقته
الجلفة المستفزة:

- يا ريت تهدي عشان تفهم تفاصيل اللي هحكاهولك.
صلاح اداني تعليمات أحرز موتوسيكل بتدوروا
عليه، لونه أزرق ولوحته ك ل ن ٢٩٥٦. بيانات
اللوحة علقت معايا، وافتكرت إن صلاح كان هيسجل
مخالفة للي سايق الموتوسيكل ده قبل كده، عشان
سايق وقت الحظر، فأنا حفظت رقم اللوحة كويس
وربطت الأمور ببعض لما اتكلفت بالبحث عن
الموتوسيكل.

أخيراً معلومة عن الرجل الذي غادر الجراج بدراجة القتل
النارية، كم أبغض أن تأتيني هذه المعلومة بفضل الذاكرة
الفوتوغرافية التي يملكها رأس القرقة الغبي هذا!
أخفيت حماسي عنه، وسألته بمنتهى الفتور:

- والراجل ده كان شكله إيه؟

- هو كان لابس كمامة وكاب ونضارة شمس، وشايل
شنطة ضهر، بس كان باين من صوته إنه راجل عجوز،
وتقريباً فيه وحة كبيرة حوالين عينه، شُفت حته منها
عند خده. صلاح أصر يكتبه مخالفة بس الراجل

قالنا إنه لازم يمشي عشان مخالط حد عنده اشتباه في
كورونا، ووجوده وسطنا خطر علينا.

- وقفته إمتى؟

- يوم الخميس، ثمانية وعشرين مايو، الساعة ستة إلا
ربع الصبح.

- فين بالضبط؟

- في شارع أحمد باشا.

هذا الشارع يبعد عن بيتي بثلاث دقائق قيادة، وعن
كورنيش جاردن سيتي بأربع دقائق. إذا ذهبت إلى
الكورنيش قبل نهاية حظر التجول فستجده خاليًا كلوحة
طبيعة صامتة لا بشر فيها، ولن يشهد أحد على إلقاءك
في النيل حقيبة ظهر فيها خوذة وكفان بترتهما عن
جثة رجل ذبحته منذ دقائق في شقة مهجورة في شارع
النباتات.

لم يعد هناك مجال للشك، قائد الدراجة النارية هذا شريك
عزة الذي عبث بجثة فوزي وبموقع الجريمة، فقررت أن
تُشنق نيابة عنه.

- المخالفة اللي كتبوها معاك ولأ مع صلاح؟

- ما كتبنا هاش. صعب علينا.
- نعم يا خويا؟! يعني ما سجلتوش بياناته؟
- لأ.
- طب عملتوله ساندويشات مربى بالقشطة ولّا سيبتوه
يمشي على لحم بطنه؟
- إنت بتتريق يا برو؟
- ما هو يا أتريق عليكم، يا أساويكم بالأسفلت. يلعن
أبو غبائكم.
- أدار عينيه البنيتين في محجريهما، وقال بنبرة متعالية:
- يظهر إن صلاح كان عنده حق، إنت حلال فيك التغفيل.
- يا ابني إنت عايز أبوك يعمل فيك إيه أكثر من كده؟
ينفيك لحلايب وشلاتين!
- إيه اللي دخل بابا في الموضوع دلوقتي يا برو، إنت
هتعاقبنى عشان بساعدك؟
- عَرَضت صوتي، وتحدثت مثله ساخرًا من نبرته:
- بتساعدني إزاي يا برو، أنا بقالي أيام ببرم عشان أجيب
اسم الراجل اللي إنتو ضيعتوه من إيديكم.

- أنا عارف اسمه. وعلى فكرة صلاح كرره على التلفون
وهو بيكلمك كذا مرة، بس لا إنت ولا هو عارفين إن
ده اسم الراجل اللي كان راكب الموتوسيكل.
- حلوة الفوازير دي. هتقولي اسمه دلوقتي ولّا الحلقة
الجاية؟

عَضَّ على شفته، وأخذ نفسًا عميقًا غاضبًا، ثم قال بغیظ:
- عزة عادل عبد الله الدسوقي، اللي كلفت صلاح
بالتحري عنها.

- الراجل العجوز اللي كان على موتوسيكل اسمه في
البطاقة عزة عادل عبد الله الدسوقي؟!!

ضحك ضحكة أججت رغبتی المستمیتة في صفع قفاه،
خصوصًا أنه قال بنبرة تحتقر سخریتی منه:

- اسمه في اسم عزة الرباعي لأنه أبوها، عادل عبد الله
الدسوقي.

- أبو عزة ميت يا فادي، ما تجلطنیش.

- ميت إزاي يا برو؟! إحنا استعلمنا عنه. ورقه تمام وما
عليهوش سوابق، ومفیش شهادة وفاة، ولا تصریح دفن
باسمه، وصلاح من ساعة ما فهمته إن ده نفس الاسم

اللي سُفته في البطاقة وهو قالب الدنيا عشان يجيبهولك
ويصلح غلطته.

اللعنة، فادي حلّ القضية!

لم يحل قضية ذبح فوزي فحسب، ألا يمكن أن يكون
دودو اسم تدليل لعادل؟

انشغلت بربط الأمور ببعضها، ولكن فادي ما كان ليترك
ثانية تمر من دون أن يختبر صبري. قال بنبرة شامته وهو
يربت على كتفي كأنه يلقني درسًا:

- أنا كده عملت اللي عليّ، أسيبك بقى تشوف مين اللي
غفلك وأقنعتك بأن عادل ميت يا برو.

* * *

سمعت غناء فيروز الملائكي وأنا أفتح باب شقتي ترافقه
دندنة دليلة الناعمة وصوت عليا النشار:

تذكرتك يا عليا وتذكرت عيونك

ويخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين

دخلت الصالة التي لا تخلو من رائحة البخور المشتعل
منذ زيارة فوزي البغيضة لشرفتي. دليلة ممسكة بطرف
تنورتها المزركشة التي تشبه تنورات راقصات الفلامنكو،

وتدور بخفة وهي تحمل الصغيرة وتهزها بلطف على
إيقاع الأغنية التي تصدح من التلفاز، ويتكرر بين كلماتها
اسم عليا. أما علي، فكان ممدداً على الأريكة يضع كاحله
الأيمن فوق ركبته اليسرى، وإلى جواره صندوق ممتلئ
بكتب وألعاب دليلة في طفولتها. يقرأ قصة مصورة، ويتابع
رسوماتها بتركيز عجوز متقاعد يقرأ جريدة الأهرام.

أشارت دليلة إليّ بابتسامة مرحة كي أنضم إليها، ولكنني
هزئت رأسي بـ«لا» فاترة، وقلت لها بنبرة عكرت صفوها:

- عايزك.

* * *

استفردت بدليلة في غرفة المعيشة، وقد أصابتها عدوى
ضيقني ومبتدأ سخطي وأنا أسألها من دون مقدمات:

- عزة كلمتك قبل كده عن واحد اسمه عادل؟

- لا.

- ولا حكيتك أبوها مات إزاي؟

- أنا ما سألتهاش عن أبوها ولا ع...

- أو مال كنت بتسألها عن إيه يا دليلة؟!

أدركت مدى انزعاجي فاقتربت مني مبتسمة على اعتبار



أنها ستلطف الجو، فكادت تضغط على طابع حسني في محاولة لقلب الجد إلى مداعبة، ولكنني أبعدت ذقني عن يدها لتفهم جدية الوضع.

أباد تجهمي ابتسامتها، فزمت شفتيها، وتركتني أستأنف حديثي وأنا أعدد لها على أصابعي:

- قلتيلي إن عزة تبقى بنت أمل، وإنها أرملة، ویتيمة الأب، وولادها علي وعليا. ولا معلومة من دول صح. أبو عزة عايش وهي غفلتني عشان تشيل التهمة عنه.

قالت بصوت خفيض لا يخلو من التوبيخ:

- هو أنا مخبر كلفته بمهمة فإداك معلومات غلط؟ كرىشندو الجز عليّ ده هيخلص إمتى يا نوح؟

- مش بجز عليكى، بس أنا لو أعرف من الأول أن أبو عزة عايش كان هيبقى أول واحد أشك فيه وكان زمانى قابض عليه ومقفل القضية لو حدي بدل ما أطلع أهبل ومتغفل قدام سي فادي.

- ما طز في فادي! الكل عارف شطارتك في شغلك يا نوح. ده اللي منرفزك عليّ؟

- اللي منرفزني إنك مش مقدرة إن كان بينك وبين الوقوع في دائرة الاشتباه بصمة واحدة. أمل كانت ممكن تخلص

عليكي، وعزة وأبوها كان ممكن يلبسو كي جريمتهم.
 إنتي مش مستوعة عدم تركيزك كان هيورطنا في إيه!
 وضعت يدها على فمها كأنها تحاول أن تكتم جملة كانت
 ستفر من بين شفتيها المكتنرتين. أغمضت عينيها، وزفرت
 ببطء، ثم قالت بهدوء وهي تعاود فتحهما في محاولة
 لكظم غيظها:

- ده تحليلك النهائي؟ المصايب دي كلها سببها عدم
 تركيزي أنا؟!
 - أو مال أنا؟

زمت شفتيها مرة أخرى، وبدأت تحك عنقها حتى احمرَّ
 جلدها، ثم قالت أخيراً بغیظ شديد:

- أنا هعتبر إن الكلام السخيف اللي بتقوله ده بسبب
 أعراض الانسحاب اللي عندك.
 - ما تظبطي كلامك يا دليلة! هو أنا بشم كُلة؟!

- لأ يدوبك كنت بتخلص علبة سجائر في اليوم. أنا كنت
 عارفة إنك لما تبطل هتقريف، وخلقك هيضيق أكثر ما
 هو أصلاً ضيق.

- عارفة منين؟ من تويتر؟!

لمعت عيناها باستنكار سخرיתי منها، فقالت بحدة:

- أنا بقالي ست سنين مبطله تدخين يا نوح. عقبال ما إنت
كمان تبطل سجاير وMansplaining.

بحق الجحيم ما معنى هذا المصطلح؟!

زفرت ببطء مرة أخرى، أظنها تحاول تهدئة نفسها، وأظنها
نجحت في هذا، لأنها قالت ببرود وهي تُرجع شعرها
خلف أذنيها:

- اتعشيت؟

أعوذ بالله من لامبالاتها! كيف لا يزعجها كذب عزة
عليها؟

- إزاي فاتك إن عزة ملهاش صورة واحدة زي ما صور
ميريت في كل حته في شقة أمل؟ إزاي ما استغربتيش
من إنها بتناديها ماما أمل مش ماما على طول زي ما
الناس الطبيعية بتعمل؟

- يعني برضو مُصر تتخانق؟

- مُصر أفهم كنت بتقضي الساعات دي عندها ترغوا
في إيه؟

انتفضت كأن عقرباً لدغتها وسممتها بحنق أفقدها هدوءها

الذي تشبث به منذ مطلع هذا النقاش الغليظ، وقالت
باحتراد أبرز العرق الذي يتوسط جبينها وجعل صوتها
أقرب إلى الفحيح:

- ما كنتش برغي معاها. كنت بلعب مع طفلين، أمهم
ما تعرفش إني ما بخلفش، ومش بتبص لي بشفقة كل
ما أقرب من ولادها زي ما أختك بتعمل، ولا بتخاف
تحكي لي عن حملها فيهم، زي ما مرات صاحبك بتعمل.
يا رب تكون فهمت!

ليتني ما صعّدت الأمور إلى هذه الدرجة!

فتحت الباب، وخرجت تضرب الأرض غيظاً في طريقها
إلى غرفة نومنا. لحقت بها في محاولة لإصلاح الموقف،
ولكن ندائي لها واجه آذاناً صماء حتى حسمت الأمر
بأن وقفت عن عتبة الباب، وأمرتني بنبرة لاذعة نادراً ما
أسمعها منها:

- اختفي من قدامي!

صفعت الباب في وجهي، وتركتني أحاول استيعاب
شكواها من نادية وآسيا اللتين ظننتهما صديقتين مقربتين
لها، ولكن يبدو أن تفاصيل كثيرة فاتتني، إلى درجة أنهما
صارتا بالنسبة إليها «أختك» و«مرات صاحبك».

قررت ترك مساحة لها حتى تصفو الزوبعة التي خلقتها
بإصراري على السخافة، وقبل أن أبتعد عن باب غرفة
نومنا سمعت صوتًا خائفًا، صاحبه يقف خلفي في الطريقة
ويسألني:

- إنتو بتتخانقوا بسبيننا؟

التفت فوجدت علي يقف ممسكًا قصته المصورة وفي
عينيه الرماديتين لمعة القلق التي لا تغيب عنهما.

لقد عكرت صفو البيت كله!

جثوت على ركبتي أمام الصغير المضطرب، وقلت له
بابتسامة أتمنى أن تهزم مخاوفه:

- لآ، طبعًا. ده إحنا مبسوطين جدًّا إنكم معانا. مش إنتو
كمان مبسوطين؟

هز رأسه بسرور خجل، فمددت يدي، وأخذت منه قصته
لأغير دفة الحديث قائلًا:

- بتقرا إيه؟

- تان تان راح بورسعيد والأشرار حبسوه في تابوت هو
وكلبه، ورموهم في البحر.

تفقدت الغلاف، كان لمجموعة توأبيت بداخلها شخصيات

كرتونية، ويسير بينها فتى أشقر، له تسريحة شعر عجيبة،
ينظر إلى الأرض متتبعًا آثار سيجار، ويجاوره كلب أبيض
يشبه لولو، كلبة جدتي التي ماتت منذ عامين. لم أفهم من
المكتوب على الغلاف سوى كلمة فرعون وسيجار، لأن
القصة بالألمانية كباقي كتب دليلة من طفولتها.

أنا في حاجة إلى سيجارة!

حككت شفتي المشتاقين إلى ملمس «ورق البفرة» بينهما،
وأنفي الذي يحن إلى نفس دخاني. اللعنة، دليلة على حق،
أنا فعلاً أعاني أعراض الانسحاب من إدمان النيكوتين!
لا داعي إلى الإفراط في تحليل إدمانك الآن يا نوح
يا محور الكون، اشغل نفسك بشيء أقيم.

نظرت إلى علي وسألته:

- بتفهم ألماني؟

- طنط دليلة اللي قريتهالي. ماما عزة برضو كانت بتقرالي
حواديت.

مهلاً، إن كان أبو عزة حيًا، هل كان متداخلاً مع الطفلين؟
هل يعرفانه؟ كيف اهتممت باستجواب الجميع عدا
الشاهد الرئيسي؟

- طب وجدو عادل، كان برضو بيقراالك؟
- لأ. كان بيحكيلنا من غير كتب.
- ممتاز، الفتى يعرف أن جده حي يُرزق!
- هو كان بيجيلكم كثير؟
- لأ، عنده شغل كثير في الورشة.
- وفين الورشة؟
- مش عارف. مش بنروحله.
- ولا بتروحوله البيت؟
- هو بيجيلنا.
- كثير؟
- لأ.
- فاكّر آخر مرة شُفته إمتى؟
- لما كنت نايم في الصالة زي ما ماما عزة قالتلي عشان
تيتة أمل ما تهربش، بس أنا...
- اختنق صوته، فوضعت يدي على كتفه في محاولة لطمأنته،
بينما يقول:
- أنا ما سمعتش الكلام وجالي نوم. أنا آسف.

فاض دمعته، ليس من العدل أن يشعر طفل في الثامنة من
عمره بالذنب لأن النوم غلبه، ملعونة الظروف التي جعلت
روحه تشيب قبل رأسه!

ضممته، وحاوطته بذراعي، ورحت أربت على ظهره
وأنا أقول:

- يا حبيبي إنت تنام براحتك. دي حاجة لا تخليك تتأسف
ولا تعيط.

- ما أنا نمت نسيت باب أوضتنا مفتوح، وعلياً طلعت
تمشي ودخلت على جدو. جدو زعقلي وقال لي راجل
البيت لازم ياخذ باله من كل حاجة. علياً كانت ممكن
تتعور.

«أنت رجل البيت» الجملة الغبية نفسها التي قيلت لي وأنا
في العاشرة من عمري في أثناء جنازة أبي.
مسحت دموع المسكين بكفّي بينما أسأله:

- إنت صحيت لقيت جدو في الشقة في نفس اليوم اللي
تيتة أمل لعبت معاكم لعبة الفاس؟

هز رأسه مؤكداً كلامي، وبدأ يمسح دموعه، بينما أ طرح
عليه سؤالاً آخر:

- شُفته فين في البيت؟

- في المطبخ. عند التلاجة.

* * *

رفضت دليلة التحدث معي، وظلت معتصمة في غرفة نومنا،
فرضخت لرغبتها، وتركت لها مساحتها الشخصية، وكل هذا
الهراء الحديث الذي ينصح به خبراء العلاقات الزوجية.

بقيت في الصلاة، أتابع لعب عليا، وعلي يشرح لي
الرسومات في تان تان حتى اتصل بي قطز، فأدركت
أنني رحلت عن القسم بعد المحادثة السخيفة بيني وبين
فادي، ونسيت أن أطلعه على المستجدات.

شاركته تفاصيل ما عرفته من فادي، ثم ما عرفته من علي،
وهو بدوره أخبرني بحصوله على الموافقة لنش الحديقة
بحثاً عن جثة سمير خفاجة، فقلت له:

- هتوصل تلاقيني مستنيك.

ارتديت كمّامتي، ونزلت إلى الشارع بعد أن أعلنت هذا
لدليلة فكانت إجابتها:

- خد معاك الزبالة.

* * *

لم يبالِ أحدٌ بإغلاق بوابة حديقة أمل.

ما زالت على الحال نفسها التي تركتها عليها ليلة موتها؛
بوابتها مواربة، وظهرا مقعديها لشجرة اللبخ العطرة،
ووجهاهما لشجرتي البونسيانا والجاكرندا، وحتى أمل
نفسها ما زالت جالسة في مكانها، أقصد روحها.

كانت في الثوب الأبيض نفسه، شعرها الأبيض مسترسل
على ظهرها كالشلال، وعيناها تتأملان شجرة الجاكرندا،
وتغني «أمورتي الحلوة».

انتبهت لصرير البوابة التي دفعتها حتى أدخل الحديقة،
فتوقفت عن الغناء، ونظرت صوبي بانتباه ويقظة كافأها
بهما الموت الذي عتقها من تهيوّات الزهايمر وغياهب
الخرف.

لا أحد في الحديقة أو محيطها سواي، إن كنا سنحسب
الأحياء فقط، ومع ذلك وضعت سماعتَي اللاسلكيتين
في أذني على سبيل الاحتياط، ودنوت من روح أمل
قائلاً:

- سلام عليكم يا مدام أمل، أنا نوح الألفي.

طرقت أصابعها كأنها وجدت ضالتها بين حنايا عقلها:

- إنت الشاب اللي جابني الجنينة قبل ما أموت، صح؟

قليلاً ما أقابل روحاً تعرف أنها ميتة من دون أن أشرح لها،
وهذا يسهل عليّ التواصل معها.

- صح. ينفع أقعد معاكي شوية؟

أجابتنني بابتسامة صافية كالتي ارتسمت على وجهها قبل
أن تموت بلحظات:

- ينفع خالص.

ألقيت بدني المرهق على المقعد، وأرخيت رأسي على
ظهره، متجاهلاً أطراف الخوص البالية التي توخر قفايا،
وشغلت نفسي عنها بتأمل تلالؤ النجوم المتناثرة على
سجاد الليل الأسود.

نظرت أمل إليّ، ثم سألتني:

- إنت عايش ولا ميت؟

- أنا ما بين الاتنين.

لم أرد أن أكون ثقیل الظل، ولكني منهك لا أملك طاقة
لشرح كيف أكون حيّاً وأرى روحها. كانت أمل لطيفة بما
يكفي لتجاوز ردي الجاف وطرح سؤال آخر:

- إنت جوز جارتنا اللي بتلعب مع علي وعليا؟

- آه.

- علي وعليا يحبوها جدًا. الأطفال ما يحبوش غير الحنينين.

- دليلة فعلاً حنينة وتتحب.

هزت رأسها متفقة معي، وتلفتت حولها ببطء حتى سألتني مستنكرة:

- الجنيينة حالها بقى صعب كده ليه؟

عجيب أن يكون هذا ما يزعجها بعد موتها، ولكن بما أنها فتحت موضوع الحديقة فعلياً أن أستغل الفرصة.

- عشان محدش عتبها من ساعة ما دفنت فيها بسام.

استدارت بنصفها العلوي كله حتى تصب جم انتباهها عليّ، وسألتني بنبرة ساخرة مخلوطة بالاستغراب:

- أنا قتلتك إيه قبل ما أموت؟

- قلتيلي إنك دفنت بسام حي وزرعت فوقه شجرة البونسيانا الصفرا دي.

ضحكت بعدوبة، وضربت كفّاً بكف، وقالت:

- وإنّ صدقت؟

- وليه لأ؟

- لأن القتل لو كان بالساهل كان زماننا انقرضنا! من ساعة ما شُفت ميريت بتتداس قدامي ولحد ما الزهايمر أكل عقلي وريحني من العذاب اللي كنت فيه، وأنا بحلم أدفن بسام حي. مجرد أحلام يقظة ما حاولتش أنفذها. أنا أقتل؟!

- إنتي ما بتقتليش واحد بريء يعني. بسام قاتل ومجرم!

- وأنا مش مجرمة زيه.

بقيت أصدق إليها، لا أصدق حرفاً مما تقوله، لم أقابل شخصاً يرفع عن الثأر من قبل.

قالت كأنها قرأت أفكارى بالحرف:

- معقول مش مصدق إن الدنيا فيها مظالم بيسلموا أمرهم لله؟

عاودت الاسترخاء على مقعدها وتأمل النجوم، كذا فعلت، فساد الصمت وطغى.

لست في حاجة إلى اعترافها بقتل بسام أو نفيه، سنحفر حديقته الليلة بحثاً عن أسرارها المدفونة، ولكن لا ضير من محاولة استخراج معلومة أخرى منها قد تفيدني.

- دودو اللي كنت بتناديني باسمه ده يبقى عادل أبو عزة ورحاب؟

ابتسمت ابتسامة واسعة رقيقة، ثم سكتت، فاعتبرت أن
السكوت علامة الرضا.

قالت بصوت رقيق شديد الأنوثة يصغر عن عمرها بما لا
يقل عن ثلاثين عامًا:

- كَلِّمْ محمد وأجر منه الجنية. اهتم بيها إنت ومراتك، بس
او عى تخلع شجرة الجاكرندا من مكانها، دي شجرة ميريت.

- هنعمل إيه بكل الجنية دي؟

- حطوا ألعاب وخلوا ولادكم يتبسطوا فيها بدل
الموبايلات والقرف.

- معندناش أولاد.

- بكرة يبقى عندكم، أو مال هتودوا الحنية دي كلها فين؟

- هنوزعها على أولاد إخواننا وأصحابنا. إحنا اتحررنا
من الخلفة.

استغربت قولي لهذه الجملة بصوت عالٍ ومن دون
تجميل. أتجنب الحديث عن الأمر منذ أن استأصلت
دليلتي الجزء العلوي من رحمها، وأتجنب حتى التفكير
فيه بيني وبين نفسي، كأنني أسير على أرض ملغمة، أبسط
حركة ستفجر فجيرة حرمان أنا في غنى عن احتوائها،

ولكن هذه ميزة الفضفضة مع أرواح الموتى، فسرك
سيموت معهم، حرفيًا.

علقت بنبرة رفق تخلو من الشفقة الكريهة التي تندمك
على مصارحة الناس بما يضيق به صدرك:

- تحب تسمع رأي واحدة ضيعت من عمرها فوق
العشرين سنة وهي بتحاول تخلف؟
- أحب.

- مش عشان ربنا حرمكم من نعمة الخلفة، تحرموا أنفسكم
من نعمة الأبوة.

لم تفسر مزيدًا، عادت إلى تأمل نجوم السماء، فكنت
سأطلب منها توضيحًا، ولكن قاطع جلستنا الروحانية
رنين هاتفي، لأن الخيبة الكبرى تتصل بي.
أجبهته متأففًا:

- ها؟

- عم عيالي. أبو النحايح. أجدع دكر في قسم قصر النيل
كله و...

- مفيش داعي للتطيل ده يا صلاح، أنا مش هخبص
عليك للوارشوان.

- ده العشم يا نحنو حة. قطز قالي إنك مستنيهم يطلعوا
الميتين اللي عندك. فقلت آجي أونسك، بس ما خلصنيش
آجي منطقتك وإيدي فاضية. اخرجلي.

أنهيت المكالمة من دون سلام، وعاودت ارتداء كمامتي،
ثم استأذنت أمل كي أخرج وأنا ألعن سلوك البراغيث الذي
يتبعه صلاح معنا، فإن تخلصنا منه في العمل عض جلدنا
ولحقنا إلى بيوتنا.

خرجت من الحديقة فوجدته في سيارة الشرطة وإلى يمينه
فادي، وخلفه رجل جاوز السبعين، له عينان رماديتان
ووحمة سوداء على خده البض تمتد من جفنه وحتى
عظمة خده، ويداه مكبلتان وراء ظهره.

هل صدق فادي وحقاً وجدا والد رحاب؟

اقتربت من صلاح وسألته وأنا أشير إلى العجوز المكبل
في الأريكة الخلفية:

- إيه الكلام؟

التفت صلاح إلى العجوز الجالس في صمت، وقال بنبرة
منتصرة أكدت تخميني:

- مش تقدم نفسك لسيادة الرائد؟

ارتسمت على وجهه التعبيرات التي ترتسم على وجهي
بعدما أنتهى من مجالسة ابني أختي المزعجين، ثم قال:
- أنا رُحت القسم أسلم نفسي، سعادة الباشا كلبشني
وجابني هنا وقال...

قاطعهُ صلاح بضيق:

- لا إحنا مش مطلقينك مع منى الشاذلي! قول الخلاصة،
الباشا وقته مش ملكه!

زفر العجوز بضجر، وقال بثبات انفعالي مدهش:

- أنا عادل عبد الله الدسوقي، أنا اللي قتلت فوزي رفعت
زهر وسمير خفاجة.

وجدنا أسفل شجرة البونسيانا جثة وحيدة، للدقة وجدنا
هيكلاً عظيماً. عرفت سيليا من أول نظرة أنه لرجل، ولكن
أي رجل، سمير خفاجة أم بسام التميمي؟

استمررنا في البحث والحفر والنبش، وكانت النتيجة أن
ما من جثة مدفونة في حديقة أمل غير جثة سمير خفاجة
الذي دلنا عادل على مكان دفنه له منذ ست سنوات.

قال إنه استدرجه بعد أن صدر الحكم النهائي بسجن
قاتل ابنته سبع سنوات فقط بفضل تلطيخ المحامي الوغد
لسمعة ابنته، واستعطاف الرأي العام، واستجداء رافة
القاضي. ترصده وانتظر نزوله في ساعة متأخرة من مكتبه
ثم اختطفه. اعترف بخنقه، ثم دفنه في الحديقة، وزعم أن
لا أمل ولا عزة على علم بما ارتكبت يداه، على الرغم من
أن تظاهر عزة بموت أبيها يوحى بغير هذا.

لاذ عادل بالفرار بعد أن حقق ثأره. استأجر محلاً ضيقاً
اتخذه ورشة ومسكناً في حارة غير التي وُلد وكبر
وتزوج وأنجب وقُتلت ابنته فيها. حارة لا ذكريات، ولا
ونيس، ولا أنيس له بين سكانها. اختبأ بين ظلال البيوت
عشوائية التخطيط، ونباح الكلاب الشاردة، وتذمر الشباب
المحبطين، وشكاوى العجزة، كلٌّ يدور في فلكه، من دون
أن يتنبهوا إلى أن الغريب الذي يمضي ليله في صناعة حُلي
من أرخص الخامات، ونهاره في بيعها على فرشاة رصيف
أقرب محطة مترو لطالبات جامعيات يبحث عن وجه ابنته
القتيلة فيهن، ويضطرب كلما لمح ظل عسكري أو ضابط
أو سمع سرينة سيارة شرطة، متصوراً أنهم يعرفون فعلته
الكفيلة بعقد حبل المشنقة حول عنقه.

لم يكن هناك داعٍ إلى مخاوفه، ولا إلى تظاهر عزة بموته،
لم يعرف أحد بمقتل سمير لعدم العثور على جثته، ومن ثمَّ
لم تُوجَّه إلى عادل أي اتهامات، ولم يستجوب حتى.
اختفاء سمير خفاجة قضية طواها النسيان، حتى إن زوجته
تطلقت منه تطلقاً للغيبة بعد اختفائه بسنتين، وأمه التي
كان يعقها، على حد كلام عادل، ماتت، وبعدها بعام
لحق بها أبوه.

انمحي سمير خفاجة من التاريخ كما يستحق أن ينمحي

كل من على شاكلته. وعلى الرغم من استتباب وضعه،
فإن عادل لم يتخلَّ عن حذره، على الأقل حتى ثالث أيام
عيد الفطر لسنة ٢٠٢٠ الملعونة.

استيقظ وأذان الفجر، كعادته، وفي أثناء الوضوء أته
مكالمة من عزة، قالت فيها:

- الحقني يابا، فوزي هنا!

يقول عادل إنه ارتدى كمامته، وقبعته الرياضية، ونظارته
الشمسية، ثم اقتحم الحديقة، وتسلق كومة الرمل، وقفز
فوق سور الشرفة ليداهمه، وما إن رأى فوزي يقف أمامه
حيًّا يُرزق غير مكبَّل بالأصفاد التي يستحق أن تظل في يديه
إلى الأبد، يرتدي زياً يدل على أنه وجد عملاً جديداً وفي
يده اليمنى خاتم خطبة، حتى اشتعل صدره بانتفاضة لم
يخطط لها، فكيف يرضخ لواقع أذل القتيلة وأكرم قاتلها؟
لم يشعر الأب المفجوع بنفسه إلا وهو يحطم وجه فوزي
بالخوذة، ثم يقطع رأسه ثم كفيه.

أظنه صادقاً فيما يخص الذبح وبتتر الكفين، ولكنني أعلم
علم اليقين أن عزة هي التي كسرت عظام وجه فوزي ثم
استغاثت بأبيها، فظن أن فوزي مات فعلاً بسببها ففعل ما
في وسعه لتطهير موقع الجريمة من أثرها، وإلا ما الهدف
من بتتر كفيه والتخلص منهما إلا لإخفاء معالم المقاومة

التي قاومتها عزة له؟ لا بد أن عادل يعرف قيمة هذه الأدلة الجنائية بسبب قضية رحاب.

مبلغ علمي في هذه القضية أن هذا الأب لن ينطق بحرف يورط ابنته جنائياً في ثأره من فوزي وسمير خفاجة، حتى لو كانت شريكة أصيلة في قتلهما، وإن ضغطت عليه، وفي الحقيقة أنا لا أنوي الضغط عليه.

وضَّح لنا أنه وضع كفي فوزي وأوراقه الشخصية وخودته في حقيبة ظهره ليتخلص منها، ويعسر على الشرطة الاستدلال عليه، وبالتالي ربطه بعزة، ولكن شعر بأن هذا لن يكفي، كما أنه لا يملك الوقت لدفنه في الحديقة كما دفن سمير من قبله، لأن الصبح طلع وسينتهي حظر التجول خلال دقائق، وقد يمر أحدهم أمام البوابة المفتوحة على مصراعيها فيفتضح أمره، فما كان ليتفتق عن ذهنه سوى حل هو في رأبي شديد الخسة؛ إلصاق الجريمة بأمل.

نعتها بالمحظوظة التي أنعم الله عليها بالنسيان الأبدي والخلاص من عذاب العيش من دون فقيدتها، فاستحل توريطها في جريمته على اعتبار أنه لن يُحكم عليها بالإعدام أو حتى السجن، بما أنها فاقدة للأهلية، وشقيقها يملك ما يكفي من المال للعناية بها.

استلهم تتمة جريمته من مشهد النهاية في فيلم أرتيميسا. وضع الرأس في طبق تخليط الأسمنت الذي وجدته ملقى في زاوية بالصالة، وصعد درجات السلم تاركاً خيطاً من الدم والرمل وراءه وصولاً إلى شقة أمل. فتحتها بمفاتيح عزة، يقول إنها سقطت منها سهوًا في الحديقة حين لمحت فوزي وهربت من دون وقوع أي مواجهة بينهما، ولكن يمكنني الجزم بأنه طلب منها أن تترك له المفاتيح كما تركت الخفين.

دخل غرفة أمل، لطخ ثوب نومها ويديها بدماء الضحية، وأغلق قبضتيها على الفأس لترك بصماتها عليها، ثم همَّ أن يخرج ليضع الرأس في الثلاجة، ولكن أمل استيقظت، قال إنها حدثته على أساس أنه مخرج فيلمها فجاراها في حديث ثم غادر، ما كان ليتصور أبدًا هذا التصاعد العنيف وهجومها على حفيديه وزوجتي.

ترك الرأس في الثلاجة، وقبل أن يغلق بابها تفاجأ بوجود عليا، لم يكن يعرف أنها تسير نائمة. صاح فيها لتعود إلى غرفتها فاستيقظت مفزوعة وبكت، وبالتبعية استيقظ علي على صوتها، فوبخه جده، وانتظر أن يحمل شقيقته ويضعها في سريرها حتى يهرب من الشقة.

نزل إلى الطابق الأرضي، دخل شقة المهندس محمد،

وأوصد قفلها الداخلي، ظناً منه أن هذا سينفي دخول
عزة إليها، ثم حمل حقيبته على ظهره، وانتشل مفاتيح
دراجة فوزي النارية التي غادر بها موقع الجريمة، وبرر
سرقة الدراجة بأنه ظن أنها مسجلة باسم فوزي، وقد
تدل الشرطة على هويته، لم يحسب أن الخيبة الكبرى
والخيبة الصغرى سيرصدانه، وأنا سنجد القاتل بفضل
غرامة قدرها خمسون جنيهاً!

تخلص من حقيبة الظهر ومن الدراجة النارية، وعاد إلى
مخبئه ينتظر أن تظهر عليه أعراض الكورونا، ولكنه لم
يُصَب ولو حتى بزكام عابر. وهذا يؤكد أكثر أنه لم يواجه
فوزي وهو على قيد الحياة، فلو كان قاومه كما قاومته
عزة لأصيب بالعدوى، لأنه تلوث بأنفاسه الموبوءة،
ولكن عادل تلوث بدماء فوزي فقط، والكورونا لا تُنقل
بالدم.

أخبرته عزة في رسالة بأنها أصيبت بالكورونا، وأوصته
على حفيديه، فبقي على تواصل معها يومياً يشجعها على
مقاومة المرض، حتى عرف منها اليوم أن حالتها الصحية
سوءت، وأنها يئست من الشفاء، فزيفت أقوالها، ونسبت
قصاص أبيها إلى نفسها، فأبى أن تحاكم ابنته الوحيدة
على ذنب - على حد أقواله - لا دخل لها به من قريب

أو من بعيد، فأتى إلى القسم ليسلم نفسه إلى السلطات،
وها هو ذا الآن يجلس على مقعد في مكتبنا في مواجهة
وقطرز وكاتب المحضر.

أنهى أبو رحاب حكايته المفصلة، وارتشف كوب ماء
قدمته له، بينما يسأله قطرز:

- وليه عزة تنسب لنفسها جرائم ملهاش دعوة بيها؟
- عشان أحفادي ملهمش غيري أنا وهي. لو حد فينا
اتسجن الثاني هيربيهم.

هز قطرز رأسه متفهمًا تفسير عادل، ثم أضاف:

- يعني عزة ما دخلتش موقع الجريمة خالص؟

- ما عتبهوش. أنا اللي عملت كل حاجة.

- وبصمتها اللي لقيناها على الإزاز؟

- عزة مسؤولة عن أمل وعن شقة محمد، وكانت بتقف
بنفسها مع الصنایعية وقت التشطیب. فین الإشکال فی
إنکم لقیتموا بصمتها؟

انحنى قطرز صوب المكتب، وقال بنبرة شديدة التضامن:

- يا أسطى عادل، أنا فاهم اللي إنت بتعمله. بس كل تقارير
الطب الشرعي بتأكد إنها كانت موجودة في الشقة وقت

الجريمة. البصمة اللي ليها في الشقة عليها دم القتل،
وساعة القتل فيها شعرها. هتفسر ده للنيابة إزاي؟
قلِّب نظره في أرجاء المكتب وهو يأخذ أنفاسًا قصيرة
متتابة، كمن يبحث عن منقذ، فما كان لي إلا أن أتدخل
وألقي إليه طوق النجاة.

أشرت إلى كاتب المحضر أن يمسك عن الكتابة، ففهم
مرادي من نظرة واحدة حفظها بفضل سنوات من العمل
معًا، ثم قلت وأنا أنظر إلى عادل متمنيًا أن يكون سريع
البديهة:

- هيفسره بإن عزة كانت في موقع الجريمة فعلاً. البواب
اعترف إنه استدرجها لفوزي، وفوزي حاول يتهجم
عليها، فحصل بينهم اشتباك ومقاومة بغرض الدفاع عن
النفس. بعدها عزة هربت من الجنيحة، وكلمت أبوها فجِّه
ينجدها بدون نية مبيتة للقتل. الموضوع تصاعد تلقائيًا
بدون أي أداة بطبيعتها سلاح. كان لوحده من أول ما
ضرب فوزي بالخوذة ولحد ما حط راسه في التلاجة.
مضبوط كده يا أبو رحاب؟

التقط الطوق، وابتسم برضا قائلاً:

- الله ينور عليك يا ابني. ده اللي حصل بالضبط.

أشرت إلى الكاتب أن يتابع التدوين، فسجل أقواله وقطر
يميل برأسه يمينًا ويسارًا كأنه يزن ما قلناه ويقارنه مع
القرائن والأدلة الجنائية حتى نفّس عن آخر ما يقلقه:

- ليه بصماتك مش موجودة في محيط موقع الجريمة؟

- عشان أنا معنديش بصمات.

رفع يديه أمامنا كاشفًا عن كفين لونهما أفتح من باقي
جلده، وتلمعان تحت ضوء المكتب الأبيض الكئيب،
والخطوط التي تميز بصمات إنسان عن آخر مخفية تمامًا،
كأن معالم أنامله مُسحت بممحاة.

تأملت أصابع وخطوط يديه كقارئ كف يحاول الاستدلال
عن مستقبل زبونه، ثم سألته:

- ده من شغل الإكسسوار؟

- أيوه، أنا وارث الشغلانة دي من وأنا ابن تسع سنين،
لحد ما صوابعي دابت وما بقاليش بصمات. خلاص
يا باشوات، صدقتوني؟

هزرت رأسي قائلاً:

- صدقناك يا أبو رحاب.

- وحياة عيالكم تمشوا العساكر من عند عزة.

أشرت إلى الكاتب أن ينهي عمله ويغادر المكتب، فنفذ
أمري.

ملت نحو عادل حتى التصق صدري بطرف المكتب
وسألته:

- أمل كانت عارفة إنك دافن المحامي اللي اترافع عن
فوزي في جنيتها؟

- آه.

- وعزة؟

- لا! أمل وبس. أنا اللي حطيتها قدام الأمر الواقع. ما كانش
عندي حل ثاني، مكتب سمير في حطة شعبية لو قال أخ
ألف من هيخلصه من أيدي.

- وأمل وافقتك ليه؟

- عشان أم، وقلبها محروق على ضناها زيي.

- يعني مش عشان إنت كمان قتلتها اللي قتل بنتها؟

- ما حصلش.

- متأكد؟

- يا ابني أنا لسه معترفلك بإنني قاتل اتنين، هتفرق معايا
يعني لو كانوا ثلاثة؟

- ما أنا برضو مش داخل عليّ موضوع إنها عملت جنيتها
مقبرة عشان متضامنة معاك، خصوصًا إن أهل بسام
التميمي كانوا متهمينها في قتل ابنهم، والبوليس كان
داخل خارج عليها. اعذرني يعني إنت في النهاية كنت
صنايعي عند أخوها مش أكثر.

- لأ أكثر بكثير، أمل تبقى طليقتي!

اندهشت أنا وقطر، ولكن أبو رحاب لم يشوقنا، سرعان
ما وضح لنا التفاصيل:

- اتجوزنا وإحنا ولاد تسعناش سنة بس ربنا ما كتبناش
الخلفة، وهي راخرة أصرت على حكاية السيما دي.
خناقة في الثانية، قلة صبر مني على عند منها افترقنا
بالمعروف، بس فضلنا بنطل على بعض، حاكم إحنا
ولاد حنة واحدة. أنا اتجوزت بعدها أم رحاب وعزة،
وهي ربنا ما وفقهاش في جوازة دائمة، بس بقت
نجمة مصر الأولى. وشوف ولاد الحلال لما يفارقوا
بالأصول، أول ما ربنا فتحها عليها جرتني معاها في
بوتيك أخوها، وكانت بتساعد رحاب وبتحب شغلها
أوي، كأنها بنتها.

هز رأسه بأسى، ثم ابتسم ابتسامة مريرة، وقال:

- لما حصل اللي حصل وقتلت سمير وهَجَّيت. أمل
 خدت بالها من عزة وأحفادي مع إنها كانت في عرض
 اللي ياخذ باله منها. عزة راخرة شالت أمل في عينيها.
 أمل الغالية، كانت بنت أصول ومعدنها طيب، واللي في
 أيدها مش ليها، ما تتخيرش عن رحاب. الله يرحمهم
 هما الاتنين. تلاقيهم بياخدوا بحس بعض دلوقتي
 وادينني مسافة السكة وجايلهم. نقرالهم الفاتحة يا ولاد؟
 لمعت عيناه بحنين لحب أو ربما لراحة بال وسكينة لن
 يذوقها مجددًا، لا أعرف بما شعر أو ما دار بعقله، وهو
 يقرأ الفاتحة بصوت مسموع أرعشه الحزن، صوت سمعته
 من قبل.

أنهى قراءة الفاتحة وكذلك نحن، ثم مسح وجهه بكفيه
 فرأيت كيف تتبدل ملامحه من الحنين إلى الذنب.

- ويا ريتني حفظت الجميل. الست اللي الدنيا خدت
 منها بنتها وصحتها ومخها جيت أنا كمان وكنت هاخذ
 منها حريتها وأخليها تتحبس في مصحة ولا دار مسنين،
 عشان لطخت توبها الطاهر بدم فوزي النجس.

تغرغرت عيناه وهو يضيف:

- ما كنتش عايز أحرم عليا من أمها زي ما علي اتحرم من

أمه. حاولت أجيب حق بنتي بالقانون اتعذبت، حاولت
أجيبه بدراعي برضو اتعذبت. طب الواحد يعمل إيه
عشان ما يباتش مظلوم في دنيتنا دي؟

خبأ وجهه بكفيه، حتى لا نرى دموعه، وظل يتمتم:

- الله يرحمك يا أمل. الله يرحمك يا أصيلة. الله يجمعني
بيكي إنتي ورحاب. سامحيني يا غالية.

أعرف هذا الصوت المبحوح، سمعته في الصلاة على
جثمان أمل، وفي جنازتها، وفي دفنتها. هذا صوت الرجل
الغامض الذي كان يلبس جلبابًا، وظننته انضم إلينا شفقة
عليها.

يا لسخرية القدر! كنت أبحث عن القاتل وأظنه فرَّ إلى
آخر البلاد بينما يسير إلى جوارى وكتفه بكتفي.

* * *

غادرت القسم في ظهيرة اليوم التالي، أغلقنا المحضر،
وأرفقنا التقرير، وحوَّلنا القضية إلى النيابة، والعدالة
متروكة للقضاء الآن.

ابتعت مزيدًا من المثلجات والحلوى من بقال شارعنا، ثم
دخلت الشقة فتحلق علي وعليها حولي، وما زالت دليلاً
تمارس صمتها العقابي.

لم تستقبلني بالقبلات والابتسامات والسؤال عن تفاصيل
يومي كما اعتدت منها، فحاولت إغراءها بقولي:

- جبتلك آيس كريم.

أجابتنني بجفاف وهي تلملم المكعبات التي تلهو بها عليا
عن الأرض:

- حطه في الفريزر. نص ساعة والغدا يجهز.

* * *

أمضيت نصف الساعة الباقي حتى موعد الغداء منقوعاً
في مغطس الحمّام أقاوم النعاس، فدليلة قد ترى في
نومي وتفويتي للغداء الذي أعدته إشارة إلى تصعيد
الأمور.

خرجت إلى الصلاة عازماً على مناكفتها حتى تلين وتراجع
عن عبوسها في وجهي.

انتبهت إلى أن علي يحمل الأطباق بحذر من المطبخ إلى
مائدة الطعام، بينما تبني علياً برجاً بالمكعبات التي يبدو
أن مجهودات دليلة في جمعها باءت بالفشل.

قلدت علي وساعدت زوجتي على تنسيق المائدة،
فتفاجأت بأنها أعدت حساء لسان العصفور الذي تمقته

مقتًا غير مفهوم، وفي كل مرة أقترح عليها إعدادة لي
كانت تتملص من طلبي، فرأيت في هذا إشارة إلى أنها
تود أن نتصالح.

جلسنا حول المائدة، فقلت لها وأنا أناولها طبقي حتى
تغرف لي بعض الحساء:

- تسلم إيدك. مش مصدق إنك أخيرًا عملتيلي شوربة
لسان عصفور.

- دي لعلي!

ما أسخفك يا دليلة!

التفت إلى علي الذي ينظر إلى الحساء بلهفة لا تقل عن
لهفتي، وقررت ألا أحاول مناكفتها مرة أخرى، أنا مرهق
بما يكفي.

جلست إلى جوارِي، وانشغلت بتقليب طبق عليا التي لم
تمر دقيقة على جلوسنا إلا وكانت لطخت ثوبها الأصفر
بصلصة البازلاء.

انتقلت من طبق عليا إلى طبق علي، فبدأت تُقطع له اللحم
قطعا صغيرة وهي تقول ببهجة حرممتني منها:

- دوق الشوربة يا لولو وقولي رأيك.

تجنبنا الالتفات إليّ، وتجاهلت سؤالي عن رأيي، وأنا
بالتبعية تجاهلت التعليق على تعاملها معي كأنني لست
موجوداً.

تذوق علي الحساء بطرف ملعقته ثم ابتلعه من دون أن
ييدي نفوره أو قبوله، فسألته دليلاً بقلق لم أستشعره منها
وهي تغصبني على أكل البراونيز بالكوسا البشعة التي
تعلمتها من تيك توك، ولا وهي تتخذني فأر تجارب طيلة
تعلمها للطهو.

- لو مش عجبك يا حبيبي قللي، مش هزعل.

- الحمد لله، أكل ربنا كله حلو.

والله إن ابن السنوات الثماني هذا يتحدث كجدي حسين
وهو في الثمانين.

أشفقت على الصغير، يجب أن يتعلم التعبير عن احتياجاته،
فسألته:

- قللي ناقصها إيه وأنا أظبطها لك.

نظر إليّ بتردد فابتسمت حتى يتشجع على الكلام:

- ماما عزة كانت بتعصر عليها لمونة.

- صح، لسان العصفور ما يتشربش من غير لمون.

همّت دليلاً أن تنهض لتحضر الليمون، ولكنني سبقتها
بحمل طبق علي وطبقي، واتجهت في صمت إلى المطبخ.
أشعلت النور، ووضعت الطبقين على الرخامة، بينما
أخذ ليمونتين صفراوين نصرتين من الثلاجة، شققتهما
إلى نصفين، عصرت الأولى كاملة في طبقي، ثم اكتفيت
بعصر نصف الثانية في طبق علي وأنا أسأله بصوت مرتفع
حتى يسمعني من المطبخ:

- بتحب اللمون الكثير؟

- لا.

تركت النصف الثاني على الرخامة، وحملت الطبقين
فارتعشت يداي فجأة، وأسقطت الطبقين، بينما يرتعد
بدني كله، وقلبي يخفق بعنف غير مسبوق، كأنني على
وشك الدخول في نوبة قلبية. استندت بكفي ملقياً ثقلي
كله على رخامة المطبخ، وشهقت بحدة، صار الهواء أثقل.
فشلت في تنظيم ضربات قلبي، شعرت ببرودة قادمة من
خلفي انتصب لها شعر بدني كله، كأن أحدهم أطل من
الإسكيمو، ونفث أنفاسه الجليدية على قفايا.

التفت ورائي بحذر حتى لا يجرح البورسلين المتشردم
على الأرض قدمي الحافيتين أو يلسعهما الحساء الساخن،

ولكنني سرعان ما أدركت أن حطام الطبقين هو آخر ما
يتحتم عليّ القلق منه، فثمة كارثة هي التي تسببت في هذا
الماس الكهربائي الذي سرى في أطرافي. كارثة تفوح
منها رائحة فانيليا مخلوطة بالسكر والبرتقال، رائحة تشبه
الكعك الذي كانت تعود به دليلة بعد كل زيارة لعزة التي
تقف روحها في مطبخي الآن، وقد دفعتها العفوية لأن
تربت على كتفي من دون أن تدرك تأثيرها العنيف في
جسدي الفاني وتقول:

- خضيتك؟!!

وقفت دليلة عند عتبة المطبخ، تسألني وعيناها لا تريان
غير الحساء المسكوب والطبقين المكسورين:

- إنت كويس؟

قالتها بلهفة وهي تدخل المطبخ من دون أن تدرك أنها إذا
خطت خطوة أخرى فستلمس روح عزة وتضربها طاقة
كهرومغناطيسية كفيلة بأن تفقدها وعيها.

صحت فيها:

- خليك عندك!

- بتزعق ليه؟ إنت حافي وممكن تتعور.

- أنا هتعامل.

- ومن إمتى وانت اللي بتتعامل في المطبخ؟

- بقولك اطلعي!

أدركت أن أحبالي الصوتية احتدت أكثر من اللازم،
وحملت نبرتي استعداداً مقيتاً.

انسحبت دليلاً من المطبخ وهي تغمغم بكلمات غير
مفهومة، بينما أخذ نفساً عميقاً لاستوعب أبعاد هذه المصيبة.

فعلت ما في وسعي حتى أولف سيناريو براءة عزة وتحميل
أبيها اللوم كله على أمل أنها ستشفى من وباء الكورونا، كما
شُفيت أمي منه، وتستأنف تربية صغيريها، ولكن ها هي
ذي حطمت خططنا كلها، وماتت، وأصبحت روحاً تقترب
مني قائلة بنبرة عتاب:

- إكمنها خايفة عليك تشخط وتنظر فيها كده؟ ده إنتو
رجالة نكد!

هل خسر جهازها التنفسي معركته ضد الوباء اللعين أم
أنها ماتت بفعل فاعل؟

الخيار الثاني ليس واقعياً. لو ماتت بشبهة جنائية لبلغني
الأمر، فمعنى أنني أرى روحها أمامي الآن أنها ماتت منذ

أربع وعشرين ساعة على الأقل . كيف لم يصل إليّ وقطر
خبر وفاتها؟ ألأننا رفعنا الحراسة عنها وأخرجناها من دائرة
الاشتباه لم يكثرث المشفى للتواصل معنا؟

كادت تستأنف توبيخي لأنني احتددت على صديقتها،
ولكنها سمعت عليا تضحك في الخارج، فالتفتت نحو
الباب وقالت بلهفة سمعتها في صوت كل أم تنادي ابنها
إذا طال غيابه:

- عيالي!

أولتني ظهرها لتخرج، ولكني سبقتها، وأغلقت باب
المطبخ قاطعاً عنها الطريق لأقول هامساً:

- ما تقربيش منهم.

- نعم يا عينيا؟!

- افهمي بس . دول مش عيالك بجد . إنتي بتحلمي يا عزة.

- هو أنا بشوفهم إلا في الحلم؟! انزاح بقى عشان أشبع
منهم قبل ما الممرضة تصحيني.

- هسيبك تشوفهم بس ما ينفعش تلمسيهم . يتئذوا.

- يتئذوا؟

- أيوه! اللي يلمسه عيان في المنام يمرض زيه في الحقيقة؟

- يا أخي فال الله ولا فالك. دول اللي حيلتي في الدنيا.

- يبقى ما تلمسيهمش. اتفرجي عليهم من بعيد.

- طيب. سكة بقي!

فتحت باب المطبخ وتركتها تخرج، ثم وقفت أراقبها.

نظرت إليهما بحنان، وتابعت دليلة وهي تطعمهما وتداعبهما. وعدت الصغيرين اللذين لا يسمعانها بأن جدهما سيأتي لأخذهما والاعتناء بهما، لا تعرف المسكينة أنه سيشنق، وأن الصغيرين صارا يتيمَي الأب والأم.

ران عليّ ثقل هذه الفجيرة. لم أعد أحتمل الضغط، والبؤس، والظلم، والقلق. أريد مسكنًا، أريد سيجارة! غادرت الصالة متجاهلاً نظرات دليلة المستفهمة، ولذت بالفرار إلى غرفة نومي.

فتحت الكومود، وبحثت في أعماقه عن السيجارة التي تركتها في علبتها ومعها قداحتي الفضية منذ أربعة أشهر، لحظة أن قررت بدء صفحة جديدة مع رئتي.

وجدت عشيقتي القديمة في انتظاري؛ علبة بيضاء عليها صورة حلق مشوّه منظره ليس أقل بشاعة من منظر حلق فوزي المذبوح، ومربع أسود يحذرني من أن التدخين يسبّب

سرطان الحنجرة. تحسست الأحرف الزرقاء البارزة لكلمة
«وينستون» والنسر الأزرق المحلق إلى جوارها، ثم فتحتها،
وفككت كرب السيجارة الوحيدة فيها، وحررتها من محبسها.
جلست على الأريكة الخضراء الصغيرة في غرفة النوم،
سيجارتني بين أصابعي وقداحتي في يدي اليسرى كما
اعتادت دائماً أن تكون.

ضممتها بشفتي، ثم أشعلت رأسها، وسحبت نفساً. غمرت
رئتي بالدخان، ولوثة دمي بالتبغ والقطران، وخسرت
معركة كنت المنتصر فيها، كما خسرت عزة معركتها مع
الوباء، وخسر أبوها معركته مع العدالة، وخسرت أمل
معركتها مع الزهايمر، وها نحن أولاء كلنا خاسرون!

حررت الدخان الذي كتمته، وتحررت معه دمعة لا أدري
متى تكوّنت في عيني فمسحتها بظهر يدي بعنف، في
محاولة لإنكار حزني!

في الحزن عجز وقلة حيلة وخنوع ومشاعر هشة لا أحب
الاعتراف بأنها تغمرني من حين إلى حين. أفضل الغضب،
أفهمه، أرحب باجتياحه لي، أدعوه لسحقي، ثم أردد له
الصاع صاعين، فأسحقه بدوري، ويظل أحدنا يسحق
الآخر، حتى أموت فيموت معي، وتنتهي الحكاية.

في الغضب ثورة، نار، معركة، هزيمة، ثم انتصار يصح

للرجل أن يتباهى به أمام رفاقه. وفي الحزن ركود، شلل،
إقرار بالهزيمة، اعتراف بالعجز، خضوع لخزي يتحتم
عليك أن تخفيه عن أقرانك. اجمد يا رجل!

ملعون حزني، وملعون عجزني عن تحويله الآن إلى
غضب، وملعون جلوسي في سكون تام لا يقاطعه سوى
دخول الدخان من فمي وخروجه من أنفي وأنا أهدق إلى
الفراغ، وملعون شعور اليتيم الذي اكتسحني، كأن أبي رُمي
بالرصاص منذ دقيقتين لا عقدين من الزمن.

أعرف معنى اليتيم بقدر ما سيعرفه هذان الصغيران، وأعرف
عواقب لصووية الموت، يسرق والدك، ويسلب براءتك،
ويطردك من نعيم الطفولة فتهوي إلى جحيم الرشد في
غمضة عين لتعيش مع حكم بالحرمان لا يسقط بالتقادم.
سمعت باب الغرفة يُفتح يتبعه خفيف خطوات دليلة، ثم
صريره وهو يُغلق.

دنت مني بغضب تعاضم حين لمحت غيمة الدخان حولي،
فجحظت عيناها في اندهاش، أو ربما في إحباط لم أتمكن
من تحديد تعبيراتها بدقة، ولم أحاول التبرير، استسلمت
لخزي انتكاستي في صمت حتى سألتني:

- رجعت تدخن؟

- مش عارف.

- إيه اللي حصل في المطبخ وشقلب حالك كده؟

- شُفت عزة.

قطبت حاجبيها في استغراب:

- عزة خرجت من المستشفى؟

- عزة خرجت من الدنيا كلها.

ارتخت كتفها، وانبسط حاجباها، وانطفأت لمعة الغيظ

في عينيها. ألم أقل لكم إن الحزن خنوع؟

قلت كأنني أشرح لها خلاصة الوضع، بينما في الحقيقة

كنت أنفّس عن الإحباط الذي يعتمر صدري:

- عزة ماتت، وأبوها هيتشنق، وعلي هيتربى مع أهل اللي

قتل أمه وما أعرفش مصير عليا هيكون إيه. كل اللي عزة

وأبوها وأمل وأنا وقطر حاولنا نمنعه، حصل. فوزي

وسمير كسبوننا.

سكتت، وأنا لم أعتد منها السكوت، لديها دائماً تعليق

يليق بأي ما كان الوضع الذي تورطت فيه، ولكن هذه

المرة جلست إلى جوارى، وحدقت إلى الفراغ في صمت

مثلي، بينما أنفث دخاني بعيداً عنها.

انتشلت سيجارتي من بين أصابعي من دون تعليق، وبدلاً
من أن تلقيها في كوب الماء المتروك على الكومود كما
توقعت أن تفعل، وضعتها بين شفتيها، وأخذت منها نفساً
طويلاً كتمته للحظات، ثم زفرته على مهل.

تشاركنا هذه الانتكاسة المخزية، ثم ألقت عقب السيجارة
في كوب الماء وهي تقول بنبرة حازمة:
- دي آخر سيجارة هتتحط في بُقنا.

هززت رأسي موافقاً، فتنهدت بثقل، وأعادت الكوب إلى
الكومود، ثم ألقت رأسها على صدري، ولفت ذراعيها
حول خاصرتي، فحاوطت كتفيها بذراعي، وأسندت
رأسي إلى مفترق شعرها.

بقينا على هذه الوضعية لفترة، الحزن يغمرني بسكونه
وسكوته وخموله، ولكنه لم يكن بالثقل الذي اعتدت أن
يكون عليه، لأن زوجتي شاركتني حمله.

ذهبت أنا وقطر إلى أهل فوزي لنسجل موقفهم من
الحصول على وصاية علي، أما عليا المسكينة فلا أقارب
أحياء لها، يبدو أن عزة أرادت ألا تتكرر معها مأساة إقامة
أختها في بيت عائلة، فتزوجت يتيماً لا عزوة له، وبموته
وبموتها لم يعد لابنتهما الوحيدة كفيل.

تكالبت عليّ خواطر سوداوية حول مصير الصغيرين وأنا
أقود من جاردن سيتي إلى إمبابة، حيث بيت العائلة الذي
تباهى به فوزي المجحوم، بإذن الله، بينما انشغل قطر
بتأمل الجانب الغربي من النيل وبداية معالم حي إمبابة
ليتحفني بمعلومات لم أسأله عنها.

- تعرف إن سنة ١٧٩٨، نابليون انتصر على المماليك
هنا في إمبابة؟ مات من عنده ثلاثين جندي، ومات من
المماليك بالآلاف.

رفع قناعه، وأنزل كمامته حتى ذقنه، وأخرج جهازاً رقيقاً
عجيباً يشبه قلم الليزر، وضع فيه سيجارة صغيرة لم أرَ
مثلها من قبل. دسها في فتحة القلم، ودعس على زر، وبدأ
يسحب نفساً عميقاً خرج من أنفه كغيمة بخار تحمل عبق
رائحة قدرة لا يشمها المرء إلا في المراحض العامة.

أنزلت نافذتي ونافذته وأنا أقول ضاغطاً كمامتي على أنفي
لأقيها من هذا القرف:

- إيه الريحه الوسخه دي؟!!

- ده اختراع جديد، أخف من الفيّب وأرحم من السجاير.

- طب ارحم مناخير أمي، إنت مش شامم؟

- معلش هتتعود. نرجع لموضوعنا، فرق الخساير بين
المماليك والفرنساويين ده بديهي في معركة حصان
وسيف ضد مدفع وبندقية. بس تعرف إن فيه منهم ما
ماتش بسبب جيش نابليون؟

- أكيد ماتوا بسبب ريحة الغازات اللي بتدخنها دي!

- ده الدعم اللي بتقدمه لأخوك عشان يبطل تدخين زيك؟!!

- يا ابني الأجهزة دي كلها اشتغالات، لا هتساعدك على
التبطل ولا زفت.

- يا عم الواد اللي باع لي الجهاز ده قالي هيخليك تبطل
أسرع وتكسب وقت.

- بس هتخسر صحابك، دي ريحة تفض أي قعدة طيبة.
زفر بضيق، ثم أطفأ الجهاز، وتوقف عن التدخين. شعرت
بتأنيب الضمير لأنني عكرت مزاجه فقلت:

- ما قلتيش بقى الممالك ماتوا إزاي؟

- مهتم يعني؟

- مهتم بس؟! ده أنا مش هعرف أنام النهارده غير لما
تقولي الممالك ماتوا إزاي.

انفرجت أسارير صديقي الأبله، وظل يحدثني عن الممالك
الذين ملأوا جيوبهم بالذهب ليهربوا به في حالة خسارتهم
للمعركة، وبعد أن ضرب الفرنسيون مدافعهم، وارتعدت
قلوبهم من هول الصدمة قفزوا إلى النيل فغرقوا بسبب
الذهب الذي أثقلوا به جيوبهم، ثم ختم الحكاية بقوله:

- تعرف نابليون قال لجنوده إيه عشان يكسبوا المعركة؟

كان سؤالاً مجازياً لا يحتاج إلى إجابة مني، رفع يده
كخطيب مفوه وقال بصوت عريض:

- أيها الجنود، إن أربعين قرناً من التاريخ تنظر إليكم من

هذه الأهرامات! عشان كده الفرنسيين سموها المعركة
دي معركة الأهرامات.

- يعني نابليون قال لجنوده اللي واقفين على الأرض بصوا
على الأهرامات فبصوا وشافوها؟

- آه، المؤرخين الفرنسيين قالوا كده.

- قصدك المدلسين الفرنسيين قالوا كده. أهرامات إيه
اللي شايفينها من إمبابة يا قطز؟ هم كانوا بيتحاربوا على
الرووف توب؟

* * *

كأن حديث قطز عن هزيمة المماليك كان تمهيداً للهزيمة
التي سنشهدها في بيت عائلة فوزي.

تملصت أم المجحوم وإخوته من مسؤولية حفيدها حتى
بعد أن أخبرها قطز بأن هذا سينتج عنه إيداعه في دار رعاية
للأيتام، واستشهد بالمثل الشعبي:

- هترمي لحمك يا حاجة؟! ده أعز من الولد ولد الولد!

- لأجل الولد. وآدي الولد راح. أنا لا في صحة أربي ولا
معايا اللي يكفيه.

* * *

قدمت أم فوزي وأعمامه أوراق علي إلى مديرية التضامن الاجتماعي ليصبح رسميًا هو وعليًا مسؤولية الحكومة.

بعكس دليلة وقطر، لم أندش من تصرفهم الدنيء. هذه العائلة لم تحاول التواصل مع علي ولو مرة واحدة في السنوات السبع التي حُبس فيها فوزي، لماذا توقعنا منهم أن يتحملوا مسؤوليته الآن؟

لم أقبل أن يبقى الصغيران في دار رعاية مؤقتة إلى حين إتمام التنسيق مع المديرية، لم يتصالح عقلي مع تصور أنهما سيتفرقان، فوقعت على تعهد بإبقائهما معززين مكرمين في بيتي وعلى مسؤوليتي الشخصية، حتى يبت الحكم النهائي في قضية جدهما، وتقرر مديرية التضامن الاجتماعي مصيرهما.

ساعدني عمو أنور على الحصول على الموافقات اللازمة في أسرع وقت، وهكذا أصبحت أنا ودليلة مسؤولين عن صغيرين لا يكفان عن السؤال عن أمهما التي يظنان أنها ما زالت تتعافى من الكورونا، لا يعرفان أنها تأتي لزيارتهم كل ليلة، تجلس في غرفة الضيوف على المقعد في الزاوية تشاهدنا ونحن نضعهما في الفراش، ثم تنضم إليهما في أحلامهما فور أن يغفوا.

على الرغم من أن استمرار دخول روحها وخروجها من

بيتي يرتعد له بدني وتضطرب له أنفاسي، فإن قلبي لم يطاوعني على إشعال البخور وحرمانها من تمضية آخر أربعين يومًا لها على الأرض بين صغيريها وحلولها كضيفة خفيفة على أحلامهما.

انتهت أيامها الأربعون، غابت روح عزة عن غرفة الضيوف، ومن قبلها روح أمل عن الحديقة، وانمحي ذكر فوزي من الوجود، وما زلت أنا ودليلة نجهل كيف ننقل إلى علي وعليها خبر موت أمهما.

لجأنا إلى الفيديوها التربوية على الإنترنت بخصوص هذه المسألة، إحدى النصائح المفيدة كانت الحديث عن الموت مع الطفلين لتمهيد الخبر لهما.

لجأنا إلى الطبيعة لنشرح لهما الموت بطريقة ملموسة. تشير دليلة إلى أوراق البونسيانا الحمراء المتساقطة في شرفتنا لأن موسمها انتهى، وتريهما حبة طماطم فسدت، ثم تشرح لهما دورة الحياة من خلالها.

كنا نتحين اللحظة المناسبة لإعلان النبأ، إلى أن أتت ليلة قمرية نشاهد فيها التلفاز في غرفة المعيشة. علي يأكل الثلجات بالمكسرات باحترافية جعلته لا يلمح نفسه، بعكس عليا التي كادت تأكل الثلجات من الطبق بفمها مباشرة، ولكنني تدخلت في الوقت الصحيح،

وتفرغت لإطعامها بالملعقة، حتى ظهر على الشاشة تقرير فيروس كورونا اليومي بلونه الأزرق الفاقع ودوائره البيضاء المكتوب فيها بالأحمر أعداد المصابين والمتوفين والحالات التي شُفيت وخرجت من الحجر الصحي.

مات واحد وثمانون شخصًا، وشُفي ما يزيد على ثمانية عشر ألفًا، يمكنك الاكتفاء بالتفاؤل بالفارق بين الرقمين في حالة أنك تعتبر الواحد والثمانين ميتًا مجرد رقم في تقرير مثل المذاعة عديمة الإحساس التي تتحدث الآن، فانشغلت أنا ودليلة بانتقاد أسلوبها حتى شغلنا علي عنها بأن سألنا:

- هي ماما رحاب برضو ماتت بالكورونا؟

نصحتنا قنوات التربية بالصراحة والنزاهة، ولكني أفضل أن أكون كاذبًا مخادعًا على أن أفجع طفلًا بريئًا بأن أباه قتل أمه الحامل في شقيقه. ما زال لديه العمر كله لاكتشاف قسوة البشر.

كتمت صوت التلفاز، ووضعت طبق المثلجات على الطاولة التي تتوسط الغرفة من دون أن أخضع لرغبة عليا في لعق الطبق كالجرو، ثم أجبت عن سؤال علي:

- ما كانش فيه كورونا وقت ما ماما رحاب ماتت.

- أومال هي ماتت إزاي؟
- كان عندها وجع جامد في بطنها.
- وما راحتش للدكتور؟
- راحت، بس ما خفتش.
- صمت للحظات انشغل فيها ببرم طرف تيشيرت منامته،
ثم قال:
- الكورونا برضو ممكن ما نخفش منها؟
- أظن أن دليلة رأت في سؤاله فرصة سانحة لإعلامه
بالحقيقة، فاقتربت منه وربت على رأسه، ثم مسدت
شعره، وقالت بنبرة حنون:
- أيوه يا لولو، ممكن حد تيجيله كورونا وما يخفش.
ولأن ربنا حنين علينا وبيحبنا، لو لقي حد هيفضل عيان
وموجوع بيخليه يروحله السما.
- بس ماما عزة قالتلي في الحلم إنها أقوى من الكورونا.
نظرت إليّ كأنها تنتظر مني إشارة لبدء الحديث، فهزرت
رأسي، وحملت عليا لنجاور دليلة وعلي علي الأريكة.
مدت دليلة ذراعيها لتحيطهما وهي تقول:
- حبايبي، إحنا هنقولكم خبر مش سعيد بس مفيش مشكلة

إننا نتضايق ونعيط ونتكلم سوا عن زعلنا. إحنا بنحبكم
جداً وهنفضل جانبكم لحد ما الزعل يكون صغير وإن تو
تكونوا أكبر منه.

استقام علي في جلسته وانتقل من برم ملابسه إلى برم
الشورت الذي ترتديه دليلاً، ثم سألها كأن قلبه يحس
بما سنعلنه:

- ماما كويسة؟

هزت رأسها بالنفي، وأوضحت بهدوء:

- ماما عزة تعبت أوي. حاولت تقاوم الكورونا بس ما
قدرتش.

- الدكتور ما اداهاش حقنة؟

- اداها، بس ما خفتش، وعشان ربنا مش عايزها تتعب
كثير، خدها عنده.

لم يرفع عينيه عن طرف الشورت الذي شغل نفسه ببرمه،
قال بصوت ضعيف مهزوز:

- ماما عزة هي كمان راحت عند ربنا؟

انفطر فؤادي، هذه أتعس جملة أسمعها تخرج من فم
طفل!

بعكس علي الذي كساه الحزن، سألتني عليا بنبرة مرحة
وهي تداعب دبله زواجي:

- ممكن نطلع لربنا نشوفها؟

كنت على وشك أن أجيب الصغيرة التي لا تدرك حجم
مصيبتها بعد، ولكن علي اختصر عليَّ الطريق بقوله:

- لأ. هنطلعه لما إحنا كمان نموت.

لوت شفتيها، وارتعش ذقنها، وتغرغرت عيناها بالدموع.
يا إلهي الصغيرة على وشك البكاء!

قالت بصعوبة وهي تشهق بين الكلمة والأخرى في محاولة
لكتم بكائها:

- مش هشوف ماما تاني؟

ربت دليلة على رأس الصغيرة وهي تقول لها:

- هنشوفها لما نكبر. بس هي دلوقتي مش لوحدها، هي
قاعدة مع باباكي ومع أختها زي ما إنتي وعلي قاعدين
سوا.

لم تقتنع بكلام دليلة، أطلقت صرخة حادة مزقتني،
وانفجرت من بعدها باكية بحرقة تليق بحجم فجيعتها
مكررة نداء توطننت فيه كل معاني الفقد:

- ماما. ماما. ماما.

كان من الطبيعي أن يبكي علي مثلها، ولكنه قرر تبني دور المنقذ. حمل عليا عن الأريكة، وخرج بها مسرعاً من الغرفة وهو يهمس إليها بشيء لم أسمعه بوضوح.

أعطيناهما مجالاً للاستقرار في فراشهما في غرفة الضيوف، ظننت أن علي يستحي من البكاء أمامنا لهذا انزوى بأخته بعيداً عنا، ولكن حين تسللنا إلى الطريقة ووقفنا عند عتبة الباب خارج نطاق نظرهما لنطمئن عليهما، وجدناه متماسكاً، يستهلك السبل المتاحة كلها ليهدئ من روع عليا.

- كل اللي في الجنة طيبين، وعندهم ملايكة بتجيلهم ألوان شمع، وآيس كريم بالمانجا، وفشار بالكراميل، وكيكة برتقان زي بتاعت ماما.

- وفيه مصاصات فراولة؟

- أيوه.

- ومش بتجيلهم حساسية؟

- لأ. مفيش حد عيان في الجنة. عارفة كمان إيه؟

- إيه؟

- ماما عزة قالتلي إن لما أروح لمامتي رحاب في الجنة
هلاقي إنها محوشة لي لعب وحلويات وأفلام كرتون
وموبايل كبير مليون جيمز.

- هتاخدني معاك؟

- أيوه.

- إمتي؟

- لما يعدي يوم ويوم ويوم، ونكبر ونبقى عواجز زي جدو.

- بس أنا عايزة أروح اليوم ده. عايزة دلوقتي.

- ماما عزة قالتلي لو فكرت في الجنة كتير أوي أوي أوي،
هروحها في الحلم. يلا ننام ونروح سوا دلوقتي.

سمعتة يلثم خدها، تعامل معها بحنان ونضج واحتواء عجز
فوزي أن يتعامل به معه أو مع زوجته. انظروا إليه، يُؤثر
مشاعر أخته ومخاوفها على نفسه، ويحتويها أفضل منا،
أهذه تربية «النسوان» التي خاف راضي على علي منها؟!

لعنة الله عليكم جميعًا، يَتَمِّم طفلين وفطرتم قلوبهما!

بقينا واقفين قرابة ربع الساعة ننصت إلى علي وهو يحكي
غيبًا مغامرات تان تان التي أصبح يدمنها، ولا تمر ليلة
من دون أن تترجمها له دليلة قبل النوم.

على ذكر دليلة، كانت في حالة يرثى لها، بكت أكثر مما
بكت عليا، ولكن من دون صوت فاحتويتها كما احتوى
علي أخته التي نامت أخيراً، ووصل إلينا شخيرها اللطيف،
فتوقف عن الحكي.

سمعته يزفر زفيراً ثقیلاً، وعلت أنفاسه حتى تحولت إلى
شهقة تبعها نسيج مكتوم فاقتحمت الغرفة، وإذ بالصغير
ينام على بطنه، ويكتم وجهه في الوسادة ليخفي انهياره
عن الجميع.

حملته عن السرير فلم يقاومني، تشبث بعنقي دافساً وجهه
في صدري الذي استبدله بالوسادة ليكتم بكاءه.

خرجت به، وبقيت دليلة مع عليا حتى لا تسير نائمة أو
تستيقظ فتجد نفسها وحيدة. وبدخولي غرفة نومنا، تحول
بكاء علي إلى عويل عنيف، حتى ابتل صدري بدموع القهر
التي اخترقت روحي.

جلست على الأريكة، وما زال متعلقاً بعنقي، فأحطت
بدنه المرتعش كعصفور هُجّر من عشه ولم تنصفه الرياح.

لم أطلب منه أن يهدأ، تركته يفرج عن بكاء كتمته في
صدري منذ أن كنت في مثل عمره. حررته من كبتي
وكتماني، فتتابعت زخات عبراته الحارة حتى فرغ مخزون

أحزانه، وصار نحيبه أنيناً آخذاً في الخفوت، إلى أن نام
من فرط الإجهاد.

وضعته في سريرنا، لا يصح تركه وعلياً ينامان بمفردهما
وهما على هذه الحال.

فتح عينيه، واستعاد وعيه لثانية من الزمن، كرسها لي طرح
عليّ سؤالاً لم يُوجّه إليّ غيره منذ أن عرف أن كل ما تبقى
له من عائلة قد تلاشى:

- مين هيعمل لعليا صغيرة؟

أغسطس

٢٠٢٠

جدلت دليلة ضفيرتين لعليا تنتهي كلُّ منهما بشريطة بيضاء
يتناسق لونها مع لون النقط على ثوبها الأحمر، وأسدلتهما
على كتفيها، بينما أمشط لعلي شعره الأسود الغزير، ثم
أساعده على ارتداء كمامته، استعدادًا للذهاب مع قطز
إلى محل لعب أطفال.

كان من المفترض أن يشتري هو وآسيا أغراض المولودة
المنتظرة، ولكن وسوسة «حياته» الحامل في شهرها قبل
الآخر لم تنتهِ بانتهاء حظر التجول المسائي، والغلق الكلي
للبلاد، وبانخفاض عدد المصابين بالكورونا، وحتى إعلان
التوصل إلى لقاح ضد فيروس كورونا، وتوفره للجمهور
خلال أشهر. ما زالت فكرة الخروج من البيت تصيبها
بالذعر، فتطوع قطز، وقرر أن يقوم بالمهام كلها نيابة عنها،
مرة أرافقه، ومرة ترافقه نادية، ومرة يرافقه والداه.

نزلت والصغيران إلى الشارع حيث ينتظرنا في سيارته،
فتحت الباب الخلفي، وساعدتهما على الجلوس، وربط
حزام الأمان، ثم استدار قطز، وأعطاهما كيسًا ممتلئًا
بالحلوى وهو يقول:

- اتسلوا يا حبايبي لحد ما نوصل.

نهشت عليا الكيس، وسكبته كله على الأريكة حتى تختار
حلواها المفضلة، بينما يهمس علي إليها معيدًا كل شيء
إلى مكانه:

- عيب. قولي شكرًا.

شكره اللبق المؤدب الصغير، وظل يستأذن قبل كل
قطعة حلوى يفتحها ويأكلها بتحفظ خبير إتيكيت،
بينما تمزق عليا الأكياس، وتثرفات البسكويت،
وتعبئ السيارة برائحة الكباب الصناعي التي تفوح من
رقائق البطاطس.

أمضينا الدقائق العشر الأولى من رحلة لن تقل عن
ساعة نثرثر عن شهرة وليد الآخذه في التزايد والخبر
الذي شاركه معنا في الأمس عن أن إحدى منصات
صناعة الدراما العربية ستعاقد معه لكتابة مسلسل
جريمة قصير.

لم أطل الحديث عن وليد، كان يجب أن أحدث قطز عن
أمر شديد الأهمية أرجأت أن أفاتحه فيه.

لم أتخطَّ فضفضة دليلة في أثناء شجارنا الأول. اتصلت
بنادية بعدها بيومين، وأخبرتها بأن تتوقف عن النظر إلى
زوجتي بشفقة أو بتضامن أو بأي ما كانت تنظر إليها به
كلما حنت على أطفالها ولعبت معهم.

جادلتنى وقتها بالطبع، أنكرت، ثم اعترفت، ثم بررت
هذا بأنها قصدت التعامل بإحساس مرهف، فقلت لها:

- إحساس مرهف إيه يا نادية إنتي فاكدة نفسك إيسا!

- طب والله ما كان في نيتي حاجة، هي بس كل ما بتلعب
مع تالا ويحيى وياسر أنا غصب عني بتأثر وبدعي لها
في سري.

- ما أنا عارف إن مش في نيتك حاجة، بس ياريت تظبطي
الأداء وتبطلي أفورة. وبعدين تدعيها وهي بتلعب مع
تالا ماشي، إنما يحيى وياسر دول المفروض الدولة
تستغلهم في إعلانات تنظيم النسل.

ضحكت، ثم اعتذرت، ووعدتني بأن تكون أكثر وعياً
وانتباهاً للغة جسدها ونظراتها إلى دليلة. وها قد أتى
دور آسيا.

وصلنا عند إشارة مرور فاستغل قطر وقوفنا وراح ينظر
إلى مرآة صالون السيارة، ويمشط بأصابعه شعره الغزير
الذي بعثره هواء النافذة، وينزله على جبينه، وأنا بدوري
استغللت عدم انشغاله بالقيادة بأن قلت له:

- هسألك سؤال هتيجي سكة وترد عليه من غير ما تزوق
الكلام.

- سترك يا رب.

- فيه حاجات بتحس إنك مش عايز تعملها قدامي عشان
ما تقلبش عليّ المواجه؟

زفر بضيق، بل بالأحرى أعلن تأففه من سؤالي، ثم قال
بنبرة شديدة الاستنكار:

- حاضر يا نوح، مش هسرح شعري قدامك تاني!

- إيه؟!!

- هراعي مشاعرك بما إنك في أول طريق الصلع، وأنا،
بسم الله ما شاء الله، أوصتي نازلة على عيني. تحب
أقابلك وأنا متحجب بعد كده؟

ضحك أخي الأحق طيب القلب الذي لا يرى في نقيصه
غير خط شعري المتراجع فلم يفهم إلام أرمي، أو ربما

فهم، وقرر أن يأخذ منعطف السخرية حتى ينفي عنه التهمة. لا أعرف، المهم أن إجابته خلصتني من القلق الذي زرعت له دليلاً تجاه انعدام زيارة زوجته لنا منذ شهور. ضحكت معه، وجاهدت لساني حتى لا أمارحه بالسباب المعتاد بيننا؛ حفاظاً على براءة الصغيرين الجالسين في الخلف، واكتفيت بقول:

- ورحمة أبويا لأزرع شعر، ولن أرحم أحداً يا كلاب.
تحول ضوء الإشارة إلى الأخضر بينما أقول له حتى يطمئن قلبي تجاه آسيا وقلب دليلاً بالتبعية:
- دليلاً عايزة تعزمك إنت وآسيا على الغدا عندنا الأسبوع ده.

لا تملك دليلاً أدنى فكرة عن هذه الدعوة، اختلقت الأمر ليكون ترمومترًا وهميًا لقياس حقيقة توجسها من آسيا.
- أجلوها لبعد الولادة، آسيا بقت خائفة حتى تبص من الشباك.

ارتفع منسوب الترمومتر.

- مفهوم طبعًا.

- بس آسيا كانت بتقولي إنها محتاجة دليلاً في خدمة.

انخفض منسوب الترمومتر.

- خدمة إيه؟

- ترص معاها حاجات البيبي، وتظبط كام حاجة في
أوضته، عشان قالتلي ذوقي مقرف.

كسرت الترمومتر لمائة قطعة. من تخاف على مولودها من
حسد زوجتي لن تطلب مساعدتها في فرز أغراضه. كنت واثقاً
بأن آسيا أسمى من أن تفكر في دليلة بهذا الشكل السقيم.

- خليها تكلمها، وأنا هرتب الدنيا. لسه ما لقتوش اسم
للبن، صحيح؟

- كنا استقرينا على إيزيس بس آسيا صحيت مش طاقة
تسمعه.

- إشمعنى؟

- مفيش إشمعنى مع آسيا اليومين دول. تقولي لأ، أقول
لأ جدّاً، تقولي حاضر، أقول حاضر خالص، وأديها
ماشية لحد ما تولد بالسلامة.

نظرت عبر النافذة، الطريق السريع الفسيح يشعرك
بضآلتك، على جانبيه مجمعات سكنية مسورة تفصلك عن
قوم لا يشبهونك ولا يثقون بك، إلى درجة أنهم يحصنون

منطقتهم ببوابات وأمن وحائط فصل طبقي يعلو، حاجبًا
عنك رؤية بيوتهم، ولكن الأشجار تعاند السور وتعلو
عنه، فلمحت أيكة من الجاكرندا ذبلت زهورها البنفسجية
المميزة، ولكن ما زالت أوراقها الخضراء متماسكة، فخطر
على بالي أمر بُحت به لقطز بحماسة:

- ميريت اسم فرعوني، صح؟

- ما تقولش فرعوني، قول مصري قديم.

- انجز يا زاهي حواس، مصري ولّا لا؟

- ده مصري جدًا كمان. تعرف إن معناه المحبوبة اللي
اشتقينا منه النهارده كلمة مراتي، يعني حبيبتني باللغة
المصرية القديمة؟ تعرف إن أول ملكة حكمت مصر
بعد موت جوزها كان اسمها ميريت نيت؟ حكمت مصر
في عصر الأسرة الأولى لمدة عشر سنين، لأن ابنها كان
لسه طفل، وعصرها كان...

لم ينقطع حديثه عن أولى ملكات مصر، وعن جمال
اسمها، ولاحظت في المرأة أن علي كان ينصت إليه
باهتمام يناقض به لامبالاتي بالقيمة التاريخية والثقافية
واللغوية للاسم بقدر اهتمامي بتحرري من أسطورة النذير
الشؤم التي زرعتها فيّ أُمي.

نتوهم أننا نختار لأطفالنا أسماءهم، ولكنها قُدرت لهم
قبل أن يكونوا نطفة في رحم.

فليسّم قطز وآسيا ابنتهما ميريت. عسى أن يكون لميريت
قطز أنور المحمدي نصيب من دلالة اسمها، عسى أن تكون
ملكة مصيرها، وسيدة قرارها وربة اختيارها، عسى أن تعيش
في مجتمع لا يقتل الفتيات إذا رفضن من تقدّم إلى خطبتهن،
كما حدث لميريت بنت أمل، مجتمع لا يرحب بقتل الزوج
لزوجته تحت بند التأديب، كما حدث لرحاب، ولا يتواطأ
فيه أشباه الذكور على التربص بالنساء، كما تواطأ البواب مع
فوزي ضد عزة، وأن تقتص قوانينه لضحاياه، كما اقتصت
ذات زمن من قتلة المهندسة نانيس رحمها الله.

عسى أن تكون ميريت «مرات» رجل يحبها كما أحب
أبوها أمها، وكما أحب عمها نوح عمتها دليلة، ومن قبلنا
والداي، ووالدا قطز، وجداي، وجداه، وصولاً إلى أجدادنا
الملوك الذين حرصوا على أن ينحتوا متشابكي الأيدي مع
زوجاتهم، ومتعانقين، ومتساندين، يشيدون باسم الحب
المعابد والقصور والمقابر، من دون الانشغال بأيهم يملك
سلطة أكبر على الآخر.

أنهى قطز محاضراته عن تاريخ الملكة ميريت نيت بأن
شارك آسيا اقتراحي في رسالة صوتية، وبمجرد وصولنا

إلى المحل، كانت آسيا قد وافقت على اقتراحي، فأدركت أنني فعلت أمرًا لن تتاح لي فرصة أخرى لفعله، اخترت اسم ابنة قطز، أي اخترت اسم ابنتي.

* * *

استعان قطز بأحد البائعين ليعينه على إيجاد المشتريات على القائمة التي تمتد على هاتفه إلى ما لا نهاية، بينما انطلقت عليا تركض بين الأقسام فكاد علي يلحق بها وهو يقول:

- عليا، عيب!

استوقفته بلطف قائلاً:

- لا عيب ولا حاجة. العبوا، واجروا، واعملوا كل اللي إنتو عايزينه، بس ما تكسروش حاجة.

- لو جريت جامد هتقع.

- وإيه المشكلة. هتقوم تقف تاني.

عادت عليا تركض نحوي وهي تحمل دمية باربي ترتدي زياً رياضياً وردياً، وممسكة كرة قدم صغيرة تناسب مع أبعاد حجمها، ثم صاحت الصغيرة كأنها شهدت معجزة:

- باربيبي بتلعب كرة! عايزاها.

قال علي موبخاً:

- قولي لو سمحت.

قالت بابتسامة تزداد اتساعاً وبنبرة دلال تنطق فيها السين
ثاء، لأن فكها ما زالت تنقصه سنتان لبنيتان في الوسط:

- لو ثمحت!

يا إلهي، كيف لي أن أرفض لها طلباً. قلت كمن ندهته النداهة:

- جيبني كل اللي نفسك فيه.

قفزت في مكانها، ثم عانقت يدي لأن هذا ما طالته مني، ثم
ركضت في الممر تصرخ بحماسة بريئة كنت في حاجة إلى
جرعة منها لتخطي كآبة وسوداوية ودموية الأيام السابقة.

وقف علي يقول بإحراج أتمنى لو أعرف كيف أخلصه منه:

- شكراً عشان خليتها مبسوفة.

- طب ما تغششني أخليك مبسوط زيها إزاي!

ابتسم في خجل، فأمسكت يد الصغير الزاهد عن الحياة،
وسرت معه في الممر، أتوقف عند دمي الأبطال الخارقين
فلا أراه مهتماً، أسير نحو الكرات المختلفة فلا يلتفت
إليها. تنقلنا من قسم إلى آخر بينما تراكم عليا الألعاب
والدمى بين ذراعيها بجشع رجل أعمال فاسد.

تركت علي وذهبت لأحمل سلة مشتريات أضع فيها

ألعاب عليا، وحين عدت وجدته يقف أمام لعبة تمنيت
في طفولتي أن أشتري مثلها، ولكن جدي حال بيني وبين
طموحي، لأنني كنت في نظره مشاكساً متهوراً لا أؤتمن
على نفسي فحرمت من الحصول على لوح التزلج الذي
يتفرج علي عليه الآن.

ليس أي لوح تزلج، لوح أصفر أطرافه خضراء، وعجلاته
تلمع تحت اللمبات النيون، إنه لوح تزلج المحقق كونان
الذي ألصقت عيني بالتلفاز متمنياً أن أمد يدي عبر الشاشة
وأسرقه منه، لأتزلج به في شوارع جاردن سيتي، متخيلاً
أنني أطارد أفراد المنظمة السوداء.

حين انتبه علي لوقوفني بجواره، تظاهر بأنه غير مهتم
بلوح التزلج، ولكنني حملته عن الرف من دون تعليق،
ووضعتة أسفل إبطي وراقبت كيف ترتسم ابتسامة على
وجهه الصغير. وكزته بلطف، فقهقه بامتنان، ثم ناولته
لوح أحلامنا، فتشبث به وقال:
- شكراً.

* * *

تركت علي وعلياً يجربان مختلف الألعاب، وذهبت إلى
قسم ألعاب الشاطئ، فتبعني قطز وهو يقول:

- جاهز نمشي؟

- استنى بدور على حاجة. عارف البط الأصفر المطاط ده؟

- إنت اتعبطت على كبر يا نوح؟

- هو أنا اللي هلعب به يا أهطل؟! علي وعليا، عمرهم ما نزلوا الميه، فدليلة كل شوية تملاهم البانيو وتلبسهم مايوهات وتعملهم جو كده بما إن معنديش رصيد أجازات يسمح بالسفر دلوقتي.

تو غلت في القسم، تُهت بين مئات الألعاب المائية المعقدة حتى وصلت إلى آخر الممر، ولمحت مغطسًا قابلاً للنفخ مطبوعاً على علبته صورة عائلة سعيدة من أب وأم وابن وابنة، يتراشقون بالمياه مستخدمين مسدسات مائية، وحولهم ألعاب بلاستيكية ملونة تطفو على سطح الماء.

وقفت أمام العلبة، أتأمل ملامح الأسرة السعيدة، وأقرأ مقاسات المغطس، وأتفقد بطاقة سعره، كان أغلى مما توقعت، ولكن في مقدوري أن أشتريه.

سألني قطز:

- بتفكر ولا إيه؟

- مش أحسن لهم من البانيو؟

- أحسن بس هتخط الحجم ده كله فين؟

* * *

أخذت بنصيحة روح المرحومة أمل، واستأجرت الحديقة من شقيقها.

وافق من دون مفاوضات في سعر الإيجار، وعرض عليّ أن أشتري شقة الطابق الأرضي إذا احتجت إليها، فهو وابنه لن يمكثا في مكان امتصت أرضيته دمًا، وابتلع جوفه جثة.

لا أتفق مع هذا التفكير، ما الكوكب إلا مسرح جريمة كبير منذ أن قتل قابيل هابيل، ولا نملك سوى تخطي بشاعات من سبقونا، وتنظيف مواقع جرائمهم، وتعمير ما خربوه، وتجميل ما قبحوه بعد أن يقتص كل شخص لقتيله حتى تستمر الحياة.

توليت مشروع إعادة إحياء حديقة أمل، رشحت لي صباح بستانياً محترفاً، أبوه عطار تشتري منه بذور نبتة عنب الثعلب وجميع الأعشاب التجميلية.

ساعدني في اقتلاع الحشائش الذابلة والنباتات الميتة، وتقليم الأشجار المهملة، واستبدال الطاولة الرخامية المستديرة والمقعدين اللذين كانت أمل تجلس على

أحدهما عندما فارقت الحياة، بطقم حديقة خشبي طاولته
مستطيلة بستة مقاعد، ثم ربطنا هاموك برتقاليًا بين فرعي
شجرة اللبخ، ونصبنا أرجوحة صغيرة للطفلين بين شجرتي
البونسيانا والجاكرندا.

استغللت دائرة علاقات رؤوف زوج صباح الذي يملك
مكتب تشطيبات ويعرف صناعية محترفين في جميع
المجالات، فأرسل أحدهم إليّ كي يركب سقفًا قابلاً للطبي
يغطي المغطس الذي نصبته في الحديقة إلى جوار شرفة
شقة الطابق الأرضي، فيوفر لنا مزيدًا من الخصوصية في
نهارات الصيف الحارة.

بعد أسبوعين من العمل، افتتحنا الحديقة.

دعوت أحبتي لتمضية وقت عائلي لطيف في الهواء الطلق.
اعتذرت تيتة، كما هو متوقع، فهي لن تغادر شقتها حتى
يتوفر لقاح الكورونا في الأسواق، وكذا فعلت آسيا التي
انتهت ودليلة من تجهيز غرفة المولودة المنتظرة منذ
ليلتين.

حضر قطز ومعه طاهر وعمو أنور وطنط نجوى، ومن
بعدهم أمي ونادية وطارق وتالا حبيبتني وشقيقاها
العفريتان، وليلو وحماتي.

أخرجت شواية أبي التي لم تغب عن أي تجمع عائلي
في المصايف، وانشغلت وقطر وطارق في الشواء، بينما
تساعدنا نادية ودليلة في تحضير السلطات والمعكرونة
والأرز. أمهاتنا يتحدثن عن تفاهة جيلنا ومساوئ التربية
الحديثة، وعمو أنور بما أنه الرجل الوحيد بين ثلاث نساء
لم يجد ما يقوله غير:

- ربنا يولي من يصلح.

ثم ينهض ليشرف على تسويتنا للحم.

تالا تلاعب قطها البرتقالي، وتقدم علي له، ثم يلعبان
بلوح تزلجه على بلاط الرصيف الداخلي المحيط
بالحديقة، وباقي الأولاد يسبحون في المغطس مع ليلو
التي أحضرت سماعات تصدح بأغاني ويجز ومروان
بابلو ومروان موسى، ولم يسلم الأطفال من غمرها لهم
في المياه، ورشهم بمسدس الماء، حتى إن يحيى وياسر
اشتكيها إلى أمهما بأحر الدموع، فباركت نادية مهارات
ليلو في قهر شقاوة الطفلين، وطلبت منها ألا ترحمهما.
أكلنا أطيّب غداء، وقالت أُمي التي لم تذق مشوياتي من قبل:
- بتشوي تمام زي أبوك يا نوح.

قبلت جبينها، واستأنفت الطعام، وبعد الغداء تعاوننا

لتنظيف المكان ما عدا ليلو هانم، التي تظاهرت بأنها ستبقى في المغطس لمراقبة الأطفال، وهي في الحقيقة لم ترفع عينيها عن شاشة الهاتف التي صارت أسيرتها.

أكلنا المثلجات بعد الغداء، ولعبت الشطرنج مع عمو أنور كما اعتاد أن يفعل مع أبي وجدي، ثم قرر الأطفال أن يلعبوا لعبة تعتمد على الركض من خط البداية الذي حدده عند السياج، إلى خط النهاية حيث نجلس عند الطاولة أسفل الأشجار.

نهضت دليلة مع ليلو لتبحث لها عن شاحن لهاتفها الذي استهلكت بطاريته في تصوير فيديو هات تيك توك مع الأطفال، في اللحظة نفسها التي بدأت فيها اللعبة.

انطلقوا يركضون، علي أسرعهم لأنه أطولهم، ولكن في منتصف الطريق حين أدرك أنه يقترب من خط النهاية تباطأ من دون أن أفهم سبب تراجعه بعد أن كان في الطليعة.

سبقتة تالا، لمست طارق وصاحت:

- بابا!

استقرت عنده، فعانقها، وصفق ليدعم فوزها، ثم فعل يحيى ومن بعده ياسر الأمر نفسه، ففهممت أن الغرض من اللعبة أن يلمس كل طفل أباه ثم يصيح «بابا»، وهذا

ما جعل علي يقف في مكانه. أظنه ارتبك، وتردد في أن يلمسني على اعتبار أنني أبوه، بينما باقي الأطفال يعلمون علم اليقين من آباؤهم.

ركض طاهر مركزاً على نقطة وصوله عند قطز، ولكن عليا جذبتة من طرف التيشيرت. الصغيرة شديدة التنافس، ولم تقبل أن تكون الأخيرة، وطاهر جنتلمان مثل أبيه وقف يضحك، وترك لعليا فرصة أن تغلبه.

ركضت الصغيرة نحوي، لم تردد، لم تتساءل، قطعت المسافة المطلوبة متخطية ارتباك علي، ووصلت عندي، وفتحت ذراعيها، وألقت بنفسها صوبي وهي تصيح منتصرة:

- بابا!

ذاب قلبي بين ضلوعي وأنا أتلقفها، قبلت رأسها الذي يشتعل بحمرة شعرها تحت أشعة الشمس، وحاوطتها بذراعي اليسرى، بينما أفتح اليمنى نحو علي، وأبتسم إليه ابتسامة تدعوه إلى أن يحذو حذو أخته بلا قلق.

ركض طاهر صوب قطز بعد أن سمح لصغيرتنا بفوز غير شريف، ولكنه لطيف، وحين وصل إلى قطز صاح كباقي أقرانه:

- بابا.

قلدهم علي الذي لولا ترده لكان فاز عليهم جميعاً،
ركض صوبي، ثم همس بخجل شديد، كأنه لا يود أن
يسمعه غيري:

- بابا.

قبلت رأسه، كما قبلت رأس أخته، ثم تركتهما يستعدان
لجولة جديدة من لعبتهم. التفت صوب قطز لأعلق على
شهامة طاهر، ولكنني وجدته ينظر إليّ وقد اغرورقت
عيناه بالدموع كما يفعل كلما شاهد مشهداً مؤثراً في فيلم
كرتون، ثم لكم كتفي بخفة من دون أن ينطق بكلمة واحدة،
كلانا يعرف الآخر كما يعرف نفسه، فكانت نظرتة مرهفة
الحس كفيلة بأن أعرف ما يود قوله فابتسمت له، وبقيت
أراقب لعب الأطفال وأنا أتخيل أبي جالساً بيننا يشرب
المياه الغازية الباردة من زجاجته التي تشبه الصاروخ كما
اعتاد أن يفعل، ولسان حالي يقول «كم كان سيحب رؤية
عائلتنا وهي تكبر».

* * *

وضعت عليا وعلي في فراشهما بعدما حممتهما دليلاً،
وبدلت ثيابهما، وشغلت لهما مكيف الهواء الذي ركبته

منذ شهر حتى أرحمهما من رطوبة الصيف، ثم غطيتهما حتى إبطيهما بغطاء خفيف، وذهبت إلى غرفتي.

وقفت دليلاً برداء استحمامها الأزرق، تستخدم مجفف الشعر، فأغلقت الباب حتى لا يقلق ضجيجها منام الصغيرين، ثم جلست على أريكتي المفضلة المقابلة لطاولة تزينها فأرى ظهرها الممشوق وانعكاس محياها الحسن في المرآة في الآن نفسه. شعرها المبتل يلمع تحت ضوء الغرفة الحميم، وخصلاته تتطاير مع حركة مجفف الشعر، وبشرتها تتوهج بنضارة تسرق لبي، وما أعطر رائحتها التي تأسر حواسي، بينما تبتسم إليّ ابتسامة اتخذتها تميمة حظي!

سرحت في تأمل حركة أناملها الرقيقة المطلية أظفارها بالأزرق السماوي وهي تدهن شعرها بزيت تفوح منه رائحة جوز الهند حتى سألتني:

- اللي واخذ عقلك؟

- محدش واخذ عقلي غيرك.

- يا سلام، يا سلام. ده إحنا كل يوم نعمل باربكيو في الجنية لو هتخلي موودك حلو كده.

أخذت قارورة قطرت منها سائلًا شفافًا على وجهها، وبدأت تدهنه في دوائر وهي تقول:

- ممكن نعمل قعدة تانية زي دي الشهر الجاي، يوم
تسعة سبتمبر.

- إسمعني؟

- هيكون عيد ميلاد عليا.

- ماشي.

- وواحدة كمان بعدها بشهرين، عيد ميلاد علي ستة
نوفمبر، بعدك بيوم.

قطرت مزيدًا من السائل، ودلكت به رقبتها، مستأنفة
حديثها:

- ما تخلي الولاد معانا لحد نوفمبر؟ حرام يقضوا عيد
ميلادهم في دار ولا مع عيلة تانية لسه ما يعرفوهاش.
علي مش بيتعود على الناس بسرعة، ومش أي حد يقدر
يتعامل مع شقاوة عليا. ولأ إنت إيه رأيك؟

لا تود معرفة رأيي في هذا الاقتراح بالضبط، أعرف زوجتي
بما يكفي لأثق بأنها تود أن تقترح عليّ اقتراحًا آخر، اقتراحًا
شغل بالي كل ليلة على مدى الشهرين الماضيين، وكنت
أتساءل إن كان يشغل بالها هي أيضًا، ولكن لم يفتح أحدنا
الآخر فيه، ربما تخاف أن تسألني بوضوح فأرفض، أو
أملت أن أبادر أنا به.

ارتخيت في جلستي، وتشاءبت بقوة حتى دمعت عيناى
المتعبتان، كان يوماً طويلاً ومجهداً، لا عجب أن أبى كان
ينام نوماً عميقاً وشخيره يصل إلى غرفتي ونادية بعد كل
ليلة شواء وسباحة في شاليه الغردقة.

مسحت عيني من دموع الإرهاق، ثم عاودت النظر إلى
دليلتي، التي فرغت من تدليك وجهها، وبدأت تدهن
ذراعيها بزيت له رائحة زهور عطرية تشعرني بالاسترخاء
الشديد، ها هي ذي تدلك رسغها حيث ندب طولي أصيبت
به في مثل هذا اليوم منذ سنة مضت بموسى قاتل مأجور
دنيء، كلفه زوج أمى بقتلي وأنا في غيبوبتي، فألقت
بنفسها عليّ حتى تفديني بجسدها، وها نحن أولاء تحت
سقف واحد على الرغم من مشاق الحياة وجنون الكون
وسعار البشر، جسداً تملأهما الندوب، ينقصني طحال،
وتنقصها رحم، ولكن كلينا يفيض حباً للآخر.

تلاقت أعيننا في المرأة مجدداً، فابتسمت، ثم سألتني
بنبرة مشاغبة:

- هتفضل تعاكسني في المراية من سكات؟ مش هتقولي
رأيك؟

- طب ما تقوليلي رأيك إنتي.

التفت بنصفها العلوي نحوي حتى تتقابل أعيننا من دون
وسيط، وسألتني متشوقة:

- في إيه بالضبط؟

- في إننا نلغي أوضة الضيوف، ونخليها أوضة لعلي
وعليا على طول.

تنبيه

في حال تعرضك للعنف الأسري داخل مصر، يُنصح بالتواصل مع مكتب الشكاوى التابع للمجلس القومي للمرأة.

الخط الساخن: ١٥١١٥

رقم واتساب: ٠١٠٠٧٥٢٥٦٠٠

البريد الإلكتروني: complain.office.2001@gmail.com

الفاكس: ٦٨-٦٦-٢٣٤٩٠٠ (٠٢)

شكر و عرفان

غادة عبد العال
أحمد مرتضى
كاري ميريل
رايات وودوارد
ويتني لاستر
شارون ميليك
رضا محمد

عن الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة «ليسيه الحرية» في المعادي، ثم في كلية «الألسن» جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدرت لها عدة روايات، من أهمها: «سلسلة تحقيقات نوح الألفي»، و«سلسلة قائمة أغاني السفاح المثالي»، و«صديقي السيكوباتي»، و«دليل جدتي لقتل الأوغاد» (القائمة الطويلة لجائزة كتارا الأدبية)، و«قنبلة للاستخدام الشخصي».

للتواصل مع الكاتبة

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdee

x: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

TikTok: @mirnaelmahdy1

Goodreads: [ميرنا المهدي](#)

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:

